خسوف بدر الدين

باسم خندقجي

رواية

مكتبة نوميديا 222
Telegram@ Numidia_Library

دار الآداب

خُسُوف بَدر الدِّين

باسم خندقجي

خُسُوف بدر الدِّين

رواية

دار الآداب ـ بيروت

خُسُوف بدر الدِّين

باسم خندقجي / كاتب فلسطيني

الطبعة الأولى عام 2019

ISBN 978-9953-89-645-8

حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينِه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقلِه بأيّ شكل من الأشكال، من دون إذن خطّيّ مسبَّق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

info@daraladab.com

Daraladab @Daraladab daraladab.com

«واعلَمْ أنَّ النفس، والشيطان، والملك، ليست أشياءَ خارجة عنك، بل أنت هُم، وكذلك السماء، والأرض، والكرسيّ، ليست أشياءَ خارجة عنك، ولا الجنَّة، ولا النار، ولا الموت، ولا الحياة، إنَّما هي أشياء فيك، فإذا سرت وصفوت، تبيَّنت ذلك إن شاء الله.»

(نجم الدين كبرى، فوائح الجمال وفواتح الجلال)

الإهداء

إلى أبي، يا حاجّ صالح، يا أبا باسم، كيف رحلتَ قبل أن أرحلَ إليك؟!

القسم الأوَّل:

أحلام الجارية مكنونة

الفصل الأوَّل:
أغاني الورد والنور

ما بين آخر الفجر وأوَّل خيطٍ شمسيٍّ يكافح غازلًا وهجَ النهار ضُحًى يرتدي حُلَّةً مبارَكة لأوَّل أيّام العيد، كان يقف متأهِّبًا إلى جانب جواده الأصهب.

طيفٌ تماهى سوادُ ملابسه مع عتمةٍ شفيفة شرعتْ بالانسحاب من أجواء المِساحة الضيِّقة التي تفصل الجدار الخلفيّ لإصطبل القصر الشرقيّ الكبير عن جدار المدرسة الظاهريَّة. لم يلبث طويلًا في ترقُّبه الذي يشبه خشوع صلاة، إذ انبثق جاهدًا طيفٌ أسودُ آخرُ من كُوَّة في وسط جدار الإصطبل تسمح لنحوله بالانسلال منها. ساعد الطيفُ الأوَّل الطيفَ الآخر بلهفة على الخروج، إذ أنزله على الأرض بعناية ولطف.

كانا متَّحِدَيْن في سوادهما، يؤمِّن الأسود لهما سترَ ملامحهما وهيئتهما. وقفا إلى جانب الجواد للحظات ليأخذا أنفاسهما التي

يردِّدها سكون اللحظة من حولهما، ثم مالَ الأوَّل على صاحبه المنبثق لتوِّه من جدار، قائلًا بصوت ذكوريّ مُعبَّأ بهمس العشق الدافئ:

ـ أنا الذي أتلمَّسكِ الآن، وأنتِ التي تحيطين بي كنهارٍ مفعَم بالنور والبركات. إنَّني أتنشَّق الآن كلَّ هذا الشغاف العطر لأقول لك: إن كان ثمَّة مُخلِّصٌ فإنَّه سينبعث منكِ حتمًا؛ من قلبك؛ من ضلعكِ. كما أنا أتوق إلى الانبعاث منك، فخلِّصيني.

رمقته بعينين لامعتين من وراء لثامها الأسود، ثم قالت بغُنجٍ هامسةً:

ـ خلِّصْني أنت من ثقل هذا الكلام، وخُذْني من هنا قبل أن يكتشف أمرَنا أحدٌ.

فامتطى جواده، ثم أردفها خلفه بخِفَّةٍ وانطلقا بكلِّ دعةٍ وهدوء.

انسابا في مطلع نهار يستعدّ لاستقبال العيد، يلفّهما في موكبهما المستتر بالسواد المهيب صباح العاشر من ذي الحجَّة من عام 798 هـ، الموافق الثالث عشر من تشرين الأوَّل من العام 1396 م.

إنَّه عيد الأضحى.

وهو الذي عزم على الاحتفاء بها بعيدٍ فريد، بعيدًا عن الأجواء الاحتفاليَّة المكتظَّة في ميادين القاهرة وقصورها ومساجدها وقلعتها المَجيدة، بعيدًا عن مجالس السلطان وأمرائه وحاشيته.

همست في أذنه:

ـ إلى أين نمضي.

أجابها بحزم:

ـ إلى جزيرة الروضة.

وقبل أن تُعقِّب هي، أردف قائلًا بلطف:

ـ لا تقولي شيئًا الآن كي لا تجذبي اهتمام أحد المارَّة بصوتك هذا الذي تحنّ إليه وتلين له أقسى القلوب.

فصمتت تلفُّ بيديها النحيلتين خصرَه الصلب الدافئ. انطلق بجواده مبتعدًا عن ناحية القصر الكبير ومحيطه، متَّجهًا نحو الجنوب؛ جنوبيّ القاهرة المتمدِّدة أسفلَ جبلها المُقَطَّم، والمستعدَّة بفرح أهلها لاستقبال العيد وأجواء سروره.

نديَّةٌ هي القاهرة هذا الصباح، مزيَّنةٌ بالرايات والبيارق الملوَّنة، من كلِّ ركن منها ينبعثُ تأهُّبٌ ما للعيد، من مساجدها وأسواقها وميادينها وقصورها.

دبَّ الجواد بثبات راكبيه، والناس من حول موكب العشق يحثُّون الخطى بخفَّة وسرور نحو اللحاق بمسجدٍ يزفّهم بصلاة العيد إلى بشرى الأماني وأيَّام قادمة لربَّما تحمل في لحظها الهناءَ لهم.

جازا دربَ الأتراك، ثم مرّا خفيفين من ناحية الجامع الأزهر على متن جوادهما الموغل في جنوبيّ غربيّ القاهرة بعد أن أمره فارسه، بلكزٍ لطيف، بالخروج من أحياء القاهرة والالتزام بمحاذاة النيل البهيّ هذا الصباح. وأمَّا هي، المنصهرةُ في متن فارسها، فكانت تراقب مُستترة بلثامها أجواءَ العيد وبوادر اكتظاظ الناس المنهمكين في إبهاج أطفالهم، مصرِّين بدورهم على حقِّهم الكامل في مباهج العيد، ومراقبة الأضاحي التي ستُذبَح مع أوَّل إشراقة تقرُّبًا إلى الله، تتأمَّل في تفاصيل الناس وحِراكهم وطِيبهم وزينتهم. حتى الفقراء في هذا الصباح ألحقوا أنفسهم بهذه الأجواء بما توفَّر لهم من ثياب قد تتكفَّل باحتفائهم بهذا اليوم الجميل.

وأمَّا هو فارسها، فلم يكن يشاركها في التطلُّعات ذاتها، إذ كان

هائمًا في غبطة ذراعيها اللتين تطوّقانه. كم حلم بلحظة كهذه، تلفحُهُ بأنفاسها، وتلفُّهُ بعبقها، هي «مكنونة»، القريبة من قلبه وروحه.

الجارية مكنونة، ذاتُ الصوت الخُلّبيّ الطروب الذي عشقه وجُنَّ به منذ اللحظة الأولى التي سمعه فيها في أثناء مرافقته لشيخه ومعلّمه أكمل الدين إلى مجلس السلطان الملك الظاهر أبي سعيد برقوق، للاحتفاء بسموِّ عرشه وعظيم سلطانه. كانت تغنّي برفقة مجموعة أخرى من المطربات قصائدَ مدح وثناء للسلطان الأعظم، في ذاك المساء الذي حلَّ عليه منذ عام. لم تأسره أُبّهةُ المُلْك، ولا فِتَن العظمة والبذخ، ولا سرورُه بمرافقة معلّمه، بل هي وحدها.

هي مكنونة التي ما إن وقع حرفها المُغنَّى في سمعه، حتى سُحِرَ بها وعلق بأغنياتها.

كان في لُجَّة الحضور المُكوَّن من أمراء، وحاشية سلطانيَّة، وعلماء، ومعلّمين مسرورين بدعوة السلطان لهم، وكان لا يتوخّى إلَّا عينيها اللتين خفَّف من ألقهما بُرْقعٌ أخضرُ شفيف مُخرَّم، إلى أن لمحته هي، وأدركت ذلك النور المنبعث من عينيه وجبينه، فمسَّها نوره وبات همُّها الأوحدُ لقاءَه والتألُّقَ في حضرته. هذا فارسها الذي لم يبرحه تأثيرُها في قلبه، في إثر تلك الأمسية، إلى درجة أنَّه تطلَّع إلى لقائها متابعًا تحرُّكاتِها وأخبارَها، ومُتَحَرِّيًا في أيِّ قصرٍ تسكن، إلى أن تحقَّق له المراد في إحدى أسواق القاهرة، مفتتحًا وإيّاها دربَ عشق خفيًّا، بعيدًا عن العيون والفضول والفضائح.

فهي الجارية مكنونة التي وُلِدتْ في بيت ضامنة المغاني[1] في القاهرة، كبُرتْ وترعرعتْ بجمالٍ صارخ وصوتٍ ما إنْ غرَّدت حرفَها

(1) ضامنة المغاني: هي التي تُدير شؤون بيوت الدعارة وتنظّمها في العهد المملوكيّ.

الأوَّل حتى راقصه الطرب، وهو ما دعا ضامنة المغاني إلى الاهتمام بها والاعتناء بصوتها الأخّاذ منذ أنْ كانت صغيرة، فحتمًا ستجلب لها ثروةً طائلة مع أوَّل أغنية ستشدوها في حضرة أمير مملوكيّ. وهذا ما حدث. فما إن شارفت على بلوغ الثلاث عشرة زهرة حتى قطفها أمير الحرس السلطانيّ من ضامنة المغاني بمئتين وخمسين دينارًا. كانت بمثابة ثروة طائلة للخيزبون التي لم ترأف بقلب طفلةٍ لا تعلم عن أصلها شيئًا سوى أنَّها وُلِدتْ لأمٍّ تُركيَّة بِيعتْ، بعد أن أنجبتها، لنخّاسٍ بغداديّ، لتغدو مكنونةُ أسيرةً بصوتها الذي لا تعلم ما الذي سيجلبه لها، وخصوصًا عندما تكون في قبضة أمير مملوكيّ يحوز أهمَّ منصب في السلطنة. طغى عليه صمته وتفكيره فيها:

ـ هل سنعبر النيل بحصانك هذا؟

أجابها بهدوء:

ـ نعم، ولكن عبر قارب، فالمسافة بين الضفَّتين قصيرة. لا تخافي يا جميلتي.

غرقت في ظهره لتستعيد الثقة والطمأنينة برفقته وقدرته على منحها ذلك النورَ؛ نورَ الأمان والعشق والسلام الذي ألقاها في دربه منذ عام. فهل تحبُّه حقًّا؟ أم هو مجرَّد مسرب خفيّ تهرب من خلاله نحو براءتها التي سُفكت في أروقة القصور ومجالس الطرب؟

طردت التساؤلاتِ الشَّوْكيَّةَ الدامية لتستقبل كلماته من جديد:

ـ ها قد وصلنا. والآن، سنختفي في جنَّةٍ صغيرة سأمنحها لكِ هديَّةَ عيد.

جزيرة الروضة.

ركنٌ قُدَّ من جَنَّة، أو هي جنَّة رفضت العلوّ نحو السماء متشبِّثة

بالأرض لتثبت للناس أنَّ ثمَّة ما ينتظرهم من نعيمٍ وفردوسٍ في الحياة الأخرى؛ حياة الأبد ورياحين الخلود. جزيرة يُحيط بها النيل كسوارٍ لُؤلُئِيّ يحمي ما يجثم فوقها من قصور وحصون تؤكّد سطوة أسياد الزمان من سلاطين وأمراء، بيْد أنَّ فارسها الصباحيَّ هذا آثر تجنُّب اكتظاظ العمران والقصور، عازفًا بها نحو ركن خفيّ مهجور في شرق الجزيرة بعيدًا عن أعين الناس الذين باتوا مندغمين في صلاة العيد.

قال لها بسرور بعد أن ترجَّلا عن الجواد:

ـ الآن، يمكنكِ أن تستردِّي فطرتَكِ وأنوثتَكِ.

حدَّقت فيه للحظات، ثم جالت في الركن الذي أهداها إليه، مأخوذة بهذه الجنَّة الصغيرة، التي على الرَّغم من خريف القاهرة الصاعد إلى أوج جفافه واصفراره، فإنَّها كانت مفعَمَة بالأزهار، والأعشاب، والأشجار التي تآلفت في لوحة ملوَّنة عَطِرة ستتكفَّل حتمًا بالاحتفاء بهما معًا، ثم خلعت عن وجهها لثامَها الأسود الذي كان يُخفي ملامحها، لتكشف له الآن في حضور الورد عن حُسنِها المتألِّق، بعينيْن خضراويْن واسعتيْن تُنيران وجهها الدائريَّ فيشعّ نضارة، يتخلَّله نمشٌ خفيف، يزيدها نورًا شعرُها الطويل المُجعّد الصاخب بحمرةٍ منسجمة مع قوامها الممشوق، وفتنتها الثريَّة المُكلَّلة بصوت يُرقِّص الدنيا طربًا وشجنًا.

حدَّق فيها بصمت مأخوذًا بجمالها، ثم سألته، وهي ابنة الثمانية عشر عامًا، بفضول:

ـ ما هذا المكانُ الرائع. كيف عثرت عليه؟

أجابها جاذبًا يدَها بلطف ليجلسا فوق كومة أعشاب طريَّة أعدَّها هو حاشيةً لهما:

ـ هذا المكان كان في الماضي ركنًا يُسمّى الهوْدجَ، شيَّده الخليفة الفاطميّ الحاكم بأمر الله لزوجته، وعثرتُ عليه صدفة في أثناء تجوُّلي في أنحاء الجزيرة.

سألته ببراءة تشرف على الغباء:

ـ ومَنِ الحاكمُ بأمر الله؟ أنا لا أعرف سوى السلطان الحاكم الظاهر برقوق.

ـ دعكِ من أمره الآن، ودعينا في أمرنا وعيدنا.

نظرت إليه بدلال، ثم سألته بهمسٍ مثير:

ـ أيّ أمر تعني، وماذا تريد؟

ارتبك حضوره بشقاوة حضورها المثير، فأشاح نظره عنها، ثم قال بخفوت:

ـ أريد أن أحتفيَ بكِ. أريد أن أصير عبدًا لكلِّ هذا الجمال.

ـ ويح هذا الكلام، ما ألذَّه وأثقلَه على صدري!

ـ سأصمتُ، إذن، ولْيَشْدُ صدرُكِ بالغناء.

سألته بتبرُّم:

ـ الآن هنا؟! ألا تخشى أن يسمعنا أحد فيُنغِّصَ علينا الفرحة بسيف يحزّ عنقينا؟

استردّ زمام حضوره، ثم دنا منها قائلًا بحزم:

ـ عندما تكونين معي لا تخافي ولا تتردَّدي في الغناء على إيقاع قلبينا معًا.

ثم نهض في ظلِّ صمتها ليجمع باقة من أزهار وأعشاب زكيَّةِ الرائحة ناعمةِ الملمس، وعاد نحوها طالبًا منها الاستلقاءَ على ظهرها.

تردَّدتْ حائرة من هذا الطلب الغريب عنه، فهذه المرَّة الأولى التي يكون فيها جريئًا إلى هذه الدرجة. نظرت إليه كأنَّها تريد التأكُّد فأجابها:

ـ استلقي وأغمضي عينيكِ، ولا تخافي.

ففعلتْ ما طلبه منها، ثم راودها بباقة الأزهار مُمسِّدًا بها بطنَها، وصدرَها، وعنقها، ووجهها، صعودًا وهبوطًا، بوتيرةٍ بطيئة لطيفة، هامسًا بتمتمة غريبة لم تفهم منها شيئًا، ولكنَّها بوجود الأزهار والأعشاب الناعمة كألسنة حريريَّة رطبة ودافئة، شعرت كما لو أنَّ رائحة بخور زكيَّة انبعثت من الباقة، ثم أيقنت أنَّ شعورًا غريبًا آخر يسكنها؛ شعورَ التحرُّر من الخوف واعتناق الطمأنينة. تنهَّدت تنهيدة ألم حارَّةً، ثم استرخت، إلى أن توقَّف طالبًا منها بصوته العميق الدافئ أن تفتح عينيها، لترى فضاءً رحبًا وركنًا آمنًا يُظلِّل لحظتهما الفارّةَ من رعب القصور ودهاليزها الدمويَّة المظلمة. تململت قليلًا، ثم اعتدلت في جلستها إلى جانبه محدِّقةً فيه بتعبيرٍ ما بين الاكتفاء والرضا، قائلةً في نفسها بحسرة: قبِّلْني أيّها الأحمق. امسَسْني كي أَئِنَّ كنايٍ وأُغنِّيَك.

سألها وهو يُقبِّل جبينها كما لو أنَّه سمع همسها:

ـ ألن تغنِّي لي الآن؟

أجابته بجفاء بعد أن أعرض عنها في ظلِّ شمسٍ شرعت تحثُّ أشعَّتها نحو أوَّل النهار:

ـ يجب أن أعود إلى القصر في أقرب وقت كي أغفوَ ليرتاح صوتي. فهذه الليلة أوَّلُ ليالي العيد والغناء والسمر، إلَّا إذا أردتَ أن يكتشفوا أمر تسلُّلي إليك فأفقد صوتي إلى الأبد!

كأنَّها تقول له: أنا لستُ مُلْكَك لأغنّي لك.

حدَّق فيها بصمت وأسًى. كان يرثي لحالها وأمرها المسلوب، ثم أعرض عنها سارحًا في ملكوت جنَّته الصغيرة ووجع قلبه الذي لم يهدأ مُذْ سكنته بجمالها وصوتها الساحر، وها هي الآن تذكِّره بأنَّها ليست له. تُذكِّره بأمير ذي سطوة وبطش، قادرٍ على محقهما معًا إذا علم بأمرهما وأمر جنَّتهما هذه. تُذكِّره مكنونة بأنَّ وجودهما معًا سيغدو ذكرى عابرةً بعد قليل. تذكِّره بهذا كلِّه، رغمًا عنها، هي التي تحبّه وتعشق أنفاسه وأحاديثه التي لا تُدرك معانيها غالبًا، وهو العاجز عن أخذها والابتعاد بها عن هول الفتن ودماء القصور. لكنَّها لمست كآبة شرعت بالتسلُّل إلى جنَّتيهما لتُفسد أجواء عيدهما، فعزمت على ردِّ الجميل لحبيبها الذي أهداها أجمل صباح في حياتها، فدنت منه متلمّسةً بكفَّيها وجهَه النورانيَّ، قائلة ببحَّة أسًى اكتست صوتها:

ـ حسنًا، سأغنّي لك. فأنا أداعبك يا نور القلب ومنارة الروح، سأبقى معك حتى تطرب ويُثمل صوتي قلبَك.

رمقها متظاهرًا بجذل طفلٍ عثر أخيرًا على حلواه المفضَّلة كي يطرد بدوره أجواء الكآبة، ثم قال بتوسُّل محبَّبٍ إليها:

ـ ولكنْ، لا تغنِّي مدائح السلطان بحقّ ربّ هذا العيد!

ضحكت بدلال:

ـ لا، بل سأغنِّي ما لقَّنتني من شعرٍ أخذ قلبي.

ثم رنَّمت لحنًا لتمسك به مطالع الأغنية، ثم أغمضت عينيها وشرعت بالغناء:

أَمُوتُ وَمَا مَاتَتْ إِلَيْكَ صَبَابَتِي
وَلا قَضَيتُ مِنْ صِدْقِ حُبِّكَ أَوْطَارِي

مُنَايَ الْمُنَى كُلُّ الْمُنَى أَنْتَ لِي مُنَى
وَأَنْتَ الْغِنى كُلُّ الْغِنَى عِنْدَ إِقْتَارِي
وَأَنْتَ مَدَى سُؤْلِي وَغَايَةُ رَغْبَتِي
وَمَوْضِعُ آمَالِي وَمَكْنُونُ إِضْمَارِي
تَحَمَّلَ قَلْبِي فِيكَ مَا لا أَبُثُّهُ
وَإِنْ طَالَ سُقْمِي فِيكَ أَوْ طَالَ إِضْرَارِي[1].

غنَّت مكنونةُ بإخلاص وإتقان تامَّين. غنَّت لتمسَّ شغاف قلبه، لتُطرب روحَه، لتتوغَّل فيه، ليَسكنه أثيرُها الطربيّ. غنَّت من دون أن تعي عمق الكلمات ومعانيها النورانيَّة. كانت تعي الطرب واللحن وخشوع هذه الجنَّة لعظمة صوتها، وسكونِه هو، هو المسكون بالصوت كأنَّه يصلِّي خاشعًا في رحاب حَنجرتها، يختلج صدره بأنفاسها. هام فوق اللحن واتَّحد بالشعر البهيّ الذي أحالته هي إلى أغنية رائعة بعد أن كان قد ألقاه على مسمعها منذ زمن. ها هي تباغته به الآن، فما بالُ مكنونة تقسو عليه بحقيقة مصيرها السبيّ، وتحنو عليه بقصيدة حرَّة مغنَّاة؟

راقص الكلمات حتى الدمع ومشارف البكاء. وما إن انتهت، حتى تناهى إلى مسمعه صدى صوتها، آتيًا من بعيد، تسأله عن رأيه في اللحن: هل سمعها حقًّا؟ كان يحدِّق في وجهها بعمق. كان مأخوذًا بعالم آخر، في ركنٍ ما، في أعالي النور ومن حوله مرايا عديدة جليَّة مصقولة ببهاء. لربَّما كان في السماء، إذ حدَّق في إحدى المرايا فلم يرَ وجهه فيها، بل رأى نورًا، أو سِراجًا يشعّ نورًا، إلى أن عاد إلى اللحظة الورديَّة مستنشقًا أنفاسَها وعبيرَها بعد أن هزَّته من كتفيه قائلةً

(1) ذو النون المصريّ: الشاعر الصوفيّ.

بخوف: أَلَمْ تسمعني وأنا أتحدَّث إليك وأناديك؟ أجابها متنحنحًا:

ـ كلَّا، لم أسمعكِ.

ثم تدارك أمره بسرعة مرتبكًا: بلى، كنتُ أصغي إلى حُسن غنائك. ثم أقلع عن الكلام فجأة، وهو يحدِّق في وجهها كأنَّه يشاهد حلمًا، ثم قال لها هامسًا وهو يحيط وجهها بكفَّيه: إنَّني أصقل مرآة قلبي بالشوق إليكِ، فحدِّقي فيَّ لترَيْ نفسكِ وجمالك. ثم صمت من جديد، فهزَّته قائلةً بتوسُّل هذه المرَّة:

ـ لقد انتهيتُ من الغناء منذ قليل وأنت لا تستجيب عندما كنتُ أستجدي حضورك. أين تغيب عندما أغنِّي لك؟ إنَّك تخيفني بغيابك المُخْدِق بي هكذا. قل لي بحقّ الله!

ثم غاب من جديد، فهتفت باسمه بلوعة وخوف: بدر، أَجِبْني يا بدر... بدر الدين!!

* * *

الفصل الثاني:
معلِّم السلطان الصغير

هذا المستلقي في سريره، الساهمُ في قبَّة حُجرته، المتوحِّدُ بعصيرة هادئة من ضوضاء التلاميذ وصخب المدرسة، المتوسِّدُ أصيلَ القاهرة، الطويلُ باعتدال والنحيلُ باقتدار، الوسيمُ، مع بياض المحيّا، ولحية خفيفة مشذَّبة بأناقة تنسجم وشعرَه الأسود المنسدل بنعومة على كتفيه، بعينين بصفاء العسل ولونه، وجبين نديٍّ يشعّ نورًا؛ هذا المعتزلُ عن الناس وحياة الناس بعمرٍ لم يتجاوز ستَّة وعشرين عامًا، المنكفئُ نحو رحابة صدره وسرور قلبه في إثر كلّ لقاء يجمعه بمكنونة؛ هذا الفتى التركيُّ القادم من أعماق الأناضول، هو بدر الدين محمود، المشهورُ بابن قاضي «سيماونة»؛ الفتى الذي حلَّ بالقاهرة منذ أربع سنوات قادمًا من ساحات الوغى والفتوحات في شمال العالم، وأكناف عاصمة الدنيا القسطنطينيَّة تنفيذًا لوصيَّة أبيه: «لم أخلِّفْ لك قبيلة ولا عائلةً مَهيبة ممتدَّة تشدّ بها على حواسم قَدَرك، لقد منحتك، يا ولدي،

توطئةَ العلم، ووصيَّتي لك الآن هي أن تشدَّ الرحال إلى القاهرة كي تتزوَّدَ بعطايا الخالق ونِعَمه لعباده بعقولٍ وأفئدة يتفكَّرون بها في أنفسهم وأحوال الدنيا». وها هو اليوم على مشارف عام آخر يمرّ عليه هنا في آفاق القاهرة، يتأمَّل أيَّامه التي أمضاها في أجواء العلم والعلماء، متثقِّفًا ما بين النقل والعقل، والأدب، وعلم الكلام، والتفسير، واللغة العربيَّة ببلاغتها، وصرفها، ونحوها، وما بين الفلسفة والمنطق، متقنًا، إلى جانب لغته التركيَّة الأمّ، العربيَّةَ والإغريقيَّةَ والفارسيَّةَ. هو بدر الدين، الفتى اليانعُ المنفِّذ لوصيَّة أبيه القاضيةِ بتلقِّيه العلمَ والإرشاد على يد المعلِّم الجليل أكمل الدين، شيخ الأتراك وقاضيهم في الديار المصريَّة، والذي ما إن حلَّ بالقاهرة حتى جذب أنظار من حوله وألبابَهم؛ إذ يتذكَّر الآن ذلك اليوم منذ أربع سنوات، ولقاءه الأوَّل معلِّمَه المنشود وترحيبَ الأخير به، طالبًا منه، في اختبارٍ مبطَّن، تلاوةَ ما تيسَّر له من القرآن الكريم، كي يُفصح عن لسانه، وإذا ما كان به لَحنٌ أو خلل.

في ذلك الصباح كانا وحدهما داخل حجرة أكمل الدين الواقعةِ قبالة الصحن الرحب للجامع الأزهر، حيث لم يشأ المعلِّم إحراج ابن صديقه في بداية طريق علمه أمام حشد من معلِّمي الأزهر وتلاميذه، فهو يخبَر عُجمة اللسان التركيّ وثقلَه في تطويع الفصاحة العربيَّة. رمقه بدر بنظرة حادَّة اخترقت نيَّاته؛ نظرةٍ سيهابها معلِّم الأتراك عندما سيرافقه بدر الدين في دروب العلم وميادينه. قبض بدر الدين على القرآن بيده اليمنى وخرج مسرعًا من الحجرة قاصدًا منتصف الصحن الأزهري، ثم نظر حوله متأمِّلًا، كأنَّه يدعو، بنظراته الحادَّة، روّادَ الأزهر إلى ما سيتلوه عليهم من آيات الذكر الحكيم، ثم جلس متربِّعًا ضامًّا القرآنَ إلى صدره من دون أن يفتحه، وأغمض عينيه أمام دهشة

معلّمه الذي لحق به على عَجَل ليكتشف ما يدور في بال هذا الفتى الذي يبدو أنَّه سيفتتح درب أبيه بحماقةٍ وتهوُّر، ثم جاد بدر الدين: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1]. سكنَ الأزهر. وعلى والرَّغم من الأحاديث والحوارات وحلقات العلم في أروقة الجامع وزواياه، فإنَّ جميع من ارتاد الأزهر في ذلك الصباح جَمِدَ في مكانه خاشعًا لحلاوة الصوت والبيان المنبعثين من فتًى غريب الملامح لم يلحظوه من قبلُ بين ظهرانيهم. جادَ بدر الدين وجوَّد بصوت حَسَن، وجبين ومض، ليجذب من حوله قلوبَ المعلِّمين قبل التلاميذ. وما إن انتهت تلاوته، حتى هرع إليه معلِّمه وقبَّل رأسه وخلع عليه عباءته، قائلًا له بحماسة: «ظهر على لسانك الحقُّ. واللهِ إنَّك لمن قريش. واللهِ إنَّك لمن قريش»، في إشارة منه إلى سلامة نُطق بدر الدين ولسانه الفصيح الذي لم تخالطه عجمة. في إثر ذلك اليوم المشهود في الأزهر، شرعت بوادر الحظوة لدى معلِّمه تحلُّ عليه، إذ قرَّبه منه أكمل الدين وجعله تلميذه المخصوص بطِيب المعاملة وحُسنها؛ التلميذ الذي يتقن تلاوة القرآن بقراءاته السبع، والحافظ للأحاديث النبويَّة عن ظهر قلب ونباهة وسرعة بديهة، ليصول ويجول في ميادين الأزهر قابضًا على المعارف، ناهلًا من موارد العلم، مرافقًا لمعلِّمه في كلِّ مجلس وقصر. ومع تقدُّمه في مسالك العلوم النقليَّة، آثر معلِّمه نقله من المدرسة الطبرسيَّة الواقعة في رحاب الجامع الأزهر إلى المدرسة الظاهريَّة البعيدة عنه، والتي كانت

---

(1) سورة النور: الآية (35).

أرقى مدارس القاهرة وأفضلها، فهي ركن العلوم العقليَّة وزاوية الحكمة المفهوميَّة، وفيها منحه المعلِّم حُجرةً خاصَّة به، ودخلًا شهريًّا مقداره ثلاثون قرشًا، وكتبخانةً مليئةً بالمجلَّدات والمتون والصحف التي ستكون نعيمَ بدر الأبهى لما تحويه من مراجعَ ومناهلَ التهمها وشرب فضلها بشوقٍ ونهم للمعرفة والسموّ بالعلوم، ليسبح في فضاءٍ أرحب من أروقة الأزهر وعلومه النقليَّة التقليديَّة. ففي المدرسة الظاهريَّة، أصبح في إمكانه الخوضُ في نقاشاتٍ صاخبة مدافعًا عن موقفه وحماسة شبابه، متزوِّدًا بمعارفه الجديدة من المنطق وشؤون الفلسفة، إذ فتنه ابن رشد بفكره، وابنُ سينا بحكمته، والفارابي برجاحته، وفلاسفةُ الإغريق وحواراتُهم، بالإضافة إلى تطعيم علومه بدُرَر الشعر العربيّ البليغ ليتجلَّى بدرًا بحقٍّ في سماء العلم.

في حُجرته تململ هائمًا بما أحرزه هنا في القاهرة من نبوغ وفصاحة، ويفكِّر أيضًا فيما سيفاجئه به معلِّمُه في الغد القريب، بعد أن أخبره بأنَّه بات على مشارف الانعتاق من عباءة المعلِّم وأروقة المدرسة، وتخرُّجه منها أنبهَ التلاميذ وأعمقَهم إدراكًا. غدًا، سيكرمه معلِّمه. سيمنحه البركة لينطلق في الدنيا بالعلم والتعليم، فأيُّ حظوة هي التي نالها بدر ويتمنَّاها التلاميذ من حوله. حظوة أكمل الدين القاضي والعلّامة والصوفيّ في زمان القاهرة المكتظّ بالزوايا والطرائق الصوفيَّة، وعوالم الدراويش المتراوحة بين أَلَقِ المعرفة وحقيقتها النورانيَّة، وهولِ الشعوذة وجنونها؛ المعلِّم الذي اكتشف نور بدر الدين فانجذب نحوه بالعطف والاهتمام، ساعيًا في الوقت نفسه نحو جذبه إلى زاويته الصوفيَّة الخاصَّة به في درب الأتراك، إلَّا أنَّ انهماك بدر في أحكام المنطق وعلومه، حجبه عن إشارات معلِّمه وتلميحاته له بالسرّ الذي يكمن في داخله؛ سرِّ النور الذي يتجلَّى حين كان يناشد

بدرًا تلاوةَ القرآن عليه في حُجرته ومجلسه الخاصّ ليندمج المعلّم في ترانيمه وحروف السماء، مُحلِّقًا في معاني الآيات المتجلّية نورًا بتلاوته. ثمَّة هالة من النور تُحيط ببدر. هذا ما كان يلمسه المعلّم الأكبر، إذ كان يلحظ تحليق بدر في أثير الكلام، يتأمَّل في جبينه المتلألئ، ثم يُثني عليه قائلًا بغبطة: إنَّك محاط بهالة من نور الله يا بدر، بركة لا يحوزها إلَّا من سَلَكَ درب الحقيقة والمعرفة.

ولم يكن بدر ليُدرك هذه الإشارات التي كان يبوح بها معلّمه، فهل كان يتجنَّبها ويتهرَّب منها؟ هو المنغمس في كتبه، الغارقُ في بحور الكلام والعلوم، كان يتقدَّم إلى الأمام يدفعه هاجسٌ ثريّ بالشغف؛ بشغف وإصرار غامضين نحو امتلاك مفاتيح الفهم وإدراك الحياة بكلِّ ما فيها، في إثر رحيله عن بلاده ومهد روحه وشبابه وانقطاع صلته بأسرةٍ لم تمتدّ لتغدو سندًا وامتدادًا له، كما قال له أبوه الذي كان في أوج الحروب قاضيَ عسكر الجيش العثمانيّ في عهد السلطان مراد، وممَّن ساهموا في فتح أدرنة[1] وقراها ليمنحه السلطان، في إثر ذلك النصر، قريةَ سيماونة وقلعتها المطلَّة على القسطنطينيَّة؛ سيماونة الخلَّابة التي وُلد فيها بدر الدين، وإليها يُنْسَب اليوم من دون أن يُنْسَب إلى أمّه السبيَّة الإغريقيَّة، التي ما إن أنجبته حتى قضت أنفاسها نزفًا وآلامًا، ولم يعرف بدر الناشئ حتى اسمَها. فنشأ في أجواء النعيم وطِيب المقام وتلقِّي أُسُس العلم بدنياه ودينه على يد أبيه الذي لطالما حلم بذهاب ولده الأوحد إلى القاهرة، منارةِ العلم والعلماء، ليغدو عالِمًا وفقيهًا، علَّه حين يعود ينال حظوةً لدى سلاطين بني عثمان.

---

(1) أدرنة: تقع شماليّ غربيّ إسطنبول على حدود اليونان. احتلَّها العثمانيُّون عام 1361 م.

كان على يقين بأنَّ ولده ممسوسٌ بنورٍ ما مُذْ كان صغيرًا. كان يلحظ غيابه عن مجلسه في أثناء حديثه إليه وتعليمه إيَّاه، واثقًا بأنَّ بدر الدين مجذوب إلى نور الله، وأنَّ غيابه ما هو إلَّا إشاراتٌ خفيَّة توحي بذلك.

كان هدف أبيه الخفيُّ إبعادَ ولده الوحيد عن عالم أهلكته الحروب والفِتَن؛ عالم لا وقت فيه لتلقِّي العلم والكتابة والقراءة، في الوقت الذي ما إن يموت فيه القاضي أبو بدر حتى تذوي معه حظوتُه لدى السلطان مراد بكلِّ ما فيها من نعيم، وأراضٍ، وقصر منيف. فالجاه والثروة السلطانيَّة لا يُورَّثان في أعراف عظمة عثمانيَّة ناشئة في تاريخ الأمم والسلاطين، ولذلك سعى جاهدًا نحو إقناع ولده بالرحيل، ليلفظ في إثر ذلك أنفاسَه الأخيرة داعيًا لبدر بالتوفيق، مرتاحًا من عبء أسئلته المقلقة والمبكِّرة في حدَّتها وغرابتها؛ أسئلة الفتى عن أمّه، وأصلها، وعن تلك المعارك والحروب من حوله، ولماذا يقتل الناس بعضهم بعضًا! ولماذا يوجد عبيد وسبايا في قصر أبيه؟ وهل كانت أمُّه مثلَهم؟ هكذا، كان يباغت أباه بأسئلته الشاذَّة عن محيطه وقواعده المتينة وسُنَّة التاريخ وأقداره.

ارتاح أبوه بنهاية هادئة لحياته الحافلة بالدماء والسيوف، مخلِّفًا وراءه وصيَّتَه لفتًى يبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا.

ينتفض بدر في سريره. ينتابه ذلك الإحساسُ الغامض من جديد ليفعمه بنورٍ يراه. يرى قلبه، يتفقَّده بكفَّيه. قلبه ينبض نورًا ساطعًا؛ نورًا أعماه، سما به. إنَّه في سيماونة الآن يغتسل في نهرها العذب الصافي، يقبض الماء بكفَّيه عاريًا، ويوشوشه بتمتمةٍ غريبة، ثم يشربه مرارًا وتكرارًا من دون أن يرتوي، ثم يخرج من النهر متعَبًا. يستلقي على ضفَّته المزدانة بالأزهار والأعشاب الطريَّة. يحدِّق في زرقة سمائه

الرهبة الصافية. إنَّه في وضح النهار، لكن لا وجود لشمسٍ تسطو على المساء بأنوارها الساطعة. ثمَّة وجه آخر؛ وجه بيضاويّ ساطع لا يتبيَّن ملامحه، يهبط نحوه بهدوء وبطء. يرتجف بدر، يخاف، يُغمض عينيه. دفءٌ ناعمة تمسّد جبينه. ثمَّة صوت يتمتم في أذنه بلغةٍ غريبة. يكاد يفتح عينيه، يكاد يقول شيئًا، ثم يعود إلى حُجرته.

يشهق بحدَّة كالغريق الذي بلغ سطحَ الماء والحياةَ في آخر لحظة، ناجيًا من أعماق سحيقة. يتنفَّس بصخب، يرتجف، ثم يشرع في التحكُّم في نفسه وفي نبضه، مستعيدًا وعيَه.

هذا ما ينتابه في لحظاتٍ محدَّدة خاصَّة عندما ينتفض قلبه خاشعًا في الصلاة أو تلاوة القرآن، أو متفكِّرًا في كتابٍ يقرِّبه أكثر إلى فهم كينونته وحياته. وما جعل هذا الإحساس الغريب يتكرَّر بشدَّة في الآونة الأخيرة، هو لقاءاتُه مكنونةَ؛ تلك اللقاءات التي تجعله يتلاشى. نعم يصلح الفناء بصوتها وسحرها وجمالها. كان يمتلئ بطاقة من تشوُّف ونور، من دون أن يُدرك، حتى هذه اللحظة، معنى تلك العبارات والتمتمات ذات الأصوات الناعمة الهامسة ولغتها الغريبة التي تُحيط به وتخترقه. كان يكتفي بنشوته وسروره باللحظات التي يتَّحد بها. كان يعيش خارج اللحظة وخارج الدنيا، مشرفًا على البشر ودنياهم من علوّ، لا يعلم أين هو ومَن هو، ثم يعود معبَّأً بسعادة يلفّ بها مكنونةَ في أثناء لقاءاته إيّاها، وخصوصًا بعد أن بات قريبًا منها يقطن في المدرسة الظاهريَّة الملاصقة للقصر الشرقيّ الكبير؛ مكنونة الهاربة المتفلّتة من قبضة عشقه ورعايته لها نحو مصيرٍ أقوى منه ومنها داخل متنِ القصور ومجالس الأمراء والسلاطين، نعمتِها ونقمتِها في آن: نعمة الصوت التي تحلُّ نقمةً عليها، ونعمته ونقمته في عشقه عاجزًا عن انتزاعها من أنياب هذا الزمن المفترس.

تمتم هامسًا: مكنونة يا تجلّي بركات الله في فؤادي.

مكنونة يا ملاذي السرِّيَّ ونجوى أيّامي

ـ هل هذه صلاة جديدة تخشع بها في سريرك؟

انتفض بدر عن سريره مرتبكًا مذعورًا، إذ باغته صديقه طورة، فاضًا خلوتَه بصوته الساخر وضحكة صديقه الآخر مصطفى، فرمقهما بغضب، قائلًا بالتركية:

ـ ألا لعنة الله عليكما، ألا تستأذنان؟ ألا تطرقان الباب أيُّها الـ . . .

قطع طورة عليه موجةَ غضبه العارمة وهو يجلس إلى يمينه على حافَّة السرير، قائلًا بالتركيَّة أيضًا:

ـ اعذُرْنا يا صديقي. لقد جئنا كي نطمئنَّ عليك بعد أن طالت عزلتك هذه المرَّة.

وقبل أن يُجيب بدر الذي تنفَّس الصعداء، تساءل مصطفى بتهكُّم، وهو يجلس إلى يساره:

ـ ما بال عاشقنا كأنَّه تائه في ملكوت القبَّة. أهذا جزاء من يدلّك على طريق العودة من متاهة محبوبتك ورياحينها؟

ردَّ عليه بدر بغضب مكبوت:

ـ لا تفتَحْ معي الآن فضائل الابتعاد عن العشق والهوى وأوجاع القلب.

أجاب مصطفى وهو يلفّ بذراعه القويَّة كتفَ بدر، مداعبًا ببراءة:

ـ واللهِ ما قصدت شيئًا.

تدخَّل طورة بصوته العميق الهادئ:

ـ إنَّ غدًا يوم مشهود، يا بدر.

قطع عليه بدر حديثه متسائلًا بلهفة:

ـ ألم يُفْضِ إليك المعلِّم ما سيعُلمني به غدًا؟

ـ كلَّا، لم يلمّح بأدنى إشارة. أنت تعرفه أكثرَ منِّي، فهو لا يبوح لأحد بما يعزم عليه. لكن لا تكن لجوجًا عجولًا، فالغد على بعد ساعات من يومنا هذا. ولهذا جئناك لنحتفل معًا بخلاصك من المدرسة وانطلاقك في دروب الحياة بعيدًا عن هيامك بالكتب.

عقَّب مصطفى قائلًا بصوت جهوريّ ساخر لطالما أحبَّه بدر:

ـ هيامه في الكتب ومكنونة.

ثم قفز عن السرير متجنِّبًا التصارعَ مع بدر، وأردف متسائلًا بانشراح وتهكُّم:

ـ بالمناسبة، ألن تحتفل معنا محبوبتك بمناسبة تخرُّجك؟!

هدّده بدر بعبوس مصطنع، ثم قال:

ـ بل سأحتفل بك أنا وحدي يا مصطفى عندما يخترق صدرَك سيفٌ صدئ من سيوف المماليك.

تدخَّل طورة: ألن تكفَّ عن تهريجك الأحمق، يا مصطفى؟ لا تفسدْ علينا هذه الأمسيةَ، وهيّا قل لنا ما الذي أعددته للاحتفاء ببدر؟

أجاب مصطفى بمرح:

ـ ما يرغب فيه مولانا بدر الدين سينفَّذ في الحال.

ـ لا أريد شيئًا سوى أن تكفّ عن سخريتك.

ـ سامحك الله، يا صديقي. حسنًا، سنمضي إلى قاهرة أخرى لم تطأها أقدامكما من قبل.

عقَّب بدر متسائلًا:

ـ أرجو ألَّا تكون قاهرة متهتِّكة مخمورة؟

أجابه مصطفى متسائلًا بتهكُّم هذه المرَّة:

ـ وهل سأدعوك إلى حلقة ذِكْر؟

ثم ضحكوا ثلاثتهم بصخب.

* * *

طورة كمال.

تركيٌّ آخر من أتراب بدر الدين، ضئيلُ الجسم، دقيقُ الملامح، صمته يطغى على صوته العميق الهادئ المشرف على الوهن. تلميذٌ نجيب من تلاميذ المعلِّم أكمل الدين، تعرَّف إليه بدر منذ أن وطأت قدماه ثرى القاهرة، ليغدوَ في إثرها صديقَ عمره وأيَّامه، وتآلفا في انسجام وتخاطر مدهشين.

طورة قادمٌ من قونيا ناشدًا الحكمةَ والمعرفة، هاربًا من هول الحروب والدماء، مفضِّلًا الانزواءَ بين كتبه وفي مدرسته، محرِّمًا على نفسه العودةَ إلى مسقط رأسه، حيث شمال العالم وقونيا بسحرها وأبَّهتها.

تآلفا معًا، وغدا طورة الشاطئَ الذي يُلقي عليه بدر، بعدَ كلّ تبحُّر، مرساةَ أفراحه وأحزانه وأسراره وأحلامه، مُخْلصًا وفيًّا بصداقته، ساعيًا لردِّ الجميل لبدر الذي، بدوره، لم يكن ليدَّخر شيئًا من قِيَم الصداقة وتحف علمه إلَّا منحه إيّاها؛ طورة الذي سيصبح بعد قليل معلِّمًا في المدرسة الظاهريَّة بتزكية من بدر الدين وإيعازٍ من المعلِّم أكمل الدين.

كان طورة مُريدًا لبدر، وليس صديقًا مخلصًا له فقط. ولم يكن

بدر ليقنع بحجج طورة ودوافعه لجهة عدم العودة إلى قونيا ونكوصه الدائم وتردُّده في إبداء مواقفه وآرائه بكلِّ حزمٍ وصراحة في حلقات العلم، كما كان يفعل هو وبدر في إثر صداقةٍ اشتدَّت وأخوّة تعمَّدت بالثقة والوفاء. حاصر طورةَ ذات يوم مباغتًا هواجسه المقيتة ليُزيلها عنه:

ـ أعلم بأنَّك كنت معتنقًا اليهوديَّةَ، وأنَّ أهلك نبذوك وطردوك من بين ظهرانيهم بعد أن أسلمت.

ارتبك طورة بشدَّة مرتجفًا كعصفور يُحتضَر من شدَّة البرد، فأردف بدر قائلًا بودٍّ يخفِّف من رَوْع صديقه:

ـ وما أهمِّيَّة ذلك؟ هل تعتقد أنَّ هذا سيؤثِّر في صداقتنا، أو في تدرُّجك في مسالك العلم. طورة، عليك أن تنعتق من ماضيك وتتحرَّرَ منه كي لا يأسرك بالعجز والحيرة.

أجابه طورة بأسى:

ـ واللهِ انعتقت نفسي وما أعتقني الناس ولا أهلي. إنَّني أحترق بنيران نظراتهم، يا صديقي، وأشعر بأنَّني معلَّق في فضاء هويَّة ملتبِسة، فلا أنا يهوديٌّ ولا أنا مسلم.

ـ ومن قال هذا؟ ألا تؤمن بالله الذي أؤمن به أنا؟! ألا تعشق السماء التي أعشقها أنا؟! ألا تصلِّي الصلاة التي أصلِّيها أنا؟!

ـ بلى.

ـ دعك منهم إذًا، وانطلِقْ ببركة الله. إن كان ربًّا لليهود أو ربًّا للمسلمين، إنَّ الله، يا صديقي، يسكن السماء العليا لأنَّها واسعة رحبة، وفيها متَّسَع لجميع عباده.

صمت بدر للحظات متأمِّلًا وجهَ طورة، ثم أردف بحماسة:

ـ لقد رافقتُ معلّمي قبل عدَّة أشهر إلى الأقصر في زيارة لأحد أصدقائه من العلماء الكبار. وبعد الانتهاء من حلقة الذِّكْر التي عقدها الشيخ احتفاءً بمعلّمي، قمت بالتجوُّل وحيدًا في أنحاء المدينة، فإذا أنا أمام جامع عجيب البناء يُطلَق عليه اسمُ جامع الحجّاج. دلفت إليه متوضِّئًا للصلاة، فإذا هو جامعٌ قد بُنِيَ على أرض اختلط صخرها وترابها بمعابد ثلاث أمم، الفرعونيَّة والمسيحيَّة والإسلام. في أسفلها تجد معبدًا يعود إلى أيّام الفراعنة، وشُيِّدت على جزء منه كنيسةٌ، ويعلو البناءَ الفرعونيَّ جامعُ الحجَّاج. أفلا يدلّ هذا على كمال الله وسروره بعبادته من مختلف عباده في ركنٍ واحد؟!

هكذا كان يشدُّ من أزر صديقه ويُزيل عنه اضطرابه. كلامه يتنزَّل على صدره سكينةً وهدوءًا، فيسكن طورة من دون أدنى تردُّد أو تفكير.

أمَّا مصطفى نور الدين، صديقُه الآخر القادم من إزمير، فقد قدَّمه إليه طورة في إثر حلقة تلاوة وتفسير في الجامع الأزهر منذ ثلاثة أعوام.

مصطفى المارد، كما كان يطلق عليه بدر، ممشوقُ القامة بملامح وجه طفوليَّةٍ تناقض بنيةَ عضلاته المفتولة وطولَه الفارع، كما يناقض حضوره حلقات العلم في الأزهر لِمَا في هيئته ونفسه من أطباع الفرسان والمحاربين وأخلاقهم؛ إذ طالما أشار إليه بدر الدين بعد أن توطَّدت صداقتهما، بالعافية والمودَّة، بأنَّه سيكون صاحب دراية في شؤون الحرب والموت لا في شؤون الدين والدنيا. وهذا ما حدث بالفعل بعد أن فشل مصطفى في اللحاق بركب العلم والنبوغ، وإخفاقه الذريع في فصاحة اللسان العربيّ والحديث بلغة القرآن. لذا، كانت أحاديثه مع صديقيه في أغلبها بالتركيَّة، ليكتشف في نهاية مطاف الأزهر ومدارسه، أنَّ مكانه الأمثل هو إصطبلاتُ التدريب العسكريّ

في قلعة الجبل حيث يتدرَّب أمراء المماليك وجندُهم على أقسى الأسلحة وأشرسها وأعتى المناورات والخدع الحربيَّة.

ـ جئت أسعى إلى العلم وأقلامه، فإذا أنا ساعٍ في العسكر وسيوفه.

ـ خُلقتَ وخُلق معك سيفُك يا مصطفى، فلا تعاندْ قَدَرَك كي لا ينغرز السيف في صدرك.

بهذه الكلمات كان بدر الدين يحثُّ صديقه على المُضيِّ نحو قَدَره البعيدِ كلَّ البُعد عن دروب الحياة، والقريبِ كلَّ القرب من روائح الموت وصليل السيوف.

كانوا ثلاثة أصدقاء: عالِمًا، وصديقًا، ومحاربًا.

* * *

بعد ظهيرة اليوم التالي، قصد بدر الدين مجلس معلِّمه غداة ليلة لم تكن صاخبةً كما أراد لها مصطفى، بعد أن باءت نيَّاته بإبراز مفاتن الدنيا لبدر وطورة بالخسارة، وانصياعه للبقاء برفقتهما داخل أسوار المدرسة في إثر عاصفة شتويَّة ماطرة مستمعًا بتأفُّف وملل إلى محاوراتهما التي لم يفقه منها شيئًا.

مضى بدر الدين بتأهُّبٍ شابَهُ التوتُّر من شدَّة ما يجول في خاطره بشأن ما سيخبره به معلِّمه. إنَّه على يقين بأنَّ مربِّيه أكمل الدين سوف يمنُّ عليه بقطف ثمار ما أحرزه من رجاحة عقل وعلم ستزيده إصرارًا على نيل مكانة مرموقة تكفل له التأمُّل العميق في أسئلته الكبرى المتمحورة حول كينونة الدنيا ومصائرها وأقدارها التي يعيشها.

يشعر الآن بأنَّه كبر ونضج، فهو بعد لحظات معدودة لن يبقى تلميذًا، بل سيصبح حرًّا بعلمه، وسيِّدَ نفسه وأهوائه. ستفرح مكنونةُ،

عندما سيزفّ إليها خبر إنهائه مرحلةَ التلمذة والانهماك في مجلّداته ومراجعه وتأمُّلاته. ستفرح لأنَّه سيراها وسيلتقيها أكثر من أيِّ وقت مضى، فلن يشغله عنها شيءٌ بعد اليوم، هو الناشئ ما بين خجل وارتباك وخوف، داخل مزيج عجيب مفعَم بالنقاء والطهر، جنَّبه وحماه من الانصياع وراء رغبات لا تُكسبه شيئًا سوى وهن اللحظة الفاتنة، وربَّما تُخسره ما ينمّيه في داخله من طُهر ونور.

ما إن أوشك على طَرْق الباب حتى هتف معلّمه باسمه بانشراح وسرور، طالبًا منه الدخولَ، فدلف بدر مبهورًا من يقين معلِّمه بأنَّه هو مَن يقف وراء الباب:

ـ أسعد الله أوقاتك، يا معلّمي.

ـ وأوقاتك يا بدر. اجلسْ يا ولدي. اجلس أيُّها المعلّم.

خفق قلبه ساعيًا للتحكُّم في حضوره قُبالة معلِّمه.

ـ كم كنت أنتظر هذا اليوم يا ولدي؛ اليوم الذي أراك فيه مزدانًا بنعمة ما أحرزته هنا من علوم وحكمة. بارك الله فيك وبحسنى علمك وأدبك. أَبْشِرْ يا بدر، فإنَّني والله أراك في مصاف العلماء.

أثلج صدرَه المعلِّمُ الذي لطالما ذكَّره بأبيه الراحل وحضورِه الطيِّب وطلَّتِه المَهيبة. أكمل الدين يشدو، وبدر قلبه يرقص على أهازيج كلامه. هل حقًّا سيشرع في مرحلة جديدة من حياته؟

ـ بدر، يا ولدي، واللهِ ما نلتَ من حظوة لديَّ بحقِّ صحبتي مع أبيك، عليه الرحمة، وإنَّما نلتَها بحُسن علمك وبواطن نورك وإصرارك على المجاهدة في صعاب العلوم. وعليه، فإنَّني أزفّ إليك نبأ عملك الأوَّل ومكانتك البكر، أيُّها المعلّم في ميادين التدريس والإفهام. ستصبح معلِّم السلاطين والأمراء، وستدخل قصورهم فاتحًا عليهم بعلمك ونور كلامك.

تمالك المعلِّم أنفاسه، ثم زفَّ إلى بدر الخبرَ الأهمّ والمفاجأةَ التي أعدَّها له:

ـ ستصبح معلِّم الأمير فرج، نجل السلطان الظاهر برقوق.

اضطرب بدر ممَّا ألقاه عليه معلِّمه، فنالت من حضوره رجفةٌ خفيفة دعته إلى التساؤل بارتباك كأنَّه يحدِّث نفسه:

ـ ماذا؟ سأعلِّم الأمير فرج بن برقوق؟

ضحك المعلِّم بعد أن لمس نيل مفاجأته من بدر، ثم قال:

ـ نعم، يا ولدي. أَبْشِرْ، فقد حظيت. واللهِ إنَّك لمبارَك برضَى من الله. فتعليم أبناء السلاطين لا يناله فتًى في سنّك، بل المعلِّمون من أمثالي، ولكنَّك، بنبوغك المبكِّر وحُسن أخلاقك، ستنال هذا الشرف بعد أن أمرني السلطان بإيجاد معلِّم لنجله، ولم يتبادر إلى ذهني سواك، فماذا قلت؟

أشاح بدر بنظره نحو الأرض، ثم سأله متلعثمًا: وماذا سأعلِّم هذا الصغير؟

استعاد المعلِّم صرامةَ حضوره بعد أن شعر بعدم إدراك بدر أهمِّيَّةَ عمله الذي أعدَّه له، ثم قال بحزم:

ـ يا ولدي، ستعلِّمه ما تعلَّمته أنت صغيرًا حتى كبرت، فالعربيَّةَ وفصاحتَها، والقرآنَ وتجويدَه، والسُّنَّةَ وتاريخَها، وبعضَ ما تيسَّر لك من الحساب وما يناسب حداثة سنِّه.

تساءل بدر بامتعاض خفيّ، ولكنَّه لم يَخْفَ على معلِّمه:

ـ أهكذا؟ بعد كلّ ما تعلَّمته وسهري ومكابدتي، أنال تعليم أمير صغير ربَّما لا يتقن العربيَّة؟

قاطعه أكمل الدين بصرامة:

ـ ويحَك يا بدر، ما الذي كنت تريده إذًا؟ تعليم السلطان الكبير، أم ولاية أمر المسلمين؟

ثم خفَّف من حدَّة كلامه، قائلًا بمودَّة وخفوت:

ـ أنت في بداية درب طويل وشاقّ، لا عليك من صغائر أمره وعقباته. تعليمك الأميرَ الصغير ليس عيبًا، وخصوصًا عندما سيغدو بعد أبيه السلطانَ الآمر الناهي. هذه هي الدنيا التي نعيش فيها يا ولدي، نعلِّمهم صغارًا ليصبحوا أسيادنا كبارًا.

ثم زفر بحرارة وبانت ملامح الاقتناع والاكتفاء على مُحيّا بدر الذي لا يقوى على إزعاج معلِّمه وتخييب أمله، فهو راعيه ووليُّ أمره ومربِّيه، وفي مقام أبيه الذي لم يُدركه هناك في شمال الدنيا فأدركه هنا في جنوبها على هيئة أكمل الدين، فكيف نالته الكبرياءُ السامَّةُ في حضرة معلِّم اعتقد للوهلة الأولى أنَّه أفرحه بمفاجأته.

قال بدر بصوت خافت ممتنٍّ:

ـ واللهِ، ما رضيتُ ولن أرضى إلَّا بما تختاره لي، يا معلِّمي، وأنا رهن إشارتك. قل لي متى أَمضي إلى عملي الجديد؟

أجابه المعلِّم بمودَّة صافية:

ـ بل أنت رهن نفسك وسيِّدُ أمرك. كُنْ على يقين بأنَّ نورك هو من سيحميك ويكفل لك تقدُّمك في باحات القصور ومجالسها وأروقتها. غدًا، سأرافقك، إن شاء الله، إلى القلعة حيث أبَّهةُ السلطان وعظمةُ سلطنته، وحيث يقطن الأمير الصغير في قصر أبيه السلطان، وسأقدِّمك إلى الأتابك[1] الراعي لشؤون الأمير.

(1) الأتابك: منصب سلطانيّ يتولَّى تربية الأمراء ورعايتهم.

قاطعه بدر بلهفة:

ـ ألن تقدِّمني إلى السلطان؟

ضحك المعلِّم قائلًا:

ـ مهلًا، أيُّها المعلِّم، مهلًا. فللسلاطين دروبُهم التي لن تسير فيها أنت منذ الآن.

ـ وما هي دروبهم؟

صمت المعلِّم قليلًا، متأمِّلًا في وجه بدر المضيء، ثم قال بخفوت:

ـ دروب لئيمة يا ولدي، حماك الله منها ومن رجسها. ولهذا، فإنَّني أُوصيك، قبل الخوض في شؤون القصور، بأن تقيَ نفسك من شرّ نفسك، وأن تحفظَ سرَّك، وتَغضضَ بصرك، وتسدَّ أذنيك، وتقبضَ على كتابك، وتصونَ تلميذك، وتقطعَ دابر فضولك وكبريائك وتطلُّعاتك. فما أنت مُقْبِلٌ عليه ليس لك منه شيءٌ سوى جزيل العطاء وحُسن السيرة.

والآن، دعني أزوِّدك بما تعجُّ به حياة القصور وحياة سيِّد هذا الزمان السلطان الظاهر برقوق وولده فرج.

سأله بدر بجِدِّيَّة:

ـ وهل يستحقّ تعليمُ ابن السلطان كلَّ هذه المحاذير وهذا العناء؟

ـ وأكثر يا ولدي... أكثر.

* * *

الفصل الثالث:
إشارات سلطان الروم

تمدَّد الصباح بزهو مفعَم بروائح العطور السلطانيَّة المنبعثة من الأثاث الخشبيّ المزخرَف بخطوط وأشكال هندسيَّة خلَّابة، لتعمَّ هذه الأجواء اللطيفة جناحَ الأمير الصغير فرج داخلَ القصر الأبلق، المشيَّدِ وسط قلعة الجبل؛ قلعة المُلك والهيبة التي تكلِّل الجبلَ المُقطَّم المطلَّ من شموخه على شرق القاهرة. اخترقت أشعَّة الشمس نوافذَ البلَّور الملوَّن لتنعكس على حواشي الحرير الأصفر والأرائك الأنيقة بزخارفها وأقمشتها الزاهية المحيطة بمنضدة خشبيَّة صغيرة، زادها بهاءً ما أُلْقِي عليها من مخطوطات وكتبٍ وأدوات حبرٍ وأقلام، يُحيط بها رجل تتوِّج رأسَه عمامةٌ بيضاءُ موشَّاة بخطوط حريريَّة حمراءَ تماهت مع لباسه الوقور المكوَّن من سروالٍ كتّانيّ أسود فضفاض، وقميص حريريّ خمريّ اللون يكسوه قفطان مخمليّ أسود.

هذا هو المعلِّم الجديد بدر الدين، يجلس إلى جانبه على

المنضدة طفلٌ لم يتجاوز العاشرة من عمره السلطانيّ. بشرة بيضاء منسجمة مع شعره الأشقر القصير وعينيه الزرقاوين المحاطتين بوجهٍ مربَّع انغرس فيه أنفٌ صغير أفطس. هذا هو الأمير فرج ابنُ السلطان الظاهر برقوق.

مرَّت أسابيعُ وهو على هذه الوتيرة الصباحيَّة اليوميَّة، باستثناء يوم الجمعة، داخل القصر برفقة نجل السلطان من دون أدنى بارقة أمل قد توحي بإدراك الطفل بضعةَ أحرف من أبجديَّة اللغة العربيَّة التي قد تساعده على تلاوة سورة الفاتحة. يتأفَّف بدر الدين في سرِّه. يحتلّه النزق من مصيره المأساويّ القاضي بتعليم أمير لا ذنب له سوى أنَّه وُلِد لأبٍ شركسيٍّ وأمٍّ جارية إغريقيَّة، فكيف بحقِّ السماء سيُتقن العربيَّة هكذا؟ يسأل بدر الدين نفسه بغضب، وهو يسعى، بكلِّ أدب وصبر وتدلُّل، لرسم حرف الخاء للطفل ليلفظه ثم يضعه في كلمة، ثم في جملة: «خ... خالد... خالد أكل الخوخ». يردِّد الطفل كلامه خطأً، بملل وقرف:

ـ حالد أكل الكوح!

ثم يلفظ بدر الجملة مرَّة أخرى، متوخِّيًا قدر استطاعته الصبرَ والهدوء. فأيّ تأفُّفٍ منه يلحظه الأمير الصغير، سيُودي به حتمًا إلى إعاقةٍ دائمة بفعل ما سيناله من تنكيل وتعذيب، أو ربَّما الموت خنقًا، وإلقاء جثَّته خارج أسوار القلعة من دون أن يجرؤ أحد على دفنه.

هذا ما أشار إليه خفية أتابك الأمير عندما قدَّمه إليه معلِّمه أكمل الدين في اليوم الأوَّل داخل القصر. كان يُمْلي عليه التعليمات والأوامر والمحاذير، بكلِّ غطرسة وفوقيَّة، من دون أدنى ذرَّة احترام لعلمه ولمعلِّمه، ويتحمَّل بدر كلَّ تلك الإهانات كرامةً لمعلِّمه قائلًا للأتابك: سمعًا وطاعة يا سيِّدي. وها هو، كيف يجرؤ الآن، في حضرة

السلاطين، على الإشارة، بتوبيخٍ بسيط، إلى الأمير الذي يبدو أنَّه سيغدو أحمق سلطان مملوكيّ في الديار المصريَّة.

انهمك بدر في تلاوة بطيئة لآيات سورة الفاتحة. كان يرتِّل كلمات الآية ويخطُّها ببطء فوق الصفحة بخطٍّ أنيق كبير علَّ الأمير الصغير يصيب منها حرفًا يتقنه كما يتقن التركيَّة. يتساءل بدر في سرّه: «الست أنا أيضًا ابنَ رجل تركيّ وامرأةٍ، أقصد جارية، إغريقيَّة؟ ها أنا أتقن العربيَّة كأنَّني وُلدتُ في مكَّة المكرَّمة؟ فلماذا لا يُدرك هذا الأحمق الصغير أيَّ حرف منها؟» ثم ضحك في سرِّه من تساؤله هذا النابعِ من قهره وألمه نتيجة تعليم هذا الطفل:

ـ ليس المستكيم يا مولاي، بل المستقيم. قلها: قاف، قاف، المستقيم.

ـ المستكيم... الـ... مستكيم.

ـ كلَّا، بل المستقيم.

ـ المستكين.

ـ حسنًا، إلى كلمة أخرى أسهل لفظًا: صراط.

ـ سرات.

جُنَّ جنون بدر: ما هذا الذي يفعله هنا؟ بأيِّ حقٍّ يعلِّم هذا الطفل؟ لماذا هو؟ ما الذي فعله به أكمل الدين؟ أهكذا يكافئه؟ قطعت عليه تساؤلاتِه الغاضبةَ جلبةُ أصوات أنثويَّة قادمة من الممرّ المُفْضي إلى الجناح الفخم، فالتفت ناحية الباب المشرَّع، وإذ بموكبٍ حريريٍّ مكوَّن من خمس نساء، أربعٌ منهنّ يُحطن بالخامسة الأنيقة اللباس، الفاتنةِ المظهر، والتي دنت وحدها بأنفة من مجلس العلم مخلِّفةً وراءها جواريَها، فهي خوند شيرين، أمُّ الأمير الصغير. تدارك بدر

الأمر بسرعة ليقف وينحني احترامًا لأمٍّ فرج، قائلًا بخفوت:

ـ أسعد الله صباحك يا مولاتي.

ظلَّ منحنيًا في انتظار أن تأمره برفع رأسه. ألم يلقِّنه معلِّمه أعرافَ المجالس السلطانيَّة وآدابَها؟

لم تُجبه. صمتت برهة، ثم قالت بلهجة عربيَّة ركيكة وثقيلة على لسانها وصوتها الفاتن:

ـ ارفع رأسك.

فاستجاب ببطء ليقع نظره عليها، فرأى الفتنة ملفوفةً بحرير السلطان. حقًّا، هذا الصغير نسخة عنها. عيناها الزرقاوان وشعرها الأشقر المتوحِّش: أَرْدَته بقوامها الممشوق وأُبَّهةِ لباسها الحريريّ الأزرق وجواهرِها الزائدة عن حاجة جمالها، فطلَّتُها وحدها كوكبٌ دُرِّيٌّ. قالت له وهي تتفقَّد بأناملها الرقيقة الكتبَ والدفاتر على المنضدة من دون أن تعبأ بالتفاتة نحو ابنها:

ـ ما هي أكبار أمير سغير في تأليم؟ (ما هي أخبار الأمير الصغير في التعليم؟)

اكتشف بدر، من عربيَّتها الركيكة، أنَّ عجز الطفل عن إدراك اللغة سببُه لسان أمّه الكسول في حمل فصاحة لغة القرآن، فأجابها بإغريقيَّةٍ سليمة، مُخفيًا في سرِّه شتيمةً طالت ابنها وحماقته قبل أن تطالها:

ـ بخير يا مولاتي. الأمير سريع البديهة، وسيتعلَّم اللغة العربيَّة وعلومَها في فترةٍ قياسيَّة.

ارتبك حضور خوند شيرين من مباغتته لها بالإغريقيَّة، لغتها ولغة أهلها، فقالت باضطراب وذهول:

ـ أنت تتحدَّث الإغريقيَّة إذًا. ما اسمك؟

- بدر الدين، يا مولاتي.

- ولمن أنت؟

حدَّق فيها بدر الدين حائرًا في أمر إجابته، ثم تساءل بخفره المعتاد:

- ماذا تقصد مولاتي؟

أجابته بتأفُّف ونزق:

- أقصد أنت مملوكٌ لمن؟ مَن هو سيِّدك؟

صمت برهة، فلم يعهد الردّ بفظاظة على السلاطين وحريمهم، بعد أن تذكَّر أنَّه يعيش في القاهرة المملوكيَّة التي تعجّ بأسواق النخاسة، ثم قال بمزيدٍ من ادِّعاء التذلُّل:

- أنا لستُ عبدًا لأحد. أنا حرّ نفسي.

شعرت بهبوطٍ مفاجئ في علوِّ هيبتها أمامه وأمام إجابته، فقالت بفظاظة:

- أنت، وإن كنت حرًّا، إلَّا أنَّك هنا في القصر عبد لي ولولدي ولمولاك السلطان. هل فهمت؟

- فهمت يا مولاتي. بل أنا عبدكم المخلص والمطيع.

أثار غرورَها وغطرستَها بإجابته، فدنت منه أكثر لتمسّه رجفة قويَّة من شدَّة فتنتها ورائحة عطرها المثيرة. أثاره دنوُّها المبالغ فيه، ثم همست إليه بإغراء:

- ستكون عبدي أنا يا معلِّمَ ولدي الوسيم.

ثم ارتدَّت عنه منسحبةً بعاصفة فتنتها وموكب جواريها. تنفَّس بدر الصعداء وهو يتأمَّل وجه الأمير الصغير الذي لم يحظَ بالتفاتة من أمِّه

إليه؛ أمّه التي لمح بدر في عينيها وميضًا ما؛ وميضَ الشهوة.

* * *

أغاظها وهو يتوسَّد خصرَها، وهي الهائمة بأصابعها في نعومة شعره، مفترشَين رابيةً من روابي المقطّم صباحَ يوم جمعة أبى إلَّا أن يحتفي بهما بإشراقة شمسٍ دافئةٍ. أغاظها إذ قال:

ـ يا لهولها! يا لفتنتها! إنَّني أحمُدُ الله على ثباتي وصبري أمامها.

سألته مدَّعيةً الهدوءَ وعدمَ اكتراثها لقوله:

ـ ومَن تكون صاحبة هذه الفتنة يا مجنون فؤادي؟

ـ خوند شيرين، أمّ الأمير الصغير.

ارتجفت مكنونةُ بشدَّة، وقبضت على شعره بقوَّة بدَّدت هناءه بخصرها:

ـ ما الذي تهذي به أيُّها المجنون. هل حقًّا ما تقول؟

تأوَّه بدر وهو يقاوم كفَّيها ليُطلق سراح شعره من قبضتها، ثم اعتدل في جلسته إلى جانبها، قائلًا:

ـ أجل، إنَّها أمّه. التقيتها البارحة في جناحه. فما الذي أثاركِ هكذا؟

ـ وماذا قلت لها؟

أفضى إليها بدر بتفاصيل اللقاء السريع، كما يعترف الطفل الصغير لأمّه بذنوبه، فعقَّبت مكنونةُ قائلةً بحرص تكتنفه جِدِّيَّةٌ صارمة:

ـ ويلك يا بدر، فقد هلكت.

ـ وكيف هذا؟

ـ أنت حديث عهد في شؤون القصور وأجوائها، ولا تعرف متاهاتِها وغواياتِها الوحشيَّةَ.

قاطعها قائلًا بغيظ:

ـ وهل ترين أمامك طفلًا صغيرًا تائهًا؟! لقد أفادني معلّمي بكلِّ تفاصيل القصور، فلا تقلقي.

ـ كلَّا، يا بدر، فالقولُ شيء والفعلُ شيء آخر. إنَّ هذه الأفعى لن تتركك في حال سبيلك، وخصوصًا أنَّك في قصرها ومعلِّمُ ابنها وسيمٌ... وسيم، يا إلٰهي، فارحمني.

ـ مكنونةُ، اهدئي، يا محبوبتي، ولا تجزعي.

ـ بل أجزع وأجنّ لأنَّك لا تعرف شهواتِ القصور ودهاليزَها.

سألها بحدَّة:

ـ وما أدراكِ أنتِ بشهوات القصور؟ هل دخلتِ دهاليزها؟

جرحها بسؤاله فأجابته بانكسار:

ـ سامحك الله، يا بدر.

ثم وقفت وخطت بضع خطوات مُديرة ظهرها لهُ، تتأمَّل القاهرة الممتدَّة أسفلَ المقطَّم. ضمّ بدر ركبتيه واتَّكأ برأسه عليهما مُطْرِقًا، ثم قال معتذرًا، بصوتٍ خافتٍ:

ـ لم أقصد أن أؤذي رهافتك يا مكنونة. ما قصدته أنَّني لستُ جاهلًا، وفي إمكاني تدبُّرُ أموري.

قاطعته بحدَّة، من دون أن تلتفت صوبه:

ـ أعِذْني الآن إلى القصر، فبعد قليل ستتجهَّز القاهرة لصلاة الجمعة، وستصبح الطرق مكتظَّة.

وقف منتصبًا، ثم اتَّجه نحوها ومالَ عليها ولفَّها بذراعه، قائلًا بوداعة:

ـ لا، لن أُعيدك حتى تسامحيني على حماقتي.

كم كانت مكنونة تحتلّه بسطوتها. في أثناء فرحها أو حزنها، لا يقوى على رؤيتها هكذا هائجةً منزعجة منه، كما لم يقوَ أيضًا على فهم سبب امتعاضها حين زفَّ إليها خبر تعليمه نجلَ السلطان. هل كان بسبب خوفها عليه، كما تقول الآن؟

همس في أذنها قائلًا بدفء:

ـ أحبّك أيَّتها المجنونة. أحبّك، فأنا عبدك وعبدُ حُبّك.

سَرَّها ما سمعته، بل أهاجها، فلم تتمالك أمرها مندفعة كلبؤة ملتهمةً شفتيه. هزَّتهُ بمباغتتها. بادلها الدفء نفسه، والشغفَ والجوع ذاتيهما للحظات، ثم ارتدَّ عن قبلتها الهائجة منسحبًا بهدوء، وقال لها بحماسةٍ ونشوة عارمة:

ـ أنا كلّ هذا الوجود يا مكنونة.

نظرت إليه ساعيةً لكظم هيجانها وغيظها من ارتداده عنها، ثم سألته بنزق:

ـ وكيف هذا؟

ـ لأنَّني أنا أنتِ، وهم نحن. فأنا أصرخ لألمك، وأبكي لحزنك، وأرقص لفرحك، وأحمل قلوب الناس في قلبي. لهذا، لا تخافي يا مكنونة. لا تخافي عليَّ، فأنا لا أموت. أنا كلُّ هذا الوجود.

ثم سحبها من يدها مهرولًا نحو الأمام حيث تستحمّ القاهرة أسفلهما بأشعَّة الشمس. اندفع بدر كأنَّه تحوَّل فجأة إلى امرئ منتشٍ ومخبول:

ـ انظري يا مكنونة؛ انظري إلى القاهرة كم فيها من الأمم

والأجناس والألوان والأديان؛ انظري: هل ترينهم؟ يسكنها مسلمون ويهود ونصارى ومجوس وهنود وفُرس وأقباط ويعقوبيُّون. هل ترينهم يا مكنونة؟

نظرت إليه بذهول قائلة:

ـ كلَّا يا بدر، لا أراهم، بل أرى القاهرة.

ـ وهكذا أنا يا مكنونة. لا ترين سواي فيّ، ولكنَّني أكثرُ من مجرَّد أناي.

ـ بدر، أرجوك، لا تبدأ معي الآن بما لا أعيه وأدركه. وهيَّا أعِذْني قبل أن تنقضّ كلّ قاهرتك علينا بالرماح والسيوف.

* * *

بعد شهر من تولِّيه مسؤوليَّة التعليم السقيمةَ للأمير الصغير، قرَّر بدر الدين النأي بنفسه عن السكن في حجرةٍ صغيرة داخل المدرسة الظاهريَّة، واستئجار بيت صغير في جنوبيّ القاهرة بعد ازدياد دخله الشهريّ بفضل عمله الجديد.

وعلى الرَّغم من ابتعاده عن مدرسته، فإنَّه بقي على قربه من صديقيه، بحيث كان لا يُفضي بهموم عمله الجديد إلَّا إلى صديقه طورة، في الوقت الذي كان يدَّعي فيه أمام معلِّمه الرضا والسرورَ بمهنة التعليم داخل القلعة. كان لا يجرؤ على الإفصاح عن خيبة أمله أمام أكمل الدين الذي اعتقد لوهلة أنَّه أسدى إليه معروفًا جزيلًا في إقحامه داخل قصور المُلك، بيد أنَّ بدرًا لم يكن ليأبه بعطايا أتابك الأمير أو أمّ الأمير وهداياهما. لم ينجذب لحظةً إلى أبَّهة القصور وفخامتها، فهو ابن نعمة قبل أن يحطّ في القاهرة؛ وليدُ قصرٍ ونعيم وجاه غابرين في أيَّام أبيه. ولهذا، كان يتمتَّع بمناعةٍ تعذيبها، نتيجة قناعة تقيه إغواءات القصور وثرواتها.

كان لا يقضُّ مضجعَه، ويؤذي رهافةَ قلبه الطامح إلى التشوُّف والمزيد من أنوار العلوم، إلَّا عجزُه وحيرته في تجاوز هذه المرحلة المحبِطة والمخيِّبة لآماله. عاجز هو الآن عن إدراك الواقع من حوله. لا يعلم ما هي أولويَّاته. ملتبِس بين نداءات قلبه وحبّه لمكنونة، وبين عجزه عن إيجاد مستقَرٍّ يجمعهما معًا في حياةٍ عاديَّة وشرعيَّة. حائر ما بين ذلك الإحساس الداخليّ المشبَع بالنور والإشارات، وتلك الأصواتِ الغريبة التي تخترق كيانه ووجدانه من دون أن يجد لها تفسيرًا أو ترجمة:

ـ هل هذه هي النهاية يا طورة؟ أن تكون غايتي في هذه الحياة: التعليم؛ تعليم أمير غبيّ؟!

فيُجيبه طورة بصوته المليء بالسكينة:

ـ أنت من تقرِّر غايتك يا صديقي، والغاية لا تتحقَّق إلَّا بغذاء الصبر والمجاهَدة.

ـ أيُّ صبر وأيُّ مجاهدة، يا طورة؟! أخشى أن تأتي لحظة أفقد فيها أعصابي مع هذا الأمير الأحمق.

ـ إيَّاك يا بدر. في الوقت الذي تشعر فيه بأنَّ هذه الوظيفة ستنال من عزيمتك ووجودك، تخلَّ عنها.

ـ سأفعل، ولكن ليس الآن. فأنا لا أريد أن أكون جاحدًا بحقِّ المعلِّم. ما هكذا أردّ له الجميل.

ـ إنَّ أمرك محيِّر يا بدر. تارة ترضى بنصيبك ووظيفة يحسدك عليها العديد من المعلِّمين، وتارةً تنقم على نفسك وعلى اللحظة التي وافقت فيها على هذا الأمر.

ـ هكذا أنا يا صديقي. منذ أن مسَّني الحرفُ بنور العلم

والبصيرة، وأنا لا أستكين. أعيشُ بإحساس يدفعني بالتباساتي إلى سموٍّ ما، لا أعلمه ناقمًا على السكون والاستسلام.

ـ إلامَ تسمو يا صديقي؟

ـ إلى الحياة؛ إلى النور والأمل؛ إلى الحبِّ والعدل.

ـ هذا ما ستجده في متون كتبك وحواشيها فقط.

ـ وُضعت الكتب لفهم الحياة وإدراك مصائرنا فيها، ولم توضع في سبيل تعليم طفلٍ لا يملك من أمره شيئًا سوى حظّ أبيه وسطوته. فأين العدل في كلِّ هذا؟ قل لي بالله عليك؟!

ـ لِمَ نقمتُك مبالَغٌ فيها هذا المساء؟

ـ النقمة؟! هذا تعبير لا يطابق ما أراه كلَّ يوم حين ألج أجواء النعيم والسلطان قادمًا من جهنَّم القاهرة وأزقَّتها وبؤسها وفقرها. كأنَّني عندما أدلف بوَّابات القصر أخترق الزمن لأحطَّ في جنَّةٍ بعيدة كلَّ البُعد عن آلام الناس. بضع أقدام فقط تفصل القصر عن أفقر أحياء القاهرة؛ القصر الذي أدخله لأعلِّم أميرًا لا يعرف العربيَّة. وتقول لي نقمة؟!

ـ بالله عليك، يا بدر، لا تُفْسِدْ علينا أجواء هذا المساء الجميل بكلامك هذا الذي ينغِّص القلب ويُشعرنا كم نحن عاجزان.

صمت طورة لبرهة، ثم استدرك قائلًا بحماسة متذكِّرًا أمرًا مهمًّا:

ـ ألم تَرِدْك آخرُ الأنباء التي حملتها القوافلُ القادمة من بلادنا البعيدة؟

ـ كلَّا، أَعلمني.

ـ يقولون إنَّ السلطان بايزيد بن مراد العثمانيّ انتصر على تحالف صليبيّ ضخم في غرب البلاد، ثم قام بمحاصرة القسطنطينيَّة. هل تصدِّق هذا الأمر؟ إنَّه يحاصر أعظم عاصمة في الدنيا منذ عدَّة أشهر!

تساءل بدر بتعجُّب: حاصر القسطنطينيَّة؟!

* * *

في قلعة الجبل، كانت غُرَّة شهر يناير من عام 1397 م تلفّ عصيرة قصور القلعة وحصونَها وميادينَها بطقسٍ شتائيّ بارد.

كانت ثمَّة أجواء غريبة وحركة عجيبة تسود أنحاء القلعة، وخصوصًا مجلسَ السلطان وبلاطَه في القصر الأبلق الذي يستقبل فيه الرُّسُلَ والوفود الساعية إليه من مختلف أصقاع الدنيا.

كان بدر الدين قد انتهى لتوّه من درسٍ آخر مُقيتٍ برفقة الأمير، وشرع في الخروج منسحبًا بإعياء من القصر نحو القاهرة، إلى أن لفتته الجلبةُ وحراك الحشود الصغيرة المكوَّنة من أمراء الحرس السلطانيّ وأمراء السلاح، والحاشية المكتظَّة في القاعة الفسيحة داخل بلاط السلطان. وفي سابقةٍ له، انجذب بدر نحو القاعة ملبِّيًا نداءَ فضوله على الرَّغم من أنَّه كان ينفِّذ حرفيًّا وصايا معلِّمه في كلِّ مرَّة يأتي فيها إلى القلعة، والقاضيةَ بالمغادرة فورًا بُعيد الانتهاء من الدرس من دون أن يلتفت إلى أيِّ أحد أو ينشغل بأيِّ أمر. ولكنَّ الحراك الغريب جذبه متجاهلًا وصايا معلِّمه.

بهيئته وملابسه الأنيقة تماهى بدر بالحشد السلطانيّ حاشرًا جسدَه فيه، مخترقًا صفوفه بعد أن تناهت إلى مسمعيه همهماتٌ آتية من ناحية عرش السلطان برقوق المتربِّع بشموخ على كرسيّ مُلكه، يجلس إلى جانبه بشموخٍ أقلَّ هيبةً خليفةُ الإسلام والمسلمين المتوكِّل العبَّاسي الذي لم يكن سوى دمية برقوق بعباءةٍ دينيَّة يتبارك بها ويستمدّ منها الشرعيَّةَ السلطانيَّة، بعد أن اندثرت هيبة العبّاسيين وسلطانهم بهجوم المغول الرهيب على دار الحكمة والمُلك في بغداد، التي دمَّرها

المغول كما دمَّروا تاريخ العبَّاسيين الذين لم يجدوا لهم مأوًى سوى الديار المصريَّة ليستقرّ فيها خلفاء بالاسم فقط للإسلام، بهيبةٍ مستعارة من جاه المماليك وسلطانهم، كما كان يقول بدر، متهكِّمًا بألم، لصديقه طورة في أمسيات حواراتهما معًا.

كان بلاط العرش بفخامته وعظمته آيةً حيَّة تدلّ على شدَّة المماليك وسطوتهم، بقاعته الفسيحة التي تصطفّ على جانبيها مجموعةٌ من فرسان الحرس السلطانيّ بكلِّ عتادهم العسكريّ المَهيب، ومن ورائهم تقف الحشود الأميريَّة، وذوو المراتب والمناصب العُليا في السلطنة، وبينهم كان بدر الدين يتطلَّع بشوق وفضول إلى منتصف القاعة حيث موكبُ الجند وأمراء يعرفهم هو بالتحديد من خلال ملابسهم وراياتهم، إذ إنَّهم فرسان من الجيش العثمانيّ الأناضوليّ برايتهم الحمراء التي يتوسَّطها رسم الهلال وتحته رسمٌ لسيف ذي شعبتين. وكان الموكب يُحيط بمجموعة من أشخاص ذوي هيئة رثَّة وبالية بائسة، مقيَّدين بأعناقهم وأيديهم وأرجلهم بسلاسل حديديَّة طويلة، يتقدَّمهم رَجلٌ بدا من هيئته الصارمة أنَّه رسول السلطان بايزيد. وما إن تقدَّم من عتبة العرش السلطانيّ حتى سجد وقبَّل الأرض بين أقدام برقوق والمتوكِّل، ثم وقف بعد أن أذن له برقوق قائلًا بصوته المَهيب بالتركيَّة:

ـ قف أيُّها الرسول، وألقِ علينا رسالة السلطان.

أخرج الرسول من جعبته لفافة مغلَّفة بعناية برقعةٍ جلديَّة، ثم فضَّها، قائلًا بصوتٍ مسموع وواضح في أجواء الصمت والترقُّب:

«السلام على خليفة الإسلام والمسلمين وعلى السلطان الأعظم الظاهر أبي سعيد برقوق.

تتطاير متمتمةً بجزع، صارخةً بأمانيها الأخيرة قبل اندثارها. يأخذ بدر أنفاسه، يشهق وهو في معمعان المعركة. يحتلّه ذلك الشعورُ من جديد داخل القصر الأبلق. يخفق قلبه بقوَّة. يسطع النور في الذاكرة، ويشعُّ في سماء الحرب. يهتف، ولكن هذه المرَّة هتف بدر متمتمًا بتلك اللغة الغريبة التي لم يدركها بعدُ، ثم يعود مرَّة أخرى إلى أجواء القصر وموكب بايزيد المنتصر.

أصابته الخشية من الجنون. في قلب البلاط يسعى لتمالك أمره، واستردادِ أنفاسه، وإزالةِ رجفته قبل أن يلحظ اضطرابَه أحدٌ، ثم انسحب متخبِّطًا. خرج مهرولًا خائفًا مضطربًا بإحساسه النورانيّ الذي داهمه في لحظات العزّ والانتصار ورُسل السلاطين. فرَّ من القلعة بعد أن لمح وجه برقوق المتجهِّمَ للمرَّة الأولى منذ دخوله القصرَ، ولمح من بعيد وميضَ الانتصار في عيني بايزيد، وفرَّ من نفسه أيضًا وعدا. عدا بسرعة إلى أن بلغ بيته لاهثًا على وشك الإغماء، ثم ألقى جسده فوق السرير ليلفّه نور ذلك الوميض في نومٍ عميق رأى فيه ما رآه من وجوه خائفة ملتاعة.

* * *

كان للأنباء القادمة من بلاد العثمانيِّين أصداؤها المؤثِّرةُ في أسواق القاهرة وميادينها، وخصوصًا بعد أن انتشرت بين العامَّة أخبارُ موكب بايزيد وأسراه ورسالته؛ إذ كان لانتصاره، الذي أسبغه براية الإسلام، وقعٌ وتأثيرٌ قويٌّ في قلوب الأتراك المقيمين بالديار المصريَّة، قبل أيّ جماعة أخرى، لتنشأ في إثر هذه الأنباء التي غذَّتها قصصٌ خياليَّة عن انتصارات بايزيد وحصاره للقسطنطينيَّة، توجُّهاتٌ تقضي بالرحيل نحو الشمال للالتحاق بالجهاد ومساندةِ جيوش بايزيد في فتح بلاد الكفر، كما كانوا يقولون، الأمر الذي أدَّى إلى موجة هجرة عارمة

من العلماء والفقهاء والشباب والحرفيِّين المؤمنين بقدرتهم على دعم الإسلام ونصرته.

في هذه الأجواء، وعقب شهرين من رحيل قافلة بايزيد مخلِّفةً وراءها أمانيَ الناس ورغباتِهم في الرحيل، كانت لقاءات بدر الدين بصديقيه طورة ومصطفى مشبعةً بتأثيرات النصر العثمانيّ، مثلهم مثل بقيَّة الناس في الديار المصريَّة. وكان هاجس بدر الخفيُّ هو الخشية من تسلُّل نشوة الانتصار إلى صديقيه.

كان على يقينٍ تامّ بأنَّ طورة لن يرحل بسبب ما سيواجهه هناك من عقبات مع أهله الأقربين وأصله اليهوديّ، ولأنَّه، كما يعتقد بدر، لا يمكنه أن يتَّخذ قرارًا حاسمًا، كالرحيل، من دون أن يستشيره ويُعلمه به. أمَّا مصطفى، فكان بدر مؤمنًا بأنَّ صديقه المحارب قد خُلق من أجل الحرب التي ستفتنه بأجوائها حتمًا.

وذاتَ مساء صاخب بهذه النقاشات الساخنة، سأل طورة سؤالًا يسعى من ورائه لسبر أغوار بدر:

ـ ألم تفكِّر في الرحيل بعد ما شهدته في القلعة، فتلك بلادنا في النهاية؟

أجابه بدر بضِيق:

ـ أرحل لأحارب بسيف مَن؟

تدخَّل مصطفى مجيبًا بحماسة:

ـ بسيف السلطان وراية الإسلام.

ـ عن أيِّ سلطانٍ تتحدَّث؟! أَأُحارب بسيفه، وأُقتل في سبيله، كي يهنأ هو بالنعيم، مدَّعيًا أنَّه انتصر للإسلام والمسلمين؟

عقَّب مصطفى بحدَّة:

ـ واللهِ، لن يقتلك سوى لسانك الحادّ هذا. بأيِّ عقل تفكِّر هكذا، في زمننا هذا الذي عهدنا فيه الأمرَ كأمر العثمانيين، والنهيَ كنهي المماليك.

أصغى طورة بهدوئه المعتاد إلى حوارهما الثنائيّ الحادّ من دون أن يعقِّب، ثم قال بدر بحزم:

ـ إذا لم تكن الحرب حربَك يا مصطفى، ولم تشهد فيها دماءَكَ صارخةً باسمك وهي تُراق في سبيلك، فهي لا تستحقّ أن تُخاض.

ـ ولكنَّنا نخوض الحروب في سبيل الحقِّ.

ـ وماذا عن سبيل الغنائم والكنوز والقصور والنعيم؟

ـ إنَّك تكفر يا بدر. ما هكذا تُقاس الأمور. ماذا دهاك؟

ـ لا شيء، يا صديقي، ولكنَّني شهدت ما لم تشهده أنت، وحاربت بسيف لم تحارب به أنت.

قاطعه مصطفى بسخرية:

ـ أنت، يا صاحب الكُتب، كنتَ محاربًا؟

تجنَّب بدر سخرية صديقه قائلًا بهدوءٍ وحزم:

ـ بلى، لقد حاربت وشهدتُ كبرى المعارك.

وتنهَّد بحرارة، ثم أردف: إنَّهم يبنون عظمتهم بجماجمنا، ويجبلون قصورهم بدمائنا.

رانَ صمتٌ ثقيل في مجلس الأصدقاء الثلاثة داخل بيت بدر الدين، في إثر حوار عبثيّ، في نظر مصطفى الذي تنحنح بعد لحظات ليطرد مرارةً أصابت حلقه، ثم قال بجدِّيَّةٍ غريبة عن أحاديثه وكلامه:

ـ حسنًا، لقد التقيتكما هذا المساء لأُعلمكما بنيَّتي: لقد عقدت

العزم على الرحيل. غدًا سألتحق بقافلة مسافرة إلى بلاد الشام، ومن هناك سأعود إلى بلدي.

اضطرب طورة ممَّا ألقاه عليهما صديقُه. أمَّا بدر الدين، فقد رسم ابتسامة على وجهه لها مغزاها القاضي بيقينه المسبق بعزم صديقه.

تساءل طورة بانفعال:

ـ ما الذي تقوله أيُّها الأحمق؟ أهكذا تغرّك الأنباء البعيدة عن واقعنا ومقامنا هذين؟

أجابه مصطفى وهو يتأمَّل محدِّقًا في وجه بدر:

ـ كفاني يا صديقي غربة البعد عن بلادي، فما جئت من أجله من علم لم أجده، وما جاء من هناك من حروبٍ وانتصارات وجدني.

ثم قام وودَّع صديقيه على عَجَل وفتور لمسه في عناقه لبدر الدين، لينفضَّ مجلس الأصدقاء من دون أدنى تعقيب من أيٍّ منهم.

* * *

لماذا لا أرحل أنا أيضًا؟ ما الذي أفعله هنا؟ ما الهدف من بقائي وتحمُّلي المذلَّةَ والانكسارَ أمام نجل السلطان؟ أليس مصطفى على حقّ؟ لماذا لا أعود إلى بلدي وأسيرُ في درب أبي؟ ألا يكفيني ما أصبته هنا من علم وقلب مكنونة؟ لماذا لا أقنعها بالرحيل معي؟

هكذا تقتنصه الأسئلة الحادَّة من نومه لتصيبه بالأرق في ليله الطويل هذا؟ يتململ بدر في خضمّ خواطره والتباساته وأمانيه ونقاشه مع صديقه. بدر، الذي شهد رُسُلَ بايزيد في القلعة، وأصابه ما أصابه من ذكرياتٍ ونور عندما رأى عظمة العثمانيِّين وصعودهم نحو قمَّة التاريخ، فلماذا لا يلين وينصاع لنداء الرحيل؟ في إمكانه أن يُقنع مكنونةَ بالتخلِّي عن كلِّ شيء، كما سيفعل هو. سيقنعها، نعم.

سيحملها على الهرب معه، كما سيرافقه صديقه طورة. سيرحلون معًا. سيحطُّون في أدرنة. وهناك، بذكرى أبيه وتمتُّعه بعلمه في ظلّ احترام بايزيد للعلماء، كما يقولون، سينال حظوة كأبيه، وسيتدرَّج في مسالك الجاه والسلطان، وسترضى مكنونة أيضًا. سيتزوَّجها هناك، ويُرزق منها عزوتَه التي حُرِمَها. سيبتعد عن برقوق وقصره وولده الأحمق، وجاريته الإغريقيَّة المختلَّة، وسيلتقي هناك صديقه مصطفى، الذي سيغدو أمير حربٍ مُهابًا ومنتصرًا. مصطفى المسكين، يا بدر، ذو القلب الطيِّب، والذي لم يشهد ما شهدته وتشهده أنت؛ مصطفى المفتون بالسيف وبلاغته وبطش حربه؛ مصطفى الذي لا يعرف موازين السلطان وغاياته، ولا يعرف أنَّ برقوق يمقت بايزيد ويخشاه، إذ لم يلمح مصطفى وجه سلطان المماليك المتجهِّمَ حين وافق مرغَمًا على منح التفويض الشرعيّ لبايزيد بسلطنته، حاملًا الخليفةَ العبَّاسيَّ على مباركة ما نشده سلطان الروم. أتدري، يا مصطفى، لماذا فعل برقوق هذا الأمر مضطرًّا؟

كي ينصره بايزيد في حربٍ مفترَضة ضدّ تيمورلنك وبطشه وبأسه. تيمورلنك، يا مصطفى، وما أدراك مَن تيمورلنك الذي سفك شرقًا بأكمله، ودمَّر مدنه وإماراته وتاريخه. هل تصدِّق، يا مصطفى، أنَّ السلاطين الثلاثة يسفكون دم بعضهم البعض، باسم الإسلام، ويفتحون البلدان ومؤخّرات الأمم باسم غاياتهم الخفيَّة؟ تيمورلنك الذي فتح شرق العالم ولم يشبع، وبايزيد الذي فتح غرب العالم ولم يقنع، وبرقوق الذي امتلك جنوب العالم ولم يفزع!

كلُّ الدنيا صراع وحروب ودماء، يا مصطفى، فأيُّ قَدَرٍ ستحظى به في خضمِّ السلاطين؟

يضطرب بدر في ليله، ويحسّ بأنَّه على وشك الهذيان. يحترق

بحواره مع نفسه. يهمهم، يشهق، كما لو أنَّ مسًّا شيطانيًا أصاب صميم قلبه. فلماذا لا يرحل؟

بل لماذا شنَّ على صديقه مصطفى هجومًا مسيئًا إلى عزمه على الرحيل؟ هل كلّ هذه النقمة الخفيَّة سببُها مكنونةُ عندما مسّ حظوتها في قلب بدر بأقاويل عنها؟

في ذلك المساء انفرد ببدر في بيته قبل أن يحلّ عليهما طورة، كي يُفْضي إليه ما سمعه على لسان بعض جُند الأمراء في إصطبلات القلعة العسكريَّة عن مكنونة وصوتها وحظوتها وتهتُّكها في مجالس الأمراء. قال له مصطفى بصدقٍ ومواساة:

ـ لا تتعلَّق بها أكثر يا صديقي. تخلَّ عنها، فهي لا تليق...

وقاطعه بدر صارخًا بغضب:

ـ اصمتْ. ما الذي تهذي به يا مصطفى؟

ـ واللهِ لا أقول إلّا ما سمعت. يقولون إنَّها تستغلّ حُسن صوتها لتنال حظوة السلطان وهداياه ونِعَمه.

ـ مصطفى، إنَّك تقتلني بقولك هذا.

ـ أنا صديقك يا بدر، وأخشى عليك من فتنتها. هل تعلم: هي مملوكة مَن؟ إنَّها جارية أقباي طرنطاي، أميرِ الحرس السلطانيّ. هل تعلم ما الذي يعنيه هذا؟ إنَّها مُلك أمير يحوز أعلى المراتب السلطانيَّة. فكيف ستنالها، وهي تُطرب أميرها الذي...

أقلع مصطفى عن الحديث فجأة مُطْرِقًا في أرض الحجرة، فأمره بدر بغيظٍ وصوت مختنق:

ـ قُلْ. أَكملْ ترَّهاتك.

ـ أميرها الذي لا يدخل أحد سواه جناحَ السلطان الخاصَّ، حيث

منامُه وقعوده؛ أميرها الذي يُدخلها إلى السلطان كي تغنِّي له في فراشه و...

قاطعه بدر باهتياج وأسًى:

ـ كفى، أرجوك يا مصطفى، فقد أدميت قلبي. أما شككتَ لحظة في أنَّ هذه أقاويلُ وأكاذيب وترَّهات؟

أجابه مصطفى بغضب:

ـ وهل تحسبها سليلة رسول الله. بحقِّ الله، يا بدر، هي مجرَّد جارية. والجارية هذا هو مرتعها ومآلها.

ـ بل هي مغلوب على أمرها، يا مصطفى، وأنا من سينتشلها من هذا الجحيم.

يتقلَّب بدر فوق حِمَم ليله الجحيميّ وهواجسه الحادَّة. هل حقًّا سيفقد مكنونةَ؟ هل ستتخلَّى عنه منقادةً إلى شهوات السلطان والحظوةِ السلطانيَّة؟ يخشى من فتنةٍ تُذوي عمرَ محبوبته الزهريَّ. يخشى عليها من طربها وطموحها ومصيرها المسلوب منها.

يلمح فجأة فتك سلاطين المماليك ببعضهم البعض. يرى رؤوسًا معلَّقة على باب زويلة في القاهرة. يرى أجسادًا لأمراء مسمَّرين على عوارض خشبيَّة، وموثَّقين على متون الدواب، يُجاب ويُشهَّر بهم في أسواق القاهرة ودروبها، قبل أن تُحَزَّ أعناقُهم. يرى ظلم المماليك وقهرهم للقاهرة وأهلها. يشعر بمؤامرات القصور وشهواتها وتأوُّهاتها الشيطانيَّة، ثم يرى وجه مكنونةَ، ويشهق مغميًّا عليه.

* * *

شكَّل رحيل مصطفى فراغًا لا بأس به في حياة صديقيه بدر وطورة، فقد كان سلوى صداقتهم وفاكهتَها، بخفَّة ظلِّه وأحاديثه

ودعابته. وما غذّى هذا الفراغَ أيضًا، تعاظمُ انشغال طورة بالتعليم في المدرسة الظاهريَّة، وانهماكُ بدر أيضًا في تعليم نجل السلطان. وإلى جانب هذا الفراغ السقيم، فقد خلَّف مصطفى أيضًا جرحًا غائرًا في قلب صديقه، كان قد غلَّفه بحرصه عليه، منطلقًا من شرف صداقته، عندما أخبر بدرًا بالأحاديث التي طالت مكنونةَ، قاصدًا انتزاعَه من دوَّامةٍ رهيبة ومخيفة مركزُها قصورُ المماليك وجواريهم، متيقِّنًا من أنَّ بدر الدين على درجة سامية من الطهر والبراءة، أعمت بصيرته وجعلته لا يكترث للمصير المتأصِّل في حياة مكنونة الجارية. فهل كان بدر أعمى البصيرة حقًّا؟ هل كان يُدرك أحلام مكنونة وشهواتها؟

هو الذي كان يرحِّب بكلِّ يقينٍ يقيه شرَّ أيَّامه وتيه زمانه، رفض اليقين الصارخ بضياع مكنونة في أعماق المجالس الأميريَّة والسلطانيَّة. كان النور الذي يشعّ حين يلقاها يطرد ظلام أيَّامها، وعليه فقد سعى بدر جاهدًا لتجاهل ما أسرَّ به مصطفى إليه ونسيانِه، حتى إنَّه لم يُفضِ إلى طورة بذلك.

وحين تهرب إليه من سطوة القصور، كان يتغاضى عمَّا أدماه به مصطفى بابتسامة منه وسكينة تحلُّ عليه بأغنيةٍ منها، على الرَّغم من غصَّة فؤاده المختنق والذي وثَّقته بشدَّة حبائلُ شكّ متينة، وخيبةٌ وسخط لا يلبث أن يتحرَّر منهما بسحر مكنونة وهُيامه بها، مؤمنًا بقدوم لحظةٍ ما قد تنتزعهما معًا من زمن العبوديَّة والانكسار الذي كانا يعيشان فيه.

* * *

مرَّت شهور طويلة، وبدر الدين لا يحالفه نجاحٌ في تقدُّم الأمير فرج بحفظه بعضَ قِصار السُّوَر من القرآن، أو حتى إجراء بعض العمليَّات الحسابيَّة البسيطة.

ساخطٌ هو هذا اليومَ، على درجةٍ عالية من السَّأم والملل والخيبة، بسبب الاستخفاف الدائم من الأمير الصغير وأمّه، وتحمُّلِه المستمرّ لإهاناتها له، وإبرازها القدرة والمشيئة السلطانيَّتين على التحكُّم في مصائر الناس.

مسَّه ذلٌّ جارف أدمى فؤاده، فهو منذ الصباح يسعى جاهدًا لشرح الدروس للطفل الأحمق الذي أغلق عقله بمغاليق سلطان أبيه، فما حاجة العقل ما دام السلطان موجودًا، وشهواتُه متوفِّرةً؟

سرح بدر، في حضور الأمير، مُقْلِعًا عن إكمال الدرس، وهو ما سَرَّ الأمير وجعله ينشغل برسم خربشاتٍ وأشكال عبثيَّة فوق الأوراق، إلى أن أعاد بدرًا من شروده، في فضاء الجناح، صوتُ جاريةٍ لطيفٌ وهي تقول للأمير بالتركيَّة:

ـ مولاي الأمير، إنَّ مولاتي تريدك في أمرٍ ضروريّ؟

لم يتردَّد الأمير فانصرف من دون أن يستأذن معلِّمه بالخروج، فاضطرب بدر من بقائه وحيدًا في فخامة الجناح. لم يلبث حائرًا في أمره إلَّا لحظات، إذ هبَّت رائحةُ طِيبٍ زكيَّةٌ مثيرة أعقبها دخول أمّ الأمير الصغير إلى الجناح وحدها مغلقةً البابَ خلفها بسرعة. كانت تستر ملامحها وهيئتها بعباءة سوداء فضفاضة حجبت فتنتها عن أعين القصر.

اقتربت منه أمام ذهوله واضطرابه، هو الذي اصفرَّ لونه من شدَّة ما حلّ عليه من فتنة. ثم نزعت عنها العباءة لتكشف له عن جسدٍ يتأوَّه غوايةً وجمالًا. عارية كانت أمامه ببياضٍ ساطعٍ أعماه وجعله يرتجف، ملتفتًا إلى الوراء، غاضًّا بصره عنها وعن عريها الفاتن.

دَنَتْ منه حتى شعر بفحيح أنفاسها تلفُّه وتخنقه من الخلف.

أغمض عينيه وارتجف. اضطرب بدر. دَنَتْ أكثرَ. قبضت على كتفيه بيديها، ثم التصقت به. شعر بنهديها العارمين يجتاحان ظهره، ثم احتكَّت به قائلة بإغريقيَّةٍ مثيرة هامسة:

ـ ألن تَلين أيُّها المعلِّم. ألن تعلِّم زوجة السلطان الكتابةَ والقراءة؟

ثقلت أنفاسه، وضاق صدره، وانفجر قلبه بدقّاتٍ صاخبة. ذهب صوته. لم يلتفت وهي على وتيرة فتنتها تذهب وتجيء في ظهره متأوِّهةً دافنة شبقَها في ظهره. قتلته بأنفاسها وجسدها الخصب. كاد يلتفت؛ يقع؛ يخترقها ويدميها كي تسمع القاهرة كلُّها صرخةَ اكتفائها، إلَّا أنَّ صوتًا خفيًّا هتف في أذنه: «طوبى لمن ترك شهوةً حاضرة لموعد غيبٍ لم يَرَه»(1).

أرعبه القول الذي اخترق فؤاده. تفلَّت منها منسحبًا من هولها، هاربًا مهرولًا. فرَّ من حمم فتنتها ومن زمانها الشبق وتأوُّهاتها الجهنَّميَّة، بل فرَّ بدر الدين من جموح نفسه. فهل سيعود بعد اليوم إلى القصر؟

وإذا عاد، فهل سيخرج حيًّا من فتنة سلطانيَّة؟

---

(1) حكمة للصوفيّ الدرويش بِشر الحافي.

الفصل الرابع:
جَمال من نور

ينكفئ في أوجاع عزلةٍ مريرة، تحفُّها مهاوي الخوف من كلِّ جانب. ستقضي عليه تلك التي أردته بفتنتها. ستكيد له خوند شرين.

يرتجف في سريره من شدَّة الوحدة، ومن الخوف ممّا سينقضّ عليه من خناجر وسيوف بعد قليل. سيباغته فرسان الحرس السلطانيّ محاصِرين بيتَه. سيقطّعونه إربًا. يرى رأسه المدمَّى يتدحرج في أزقّة القاهرة، ثم معلَّقًا على باب زويلة. يُصيبه الجزع. لم يَبُحْ لأحد بما ألمّ به من غواية نهدين وغطرستهما، بعد أن جَلَدا ظهره بحمم الشهوة.

سكن بيته مستسلمًا لمصيرٍ دمويّ لا يعلم متى سيحلُّ عليه، وكيف سيردّ عن نفسه أذاه، إذ كيف تجرَّأ على صدِّها والهرب منها؟ من يصدّ شهوة السلطانة؟

يهدأ. ينتابه ذلك الصوت الذي أحاطه هناك بالثبات والطمأنينة: «طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعد غيبٍ لم يرَه». تتردَّد نواقيس في

داخله: من أين جاءه؟! إذ هي المرَّة الأولى التي ينقلب فيها همس التمتمات إلى عباراتٍ ولغةٍ مفهومة؛ لغة قلبه؛ يتنهَّد بحرارة طاردًا أسى صدره وضِيقَه.

في النهاية، لم تخرب نفسه، فخراب النفس أشدّ وقعًا من خراب الدنيا. لم يتهتَّك بدر الدين. لم ينجرف مع موج اللذَّة العارمة، هو الذي لم يكن نهدُ جارية السلطان النهدَ الأوَّل الذي رآه، ولا الجسد البِكر المتألِّه بجمالٍ مسَّه بسطوعه.

في مدارات زمانه الأوَّل الذي سبق قدومه إلى القاهرة تلميذًا نجيبًا، ثم معلِّمًا نبيهًا، كان لبدر غواياتُه واندفاعاته وانجذاباته نحو مجاهيل سعى إليها متجنِّبًا وصيَّةَ أبيه، هاربًا منها إلى موته وفنائه، ربَّما ليحلِّق في فضاء الدماء والحروب؛ ليبلى ثم يولد من جديد؛ ليُزيل عن نفسه عبثَ أيَّامه في كنف أبيه مطاردًا أثر إجاباتٍ قد تشي بزوال أسئلته البكر. وفي الوقت الذي ألقى فيه بنفسه في أعماق الموت وساحات الوغى، لم يَمُت، بل سما، وهاله نور انبعث مشرقًا من قلبه، وهو المتخبِّط فوق الجثث ودمائها وآهاتها. كان كالمختلِّ هناك. لم يعبأ به أحدٌ، فلم يكن على درجة عالية من بلاغة السيف وفصاحة الحرب.

كان مجرَّد جنديّ راجل في الصفوف الخلفيَّة، يشهد الخيل والفرسان وهم يحاربون ويفتكون ببعضهم البعض، لينزف دماءً ليست دماءَه، ويصرخ بصوت ليس صوتَه. لكنَّه لم يمت، بل عاش منجذبًا إلى الشرق، فارًّا من وصيَّة أبيه وجيوش العثمانيِّين الفاتحين لغرب الدنيا، فينطلق بجزعه وآلامه نحو ما جذبه.

في رحلته الشرقيَّة، شهد الفتى بدر الدين في المدن العتيقة أقطابَ الصوفيَّة وزواياهم وطرائقهم ودراويشهم. هام متشرِّدًا في تبريز، وسمرقند، وشيراز، ونقشبند، وبلخ، وترمذ، ونيسابور، وأصفهان،

وبخارى، وغيرها من بلدات وقرى، لم يحلم في يوم من أيَّام عمره الفتيّ بأن تطأها قدماه. لكنَّه لم ينجذب. لم يلمح نورًا يراقصه في تلك البلاد. كان يهرب من أثر أبيه وتعاليمه ووصاياه، ناقمًا على ماضٍ، نقاؤه مزيَّفٌ وتقواه مشبَعةٌ بالدماء والغصب. شهد كلّ شيء من دون أن ينخرط فيه. كان يشرف على المُريدين، والمعلّمين، والأقطاب، والدراويش في الزوايا والمساجد، من شرفة تشوُّفه نحو أعماق المجهول، مندفعًا بالابتعاد عن أصله وملَّته ولغته واعتقاده نحو ما يجهله. كان ينساب في رحلة البحث عن معانٍ جديدة للحياة بلهفةٍ غير تلك التي لقَّنه إيَّاها أبوه.

فغاب في آفاق أربع سنوات مجافيًا الوصيَّةَ. هام بدر الدين في بلاد فارس وما وراءها، متوغِّلًا في أعماق الأنجاز والقوقاز والأفغان. بلغ حدود الدنيا القصوى هناك. تاه بأقوام ليسوا من عرقه، وأُناسٍ ليسوا من ملَّته، واختلط بأجناسٍ لا يتحدَّثون لغته، وبَشَرٍ يتقرَّبون عابدين آلهةً ليست كإلٰهه. هناك رأى العري الناصع كسماءٍ صيفيَّة، لتمسّه سكينة هدوء تآلفت ونورَه الذي لم يدركه بعدُ. كان شغفًا باستعادة شيءٍ ما هناك. ما هو؟ لم يكن يعلم، ولماذا كان يتشظَّى هائمًا منجذبًا إلى تلك البلاد البعيدة هاربًا من وصيَّة أبيه؟ لم يكن يعلم.

كان يعاند مصيرًا كُتب عليه. لم يكن يشأ لنفسه مقام أبيه ومصيرَه.

سكنه إحساس بالنضج والعلوّ أسمى من وصيَّة أبيه، يتخبَّط ما بين موت وحياة، وحربٍ وسلام. خاض أعماق الدنيا، وخاض سحرها وعوالمها الخفيَّة. تاه في نوازع نفسه. تهتَّك وشهد خرابه بعد أن علَّمه الحكماء هناك أنَّ الساعي للسموّ بذاته، عليه أوَّلًا أن يحطَّ من قَدْر

نفسه وكبريائه ليحارب نفسه بنفسه.

قبل ذلك كلِّه، التحق بطقوسٍ سحريَّة وانتشى، وغاب، وحلَّق، ويبس، وجفَّ، وتبلَّل، واخضرَّ، وامتزج ملحه بعسله هناك. هناك اكتشف بدر الدين الجسدَ ولذَّتَه وآهاتِه. خاض في طقوس الأسرار وطقوس الاتِّحاد مع تجلِّيات الله؛ طقوسِ الانعتاق من رجس الحياة، ليخرج من نفسه سيِّدَ نفسِه، ممسكًا بلحظته. كان يحلِّق فوق لحظات عمره ممتطيًا نورَه وتشوُّفَه. كان في اتِّحاده مع آخر الدنيا يتشوَّف، يرى، ينتشي، يصرخ، يبكي. وما إن يولد مرَّة أخرى من رَحِم أرضٍ سحريَّة حتى يصغي إلى همسٍ لاهث يسري في أنحاء نفسه:

ـ لقد نالك الكشف، والكشف عريٌ مقدَّس. نحن لا ننتهك ولا نعرِّي الجسد في سبيل اللذَّة والعهر، بل سعيًا وراء السرّ والنور. نحن ننكشف لنحتجب. انظر إلى الشمس: على الرَّغم من نورها الساطع، فإنَّنا لا نراها، ولا نقوى على التحديق إليها. هي دفؤنا، هي المحتجبة في سرمديَّة هذا الفضاء.

أدرك السماء الأولى، وهناك صرخ متقيِّئًا ماضيَه وذكرياتِ أيَّامه الخاوية من معنى الحياة وأصل النور الذي يراوده بين فينة وأخرى. لم يَعْلَق في دمه شيءٌ هناك، إذ صفُّوه ونقُّوه وغسلوه، وطيَّبوه ورقصوا به، وغنُّوا له واعتنوا بفؤاده، ثم قالوا له هامسين:

ـ لا تهرُبْ من نورك، ولا تحجبْه عن نفسك بغوايات نفسك.

لم يعثر بدر على وَرَعه وهدوء نفسه في أوج الحرب، بل في رَحِم جبلٍ شامخ على حافَّة الدنيا الشرقيَّة، حين أمضى فيه أغرب سنوات عمره الفتيّ مريدًا أصلَ العالم وروحه، معتنقًا تعاليمَه ووصاياه، متوحِّدًا مع معلِّميه. يتذكَّر الآن، في عزلته الرهيبة هذه،

كيف شعَّ نوره من دمه هناك أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى، بحيث شارك المريدين والمعلِّمين القاطنين في مغارةٍ سحيقة وسيعة داخل الجبل، في طقسه الذي أطلقوا عليه اسم طقس الولادة السماويَّة. كانت مشاعل من نار تفوح منها رائحةٌ مثيرة نفَّاذة منغرسة في جدران المغارة الصخريَّة التي كان أثيرها يعبق بروائح البخور الزكيَّة، وكان ثمَّة أصوات وموسيقى سحريَّةٌ طغى عليها أنينُ ناياتٍ اتَّحدت مع ارتعاشات المشاعل. كانوا متأنِّقين مزدانين بالطِّيب. يرتدون عباءاتٍ بيضاءَ شفيفةً تستر أجسادهم بخجل. وكان هو، كدأبه، يرتدي عباءته التي منحته إيّاها مريدةٌ على وشك أن تصبح كاهنة من كاهنات الجبل، إذ دنت منه قائلة بصوت لطيفٍ خفيض:

ـ عندما يشتدّ أنين الناي، أَصغِ إليه بعمق وتأمَّلْ، تَنْصَعْ إلى ما ستأمرك به نفسك مهما يكن أمرها غريبًا وعجيبًا. فلا تجزعْ ولا تخفْ، فالهدف من هذا الطقس أن نولَد من رَحِم السماء.

انصاع بدر الدين لسحر الكاهنة وبهائها، منتشيًا بروائح البخور، ممتلئًا رغبةً وخشيةً ممَّا ستأمره به نفسه، ثم انبعث أنين نايٍ من أعماق الجدران الصخريَّة، وأخذ يزداد شدَّةً ووضوحًا. لاحظ بدر الدين تصرُّفاتٍ وحركاتٍ غريبةً مخيفةً لبعض المريدين الذين انتزعوا عباءاتهم ساطعين بعريهم، منهم شابٌّ في مقتبل العمر جلس على أربع باكيًا مناشدًا امرأةً إلى جانبه ساحرةَ الجمال في مثل سنِّه، أن تركبه لأنَّه هو الحصان الذي سيحلِّق بها إلى السماء، وثمَّة شابَّةٌ أخرى استلقت بين رجلين عجوزين صارخةً بهما أن يسكناها كي تلدهما من جديد. لم يكن ثمَّة تهتُّك وابتذال في ذلك الطقس. حتى النشوة لم تكن بادية على وجوههم. كانوا يتحدَّثون بعضهم ببعض بكلِّ خفر وهدوء وصفاء من دون أدنى خلاعة. أمَّا بدر، وفي أوج انهماكه برؤيتهم، فلم ينزع

عباءته، بل قبض عليها معانقًا نفسه بشدَّة، وقبض بذراعيه على كتفيه وأغمض عينيه مذهولًا مضطربًا منفعلًا. كان، كما قالت له الكاهنة، منصاعًا لأوامر نفسه، إلى أن همست في أذنه امرأة:

ـ افتَحْ عينيك ولا تَخَفْ من تمرُّدك.

فانصاع ليراها مشرقة أمامه بعريها وفتنتها المهيبة. رآها تصلّي وتباركه بتعاويذَ نطقتها بلسانٍ عجيب ولغةٍ غريبة عنه، ثم اختفى وجهها وكيانها لتتجلّى مكانَها أنثى أخرى جميلةٌ وفاتنة الملامح، شرعت بالغناء له باللغة ذاتها، فبكى كطفلٍ صغير، ثم فتح ذراعيه لها قائلًا بتوسُّل: أمَّاه، أمَّاه.

فارتدَّت المرأة ذات الطيف البهيّ إلى الوراء، متوقِّفةً عن الغناء مذعورةً، ثم صرخت به من دون أن يسمع، كأنَّها مختنقة. أمعن في تمتمة شفتيها، ودنا منها، فاختفت. نظر إلى أسفله. كانت كاهنته الشابَّة تمسح دمعًا غزيرًا وعَرَقَ نهديها العاريين بطرف عباءته، قائلة بحسرة:

ـ ولادتك ليست هنا، سماؤك ليست فوقنا.

ثم انسحب بوجَلٍ رهيب. خرج من لحظ الطقس، ليعود به الزمن في غمضة عين إلى وصيَّة أبيه، فأعدَّ نفسه على عَجَلٍ طاردًا عنه هذيانَه، وحممه، وغواياته، وأسراره، وطقوسه، وتشنُّجاته، ولمحات نوره وسمائه الشرقيَّة القصيَّة. مضى إلى القاهرة التي ما إن لمح فيها وجهَ مكنونةَ المشعَّ بلآلئ النور والطرب، حتى صرخ قائلًا في سرِّه: «أنتِ التي رأيتها هناك».

* * *

أكثر من عشرة أيَّام وبدر الدين لم يبرح بيته، غارقًا في تأمُّلاته

وهواجسه، ولحظاتِ عمره الفانية وتلك التي ستفنى بعد قليل بحدِّ سيفٍ مملوكيّ سيحزّ عنقه بعد فراره من غواية خوند شيرين، التي ستُّتهمه حتمًا بالمساس بحرمتها وقداسة سرِّها وقصرها. كان ينتظر مصيرَه متخبِّطًا بين يقظة مخيفة، وحمَّى سقيمة احتلَّت جسده النحيل، من دون أن يجرؤ على البوح لمعلِّمه أكمل الدين أو صديقه طورة كي يُنجداه ويهدياه إلى صوابٍ قد يجنِّبه موتًا بسبب امرأة ممسوسة بشبقٍ سلطانيّ.

كان يتململ في سريره على مشارف الشفاء من الحمّى عندما ارتجف فجأة، حين أرعب قلبَه الطرقُ الشديد على باب داره. جمد في سريره مدَّعيًا النومَ. دفن جسده أسفل الغطاء. كتم أنفاسه ثم ازداد الطَّرْق شدَّةً. نزع الغطاء بغتة عن جسده وانبعث من سريره. أخذ يذرع الحجرة جيئةً وذهابًا بخطواتٍ سريعة مضطربة، يتمتم ويهذي ويضرب على رأسه بيديه بتوتُّرٍ وعصبيَّة كأنَّه ممسوس. أكان خائفًا من الموت المُحْدق به؟ أم متحسِّرًا على موتٍ عبثيٍّ لا يستحقّه؟

ثم سكن متمالكًا نفسَه حين تناهى إليه صوتٌ يهتف بطمأنينة، ويُنزل السكينة على قلبه:

ـ بدر الدين، افتح يا ولدي، هل أنت في الداخل؟

كان معلِّمه أكمل الدين يناشده فتحَ الباب، فاندفع بدر بحماسة وارتياح على عجل نحو الباب، وقد تهلّلت أساريره ليرحِّب بمعلِّمه. وما إن دخلا حجرته وجلسا حتى بُهت المعلِّم ممَّا رآه على وجه تلميذه من شحوبٍ وإعياء وهيئة مهلهلة تشي بتعاسة صاحبها، فتساءل بذهول:

ـ ما الذي ألمَّ بك، يا ولدي، هل أنت بخير؟

أجاب بدر الدين مرتبكًا وهو يشيح بوجهه عن معلِّمه:

ـ أنا بخير يا معلِّمي. أنا بخير.

ـ من أين يحلُّ الخير وأنت حابس نفسَك في بيتك، ومقصّرٌ في واجباتك؟

تذكَّر بدر على حين غرَّة أنَّه معلِّم، والأنكى من هذا أنَّه معلِّمُ ابنِ السلطان، فعادت إلى ذهنه فجأةً خوندُ شيرين وشرُّ جسدها. انتفض قائلًا بخفوت:

ـ اعذرني يا معلِّمي، فقد خذلتك.

قاطعه أكمل الدين كأنَّه لم يسمعه:

ـ لقد جاءني البارحة أتابك الأمير الصغير ساخطًا متذمِّرًا.

انتفض بدر بشدَّة هذه المرَّةَ، واثقًا بأنَّ معلِّمه جاء إلى بيته ليستدرجه إلى سيوف السلطان. ثم عاد إلى الإصغاء إليه:

ـ لقد ادَّعى أنَّك لم تذهب إلى القصر منذ أيَّام عديدة، وأنَّ حرم السلطان عاتبةٌ عليك لأنَّك لم تستأذنها بالغياب، من دون أن تُعلم أتابك الأمير. فهل حقًّا ما سمعته يا بدر؟

سَرَت سكينة وطمأنينة في نفسه أزالتا رجفته، ليستعيد حضوره المؤثِّر أمام معلِّمه، ثم قال بصوتٍ خفيض مبحوح:

ـ سامحني، يا معلِّمي، لقد ألمَّت بي نزلةُ برد قاسيةٌ أَرْدَتْنِي طريح الفراش.

قاطعه معلِّمه متبرِّمًا:

ـ كلَّا، أنت تكذب، وما عهدت منك الادِّعاء والمراوغة يومًا. قُلْ لي ما بك؟

صمت بدر لحظاتٍ حائرًا في أمره، ما بين كتمه غوايةَ خوند

شيرين وبَوْحِه لمعلِّمه، ثم تنهَّدَ قائلًا بحزم:

ـ حسنًا، لقد عزمت على الانقطاع عن تعليم الأمير الصغير.

ـ لماذا؟

ـ لأنَّه أحمق. بل أنا الأحمق لأنَّني وافقت على هذه الوظيفة الدنيئة.

قاطعه معلِّمه مرَّة أخرى بحدَّة شديدة:

ـ دنيئة، يا بدر؟! أهكذا تردُّ لي الجميل؟ هذا جزاء المعروف؟ أنا أُوْليك تعليمَ أبناء السلاطين لتلفظ أنت هذا الأمر بازدراء؟!

ـ ليس هذا ما أقصده، يا معلِّمي. معاذ الله أن أجحف حقّك وفضلك عليّ، ولكنَّني جزعت من تعليم ذلك الطفل. كنت أعتقد أنَّ الأمر لم يتجاوز بضعة أشهرٍ يثمر عقبها العلمُ في صغره، ولكنَّه غبيّ أحمق يا سيِّدي، كما أنَّه لا يفتأ يُمطرني بإهاناتٍ وتقريعٍ وشتائمَ. أهذا ما تودُّه لي، يا معلِّم؟!

تنحنح أكمل الدين بحرج، ثم قال بوداعة:

ـ لا، والله ما رضيت ولم أرضَ، بيد أنَّه كان من الأجدى بك أن تُعْلِمني منذ البداية. لقد كنت أراك قانعًا عندما كنت أسألك عن شؤون التعليم في القصر. فلماذا لم تُعلمني، يا بدر؟

ـ لأنَّني كنت آمل تغيير الأمور نحو الأمثل فأردّ لك الجميل.

ـ سامحك الله يا ولدي.

سأله بدر بقلق خفيٍّ غلَّفه باللامبالاة:

ـ وماذا قلت للأتابك، يا معلِّمي؟

تأمَّله معلِّمه لحظاتٍ، ثم انفجر ضاحكًا:

ـ ما قلته لي أنت في البداية: نزلة برد.

جمدت ملامح بدر للحظات، ثم شارك معلِّمه في ضحكته التي ما إن زالت حتى قال له:

ـ حسنًا، إذا كان هذا مرادَك فهو خيرٌ بإذن الله، فلا تقلقْ من انقطاع دخلك، لأنَّك سترجع، إن شاء الله، إلى المدرسة معلّمًا هذه المرَّة.

ـ أدامك الله يا معلِّمي راعيًا أمينًا لي.

ثم استدرك المعلِّم قائلًا برجاء:

ـ كما أنَّني أودّ منك الالتحاق بحلقة علمٍ أعقدها في مجلسي مساء كلّ يوم جمعة لخاصَّة التلاميذ والمعلِّمين، يزوِّدنا فيها علَّامة من جهابذة علماء المسلمين وأعمقهم فهمًا بما غاب عنَّا من علم. وعندما ستعود إلى كنف المدرسة سأقدِّمك إليها، ها، ماذا قلت؟

ـ السمع والطاعة يا معلِّمي. ولكن مَن هو هذا العلَّامة؟

ـ الجمْ فضولك ولا تتعجَّلْ أمر علمك. عندما تلتحق بالحلقة ستعرفه وستنبهر به. والآن أستودعك الله.

رحل المعلِّم مخلِّفًا وراءه طمأنينةً مفعمَة بسكينة حلَّت على تلميذه الذي آثر عدم البوح له بتأوُّهات خوند شيرين ورغباتها.

* * *

ما إن علم طورة من معلِّمه بأمر بدر الدين حتى عاده في اليوم التالي ليطمئنَّ عليه، معربًا عن سعادته بعودة بدر إلى أروقة المدرسة الظاهريَّة، كي يستعيدا دفءَ صداقتهما وأحلامهما معًا:

ـ لن تقنعني كما أقنعت المعلِّم، فأنا صديقك وكاتم أسرارك.

هتف طورة متذمِّرًا، فأجابه بدر كاظمًا ضحكة سرورٍ كانت على وشك الإفلات من صدره:

ـ وما الذي أقوله يا طورة؟ هذا كلُّ شيء. لقد تخلَّصت من غطرسة ذلك الطفل الصغير وحماقته.

ـ كلَّا والله، إنَّك تُخفي أمرًا جَلَلًا، لكنَّني لن أحملك على قول ما لا تريده، وتخشاه.

ختم طورة حديثه بنبرة عتابٍ واضحة، لأنَّه كان واثقًا بتهرُّب بدر من قول الحقيقة.

تململ بدر في جلسته منكِّسًا رأسه في أرض مجلس بيته، فهو لا يقوى على طورة وعتابه، ولا يمكنه أيضًا أن يستر عنه ما أصابه في القصر. تنهَّد قائلًا بخفوت:

ـ حسنًا، سأبوح لك يا طورة كي يرضى خاطرك، على أن تعاهدني على نسيان ما سأُسرّه إليك بعد هذا المقام.

ـ ألهذه الدرجة أمرك عظيم؟!

ـ بل أشدّ.

وما إن أنهى بدر الدين ما باغتته به شيرين من جسدٍ مسكون بالأنين، حتى انفلتت ضحكة مجلجلة منبعثة من صدر طورة وسط غيظ بدر من سخرية قابله بها صديقه الذي قال مستعيدًا رصانةَ حضوره:

ـ آيتك يوسُف. آيتك يوسُف. فلتحمد الله على ثباتك وكبتك شهواتك، واقتدائك بسُنَّة يوسُف النبيّ في أمره مع امرأة فرعون.

ثم ضحك طورة ضحكةً خفيفة هذه المرَّة، وسأله بمرح:

ـ فإن راودتك هي، فلماذا لم تلبِّ صراخها وصراخ شهوتك؟

أجاب بدر مضطربًا:

ـ ويحك، ماذا تقول؟! فإنَّ في ذلك خرابي وهلاكي. أما علمت بأنَّ البيوت لها حُرُمات وأسرار؟ فإن هي سفكت سرَّها أمامي فأنا صائنٌ سرّي وتقواي.

ـ والله، إنَّني أغبطك على تقواك ونقائك، يا بدر.

قاطعه بدر بمرح ليستدرجه إلى مفاتن السلطانة:

ـ هذا لا يعني أنَّها ليست فاتنة وجامحة و...

تساءل طورة بإثارة منساقًا إلى فخِّ صديقه:

ـ أهي كذلك يا بدر؟ قل. صف لي مفاتن السلطانة؟

تنهَّد بدر تنهيدة حارَّة جارفة، ثم قال وهو ينقضُّ على صديقه مداعبًا:

ـ لعنة الله عليك يا طورة. أما قلت لك إنَّ للبيوت حرماتِها وأسرارَها، وخصوصًا بيوتَ السلاطين، أم أنَّك تسعى وراء رمح يخترق مؤخّرتك وأنت تلهث برمحك في فَرْجِ أُمّ فَرَج.

ثم ضحكا معًا بصخب وسعادة في الوقت الذي أفضى فيه بدر الدين بكلِّ ما تعرَّض له من غواية في القصر من دون أن يشير له إلى ذلك الهاتف الذي تردَّد في أنحاء قلبه لينقذه ويردّه عن سرير الغواية.

* * *

في فجر كلّ يوم جمعة، كانت تهلّ عليه مستترةً بغبش ليلٍ يودِّع صباحًا، وصباحٍ يودِّع ليلًا.

كان ينتظرها بتأهُّبه المعتاد؛ بعمق إيمانه بمجيئها وشغفه بها. هكذا كان عهدهما معًا.

لم تتخلَّف مكنونةُ عن لقائه الخفيّ. كانا على يقين بوفائهما لنذور

عشقٍ أخذاه على نبض قلبيهما. لم تكن ثمَّة وسيلةٌ أخرى في زمن القاهرة المثقوب بعيون السلطان الجاحظة، تكفل أيّ لقاءٍ أيسر قد يشي بوضح النهار أو ركنٍ في قصرٍ أو خان، أو أمسية هادئة في جنَّة الروضة أو على ضفاف النيل. كان يأخذها فجرًا على متن جواده، ليمضي بها خارجًا من أنفاس الناس وأحياء القاهرة، فيذهبا إلى أركانٍ خفيَّة ليحظى بها وحده هانئًا بحضورها وصوتها.

هذا الفجر يلفُّهما بسرورٍ ويحرسهما بإخلاص. وما إن اتَّحدت هي بظهره الدافئ، حتى ناشدته بتوسُّل ودلال طفوليّ:

ـ خذني إلى بيتك. لقد سئمت البرِّيَّة ووحشتها.

أحسَّت، وهي تلفّ خصره وصدره بيديها، بخفقان قلبه قد اشتدَّ. فقال لها بحزم:

ـ السمع والطاعة يا جميلتي، فليكن بيتي.

تهادى بهما الجواد كفلك يحلِّق في فضاء الفجر. كانت القاهرة ساكنةً متَّشحة بغبشٍ يشي بعد قليل بنهارٍ مزدحم تحت شمس الصيف وناسه.

بلغا بيته الصغير. ترجَّل عن جواده، ثم أنزلها ممسكًا بلطفٍ بخصرها الأهيف، فندّت منها آهةُ عشقٍ أصابت صميم وَلَهِهِ بها. دلفا إلى البيت. جالت هي بنظرها في أنحائه. لم يكن قصرًا، وليس فيه من الحرير والإستبرق والستائر المزركشة والأثاث المزخرَف المطعَّم بالدُّرر واللآلئ، ما يفي بإرضاء جمالها. كان بيتًا صغيرًا متواضعًا يناسب شابًّا يقتات من دخل تعليمه المتواضع، يُزيِّنه أثاثٌ هادئ، مكوَّنٌ من منضدة صغيرة وثلاثة كراسيّ خشبيَّة. وفي زاوية مجلس البيت الصغير، زير ماء وسجَّادةٌ شبه مهترئة مزوَّدةٌ ببعض الحواشي

الكتّانيَّة الحمراء. وفي الزاوية المقابلة، منضدةٌ خشبيَّة صغيرة وضع عليها بعض الفواكه المجفَّفة، من تين ومشمش وزبيب وبعض الخبز والتمر والكؤوس النحاسيَّة، معلنةً أنَّها زاوية الطعام. أمَّا حجرته التي دلفتها مكنونةُ، فوجدتها عابقة برائحة الورق والحبر وبعض الكتب المبعثرة على الأرض إلى جانب سريره الخشبيّ الذي يقنع بدر بوثير فراشه ونعومته، كما كان يقول. تأمَّلت مكنونة ركن حبيبها بتعجُّب وفضول، ثم هتفت متسائلة بسخرية وسرور:

ـ أهذا هو قصرك أيُّها الحبيب؟

لحق بها إلى الحجرة ليجدها مستلقية في سريره تزيده بهاءً بتقلُّبها فوقه بعطرها وإثارتها. أجابها مضطربًا من هيئتها هذه، رادًّا عليها سخريتها:

ـ بل بيت أسكنه بعض الوقت إلى حين انتهائي من بناء قصر منيف في الجبل المقطَّم.

باغتته ضاحكة:

ـ أتسخر منِّي يا بدر؟

ـ أبدًا، فأنا أعني ما أقول. سأشيِّد لك قصرًا تكونين سيِّدته وأميرته، ومكنونةَ شاه خاتون. فماذا تقولين؟

أمعنت في ضحكتها وهي تتقلَّب فوق السرير، بعد أن نزعت عنها قفطانها الأسود، كاشفةً عن ثوب أصفر مزركش يُبدي مفاتنها بشفافيَّته الصارمة. لم تكن تعلم بأنَّ بدرًا يداعبها مدفوعًا بإثارةٍ غايتُها هي؛ مدفوعًا رغمًا عنه بما أفضى إليه صديقه مصطفى عنها قبل رحيله، بيد أنَّه ريثما طرد هواجسه مقتربًا منها، جلس على ركبتيه قرب حافَّة السرير إلى جانبها، هي المتمدِّدة ببهائها وحسنها، ثم قال بجذل وهو

يتأمّلها كأنَّه يشهد حلمًا:

ـ سأحيل هذه السماء زمرُّدةً خضراء لجبينك. ومن السماء الثانية، سآتي بخلخال من فضَّة ليعزف على كاحليك. ومن الثالثة سأجلب ياقوتة حمراء لسرّتك. ومن الرابعة سأنتزع درَّة بيضاء لجيدك. ومن الخامسة سأصهر ذهبًا أحمر حَلَقًا لأذنيك. ومن السادسة سأجلب ياقوتة صفراء حزامًا يلفُّ خصرك. ومن السماء السابعة سيحلّ عليك الضياء نورًا يمسُّك فتصيرين ملاكي.

اعتدلت مكنونة بعد أن غرقت في غزله الساحر، ثم دَنَتْ منه قائلة بهمس:

ـ وأنا سأعتّق الكلام بشفتَيَّ رحيقًا لأكفِّر عن ذنوبي بشفتيك.

ثم دَنَتْ أكثرَ من وجومه وتأمُّله العميق في وجهها، وقبَّلت شفتيه بنهم وإثارة، فاستيقظ هو من تأمُّله على نعومة لسانها ودفئه في فمه، واندفع متَّحدًا بقبلتها. جعلها تستلقي فوق السرير وهو في لجَّة القبلة. جذبته بلهفة. هذه هي المرَّة الأولى التي يستجيب لها فيها هكذا بحماسة وإثارة. هكذا قالت في سرِّها، وهي تؤازره بنزع جزء من ثوبها عن صدرها مبديةً نهدين نذرتهما لشفتيه. ثار بدر على وشك الاتِّحاد بها، وما إن امتزجت هي بأنفاسه آخذة بتعريته وتعريتها، حتى انسحب مرتدًّا هابطًا عن سرير لقائه مكنونة ومتن لذَّتها مفترشًا الأرضَ، فاركًا وجهَه بيديه يلهث متمتمًا بكلمات غريبة. هل كان يبكي؟ هاجت ولملمت جسدها وثوبها بغضب، ثم صرخت:

ـ لماذا تفعل هذا بي؟ لماذا تتحاشاني؟ هل أنا قبيحة لهذه الدرجة؟ أم أنَّ زوجة السلطان أجمل منِّي وأبرع في استثارتك؟

لم يُجِبها، بل ظلَّ في وجومه وتمتماته للحظات، ثم رفع رأسه

نحوها متأمّلًا، قائلًا بصوته العميق الذي يقشعرُّ بدنها من حزمه:

ـ عندما ألامسك؛ عندما أقترب منك أعمى. لا أرى شيئًا. لا أراني. فأنت النور، كلُّ النور. حين ألامسك وأتَّحد بك أتلاشى في دفقاتك يا روحي.

اشتدَّ سخطها وهيجانها. قفزت عن السرير وجلست مقابله، ثم قبضت على رأسه تهزّه بيديها صارخة:

ـ أنا لست نورًا. لست نورك. أنا امرأة من لحم ودم ورغبات. استيقظ يا بدر، ولا تظلمْني في كلِّ مرَّة ألتقيك بحُسن كلام لا أعي منه حرفًا. أنا لست كما تعتقد. لست قدِّيسة. هل تفهم؟

ثم انكفأت عنه منخرطة في موجة بكاء عارمة بسبب مباغتتها له بقسوة، ونتيجة خيبتها في سرير لقائه. حدجها بصمت وهو يصغي إلى نشيجها الجارح. مسَّد رأسها قائلًا بصوت أجشّ:

ـ بل أعلم يا محبوبتي. أعلم. فأنت الآن في أهوال مصير مأساويّ في قصر رذيلة فُرضت عليك، لكنَّك لن تُحَلِّقي وتتطهَّري إلَّا عندما تُدركين معنى الانكسار وتهشُّم الأخلاق. وقتها، ستُدركين أنَّ قلبك عاد إلى الخفقان ببلّور صافٍ مضيء.

ثم مال على أذنها هامسًا:

ـ مكنونة يا وجع قلبي، حين نقع في الخطيئة والمعصية، فإنَّ إيماننا سيزداد حتمًا عندما نكتشف فداحة الألم الذي يجثم على صدورنا من هول الخطيئة. عندما نحسّ بالألم سيكفُّ عنَّا الشرُّ ورجسه. عندما نعيش آلامنا، فهذا يعني أنَّنا لم نزل طاهرَيْن.

انتفضت مبتعدةً عنه كما لو أنَّه نفث تعويذة لعنة ساحت في أذنها، ثم قالت بحسرة:

ـ أنا لا أتألَّم إلَّا برفقتك.

ـ وهل أنا خطيئتك يا مكنونة؟

ـ بل أنت من يذكِّرني دومًا بخطايا نفسي. ما الذي تريده منِّي بشفقتك هذه؟ أتريد أن تنتشلني من دوَّامة ابتلعتني حتى من قبل أن أولد؟! أنا هكذا يا بدر. أنا ما أنا: هذا هو مصيري. هذه هي حياتي، فمن أنت لتغيِّرها؟!

ـ بل أنت من يغيِّرها.

صرخت في وجهه بصوت مبحوح:

ـ لا أريد أن أغيِّرها. أنا سعيدة هكذا: أغنِّي؛ أرقص؛ أُطرب الناس من حولي...

قاطعها بحدَّة:

ـ والسلطان! ألا تُطربين السلطان؟!

أجابته بوقاحة:

ـ بلى، أُطربه، ولا أنتشي بطربي إلَّا في فراشه.

توسَّلها قائلًا ببحَّة صوت حارقة:

ـ مكنونة، ما بك يا محبوبتي؟ أيُّ مَسٍّ أصابك؟ أهكذا تكافئين قلبًا لا يتقن نبضًا إلَّا لك؟!

أجابته بتأفُّف:

ـ كفاك طُهرًا برفقتي يا بدر، ولا تُسبغْ عليَّ من طُهرك، فأنا كُتب عليَّ مصيرٌ وبتٌّ في أعماقه المظلمة، ولن أرتدَّ عنه هانئة بِنِعَمِه. وبحسني وطرب صوتي سأنال ما أستحقّه.

ـ ستقضي عليك شهواتك.

ـ وأنت سيقضي عليك نورك.

ـ إنَّك تُطربين قلوبهم لا عقولَهم المفترسة وإراداتهم المتوحِّشة. أولئك قوم لا يتَّقون الله. إيَّاك والانجرار وراء جاههم بشهواتك وأحلامك. إنَّهم يمزِّقون روحك، يا مكنونةُ، بعطاياهم، فلا تُذهبي حسن صوتك ونورك بِمُتَعٍ زائلة وشهوات باطلة.

ـ وما الذي يمكنك فعله من أجلي؟ هيَّا، قُل لي. هل ستعتقني من قيد المذلَّة؟ هل ستشتريني من الأمير طرنطاي؛ أميري وحارسي الذي لا يحرمني شيئًا؟

ـ مكنونة، أتوسَّل إليك، كُفِّي عن استفزازي بقسوة ووقاحة. أرجوك رأفة بحالي وحبِّي لك.

هدأ روع مكنونة وخمد ثورانها بالتدريج إلى أن قالت بقنوط:

ـ لن تقوى على مصيري يا بدر. فأنت أسمى من حضيضي. آه، كم أحسدك على نقائك وسموّ روحك.

ثم ارتمت في حضنه دافنة بكاءها المريرَ في صدره، فربَّت هو على ظهرها بلطف، ثم قال بخفوت:

ـ ويحك، يا مكنونة، ما الذي فعلته بنفسك؟ يمنحك الله نعمة الصوت، فإذا هي نقمة عليك في قصور الجَوْر. ويحك، فِرِّي معي. اهربي، فإنَّ بقاءك هناك سيقضي عليك. سيخنقك أميرك يا مكنونة. سيكتم صوتك ويُلقيكِ خارج أسوار قصره من دون أن يجرؤ أحد على تورية جثمانك في قبر صغير.

صمت رافعًا رأسَه، متأمِّلًا في سقف حجرته، على وقع بكائها، ثم صرخ بأسًى قائلًا على وشك البكاء:

ـ نحن ندفن موتانا، يا مكنونة. ندفنهم في قلوبنا والتربة

الصالحة. فنحن لسنا كلابًا. نحن لنا أرواح وقلوب تعشق.

لم تعقِّب مكنونةُ، وإن دفنت آهات حسرتها في صدره تحلّق في فضاء القصر على متن شهواتها وأحلامها، كانت على يقين صارم يتحكَّم في وجدانها، ويقضي ببلوغها مرحلةً من مراحل مصيرها الأشدّ سوداويَّة: مرحلة اللاعودة.

استجاب بدر لطلب معلِّمه أكمل الدين بالالتحاق بمدرسته، فانخرط متجاهلًا، في أجوائها التعليميَّة، تأثيراتِ مكنونة الشائكةَ في إثر لقائه المأساويّ الأخير بها، مفضِّلًا الانشغال بتعليم قواعد المنطق وأُسُس الفلسفة، التي يعشقها، لتلاميذَ يستجيبون لعلمه الذي يُثمر في عقولهم؛ ليشعر بدر الدين بجدوى علمه وأثره في التلاميذ، فقد انتابه شعور بالفخر والرضا حين جنى ثمار علمه. وما آزره في البُعد عن هُيامه بمكنونة، هو استعادةُ قربه من صديقه طورة، ليبدِّد في نقاشاته وحواراته العقليَّة برفقته ذكرى تلك الشهور التعيسة التي أمضاها في قصر السلطان معلِّمًا للأمير الصغير فرج، متحمِّلًا إهاناته، وحماقاته، وشهواتِ أمّه.

ثم جاء اليوم الذي لبَّى فيه نداء معلِّمه بالانضمام إلى حلقة العلم التي يعقدها لصفوة العلماء، يحتلُّه فضول هائل لمعرفة ذلك العلَّامة الذي وصفه معلِّمه، بفخر، بأنَّه: سيِّد علماء زمانه بعلمه الجزيل، وحفظه وتأريخه لزمان المسلمين.

كان مساء مسَّته برودة لطيفة، تُنبئ بحلول الخريف في قادم الأيَّام على القاهرة وزمانها الذي سيتجاوز بعد بضعة شهور سنة 799 هـ، الموافقة لسنة 1397 م.

دلف بدر الدين إلى المجلس المزدان بأجواء الجِدَّة والصرامة، إذ

هو مجلس علم وأدب يعجُّ بالعلماء والمعلِّمين والتلاميذ المتفوِّقين. كان المعلِّم أكمل يجلس متربِّعًا على فراش أرضيٍّ وثير في صدر المجلس قبالة الجمع، وإلى جانبه جلس كهل آخر نحيلُ البنية متغضِّنُ الملامح، بسُمرة خفيفة طالت وجهه، وبعينين بنِّيَّتين، ولحية بيضاء كثَّة طويلة تزيده هيبة، وعمامةٍ كلَّل بياضُها عباءةً بنِّيَّة موشَّحة بخيوط ذهبيَّة زادت حضورَه وقارًا.

كانت الحلقة قد بدأت منذ حين، والكهل كان منهمكًا بصوته الرخيم في حديث عن أصول الرياسة والحكم. تسلَّل بدر إلى مؤخّرة المجلس بهدوء كي لا يشتِّت انتباه أحد ويلفت انتباه معلِّمه إلى تأخُّره.

كان طورة جالسًا في الصفِّ الخلفيّ، وما إن رأى بدرًا حتى أفسح له إلى جانبه، فجلس بدر متسائلًا بهمس:

ـ هل تأخَّرتُ كثيرًا؟

ـ كلَّا، لقد بدأت الحلقة منذ قليل.

ـ ومَن هذا الذي يجلس إلى جانب المعلِّم؟

ـ هذا هو العلَّامة وليّ الدين عبد الرحمٰن بن خلدون، وكنيته التي يُعرف بها: ابن خلدون.

ـ هو الذي حدَّثني عنه المعلِّم، إذًا؟

ـ نعم، والآن أنصتْ كي لا نتسبَّب بإزعاج مَنْ في المجلس.

أصغى بدر الدين بانتباه شديد إلى العلَّامة وعلمه الآسر:

ـ وعليه، فإنَّ الدين أساس الدولة والأمَّة، وهو الذي يصهر كلَّ النوازع ومظاهر الشعوبيَّة. فالإسلام ليس عربيًّا فحسب، ولا تركيًّا، ولا فارسيًّا، بل هو الدين الأعمّ لكلِّ الأمم. وأمَّا فيما يتعلَّق بالرياسة وشؤون الحكم، فإنَّ «الرياسة لا تكون إلَّا بالغُلب، والغُلب إنَّما يكون

بالعصبيَّة، ولا تكون الرياسة في غير نَسَب العصبيَّة»[1].

وهذا التاريخ المتقلِّب، بأحواله وأقداره، يثبت لنا أنَّ العصبيَّة إذا ما اشتدَّت وتآصرت، ضاربةً جذورها في أعماق الأرض، وَثَبتْ على السلطان وحكمت بما أنزله الله في قرآنه وعلى لسان نبيِّه، على أن تكون الرياسة منقادة في السياسة. والسياسة هي تدبير مصالح الدنيا فقط. واعلم، رحمك الله، أنَّ السياسة عقليَّة يستتبّ بها أمر الدولة. وأمَّا إذا كانت مفروضة من الله، عزَّ وجلّ، بشارع يقرِّرها ويشرعها، فهي سياسة دينيَّة. وعليه، فإنَّ من يضمن الحكم والرياسة هو العصبيَّة القويَّة، ولله في تدبير أموره وتصريفها شؤونٌ في عباده وخَلْقه.

كان بدر مستغرقًا في الإصغاء إلى حديث ابن خلدون، إذ أذهله ما سمعه، فهذه هي المرَّة الأولى التي ينشغل بالإصغاء إلى ما كان يطالعه ويدقِّقه في أمَّهات الكتب على لسان عالم جليل، من دون أن يسلِّم في الوقت نفسه، بيقين تامّ، بجُلِّ ما قاله العلَّامة في حلقة العلم. فبدر الدين قد نشأت نفسه توَّاقةً إلى العلم على الحكمة القائلة: «يقين لا شكَّ فيه أشبهُ بشكٍّ لا يقينَ فيه».

وفي إثر باكورة الحلقات التي رَأَسها هذا العالِم بشؤون الدنيا والدين، كان بدر الدين يمحِّص في أقواله ومفاهيمه، إذ يتَّفق معه في بعضها ويختلف في بعضها الآخر، من دون أن تتسنَّى له فرصة لقائه على انفراد، أو في حجرة معلِّمه، لشدَّة انشغاله وتحلُّق التلاميذ والمريدين من حوله، ليُمطروه بأسئلتهم واستفساراتهم. فانسحب بدر، مفضِّلًا تناولَ مقولات ابن خلدون ومفاهيمه خلال نقاش محتدم مع

(1) «مقدِّمة ابن خلدون». وأمَّا بقيَّة الحديث على لسان ابن خلدون، فهو بتصرُّف من الكاتب.

صديقه طورة، متحرِّيًا في الوقت نفسه أخبارَ ابن خلدون وأصلَه ومنشأه:

ـ ومن أين جاء هذا العالم، يا طورة؟

ـ بحسب ما علمت من المعلِّم، فإنَّه قدم منذ سنوات إلى القاهرة، قادمًا من المغرب، وانشغل بمنصب القضاء، ولم يلتحق بمدارس الأزهر. يقول المعلِّم إنَّه جال في أنحاء الدنيا كافَّة، وما وراء البحار والأندلس، وهو مقرَّب أيضًا من السلطان الظاهر، ويشاركه في هوايته في عشق الخيول العربيَّة. حتى إنَّه يراسل ملوك المغرب باسم برقوق كي يرسلوا له أجود ما لديهم من خيول أصيلة.

ـ إذًا، هو ذو حظوة لدى السلطان.

ـ بل له حظوة جليلة.

ـ ما دام يسكن القصور فهو على علم ببطش أصحابها، فلماذا لا يُعْلي صوته بانتقادهم؟

ـ وما أدراني، يا بدر!!

في الحلقات العلميَّة اللاحقة، أصبح بدر الدين يأتي مبكِّرًا كي لا يفوِّت عليه كلمة من دفقات ابن خلدون وعلمه.

في ذلك المساء، كانت الحلقة استكمالًا لما جاء في الحلقة السابقة، إذ افتتح العلَّامة حديثه بحمد الله وتسبيحه والصلاة على نبيِّه الكريم، ثم شرع بإتحاف المريدين بتُحَف علمه:

ـ فاعلم، رحمك الله وأنار فؤادك بنوره، بأنَّ الدعوة الدينيَّة، بلا عصبيَّة تشدّ من إزارها وترفع رايتها، لا تصلح ولا تتمّ، فإذا كان ثمَّة من يقف من العلماء والفقهاء والعامَّة في وجه أهل الجَور من الأمراء والسلاطين داعين إلى خروجهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر، ويتكاثر من حولهم التابعون من الغوغاء والعامَّة، فإنَّهم سيهلكون في رفضهم وخروجهم، آثمين مخطئين، لأنَّ الله، عزَّ وجلّ، لم يكتب عليهم ذلك ولم يفرضه، وإنَّما أمر بالخروج على أهل الجوْر، عندما يمتلك العباد المقدرةَ على ذلك بعصبيَّة متينة وجماعة قويّة. وعليه، فإنَّ الخروج على العصبيَّة يستدعي عصبيَّة أخرى تهزمها وتُزيل هيبتها. وأمَّا جزاء أولئك الذين أخذهم خروجهم بإثم مُبِين فهو بالإصلاح، فإن أبوا فبالتنكيل بهم وإظهار كذبهم ونفاقهم للناس وإفساد تعاليمهم، ومن ثم إنزال حدّ القتل بهم، إذا ما أحدثوا خللًا وهرجًا بين الرعيَّة[1].

تسلَّل جزع مرير إلى نفس بدر الدين ممَّا سمعه على لسان العلامة، ليتحوَّل خلال لحظات إلى سخط، إلى درجة أنَّه غاب عن محضر الحلقة متفكِّرًا في حديث ابن خلدون، إذ شعر بأنَّ هذا الحديث وأحكامه تطاله هو؛ تطال أفكار بدر وتعاليمه التي استنبطها من أعماق متون الفلسفة والمنطق والحقّ؛ حقّ يجافي حقّ ابن خلدون وحكمته. واجه بدر الدين صعوبة في تمالك أمره، وكان على وشك الثوران خيبةً وغيظًا ممَّا ألقاه العلَّامة في وجهه.

لمس طورة اضطراب صديقه وأنفاسه الثقيلة، إلى أن اعتدل بدر، ثم وقف منتصبًا في سلوك غريب وشاذٍّ عن أعراف حلقات العلم والعلماء. حدج ابن خلدون بقسوة، فتوقَّف العلَّامة بدوره عن الحديث عندما برز المنتصب بقامته في منتصف المجلس فسأل مستفسرًا:

ـ هل ثمَّة خَطْبٌ يا ولدي؟

ارتجف بدر من شدَّة هيبة المجلس. احمرَّ وجهه وتعرَّق جبينه،

(1) من وحي المقدِّمة، وبتصرُّف من الكاتب.

حائرًا مضطربًا في أمره، عاجزًا عن التعبير عمَّا كان يجول في خاطره من أفكار سيردّ بها على العلّامة الذي كرَّر سؤاله له وسط همهمة سرت في أجواء المجلس عبَّرت عن ذهول الحضور، وعلى رأسهم المعلِّم أكمل الدين. ثم تنحنح بدر قائلًا بصوت يجاهد لجعله متماسكًا:

ـ ولكن محمَّدًا النبيَّ، عليه الصلاة والسلام، لم ينتصر على أهل الجَور من عصبيَّته بالعصبيَّة ذاتها، أو بغيرها، بل بتوفيق من ربِّه وسيوف المستضعَفين في ذلك الزمان.

علت الهمهمة في فضاء المجلس في إثر مداخلة بدر الدين، إلى أن استعاد ابن خلدون، بصوته الرخيم، زمامَ الأمور سائلًا بدرًا:

ـ وهل أنت عربيّ أم أعجميّ، يا فتى؟

ـ وما الفرق إلَّا بالتقوى يا سيِّدي!

امتعض العلَّامة من إجابته، فقال موضِّحًا:

ـ أقصد أنَّ هيئتك تدلُّ على أصل، ولسانك الفصيح يدلّ على آخر.

تدخَّل أكمل الدين محرَجًا كي ينقذ المجلس من هرج تسبَّب به تلميذه النجيب:

ـ هذا بدر الدين يا سيِّدي، من ملَّتي. كنت قد حدَّثتك عنه، وعن علمه وأخلاقه.

هزَّ ابن خلدون رأسه، ثم قال موجِّهًا حديثه إلى بدر:

ـ ألم يُبد لك علمُك، يا بنيّ، أَنَّ عظمة الأمم لا تُبنى إلَّا على عصبة قويَّة متينة؟ ألم تَرَ السلف مَن الأمويِّين والعبَّاسيِّين ومن تلاهم من أهل العصبيَّة في الأزمان المتعاقبة؟

فأجابه بدر بعزيمة تساؤلاته الشديدة:

- وهل للمستضعَفين في الأرض من عصبيَّة يا سيِّدي؟ وهل كُتب عليهم الذلُّ والهوان لأنَّهم لا ينتمون إلى قبيلة كبيرة تُؤويهم؟ وهل هذا جزاء الذين يسعون لإعلاء كلمة الحقِّ وما أمر به الله من عدل وقِسْط؟

قطع عليه ابن خلدون حديثه ساخطًا:

- اصمت يا فتى. فما زلت غرًّا يافعًا، ولم تعِ بعدُ سُنَّة الزمان وأحكامه. وستُبدي لك الأيَّام، وهي دول، ما كنت تجهله من أصول السلطنة، وأُسس الرياسة والسياسة. فصُنْ نفسك من سلاطة لسانك وجموح شبابك، ولا تكن، بما أحرزته من علم ومنطق، هادمًا لنفسك بسفاهة ما نطقتَ به، فتكون «كالتي نقضت غزلها من بعد قوَّة أنكاثًا»[1].

استغفر الله لي ولك ولعباده الصالحين.

لم يعقِّب بدر الدين، بل انسحب على عَجَل من الحلقة من دون أن يُلقي على الحاضرين السلامَ مودِّعًا.

وكان آخرُ ما سمعه همهمةَ الحلقة بالاستغفار.

حلَّ نهار اليوم التالي من دون أن يشي بصباح هانئ يستيقظ فيه بدر من نوم عميق؛ إذ لم ينم، بل ظلَّ طوال ليله المروِّع غارقًا في لجَّة جداله الساخن مع ابن خلدون.

لقد خابت آماله، إذ كان منجذبًا في البداية نحو تعاليمه، مشدوهًا به وبغزارة علمه؛ إلى أن فاجأه بأحكام تدعم الجَوْر، وتغذِّي بطش الملوك والسلاطين، وتقوِّيهم على المستضعَفين في الأرض، فهل كان هذا ما يطمح إليه بدر؟ أن يغدو علَّامة في مجلس سلطان يُسبغ عليه شرعيَّة السطو والبطش بالمساكين؟

(1) قرآن كريم، سورة النحل، آية 92.

كان بدر على وشك إحراق كتبه التي نشأ على علمها، وتمزيقِ أوراقه التي كتب فيها خواطرَه وأحلامَه، يصحبه أَرَقٌ حارق يجعل أحكام ابن خلدون ورؤاه لا تغيب عن ذهنه، ساعيًا للبحث عن صواب يلائم فكره وعلمه فلم يجد، ليمقته في سرِّه وينابذه، مدركًا، في الوقت نفسه، أنَّ ما قام به بالأمس من جرأة شاذَّة عن مجالس العلم وحلقاته لن يمرَّ مرور الكرام، وسيحاسبه معلِّمه ويعاتبه عتابًا مُرًّا على فعله.

وهذا ما حدث. فما إن حطَّ النهار غازلًا ثوبَ شمسه للقاهرة حتى زاره أكمل الدين وبرفقته طورة:

ـ ما الذي فعلته بالأمس، يا بدر؟ كيف تجرؤ على الوقوف في وجه علَّامة، مثلِ ابن خلدون، مسبِّبًا لي الإحراجَ العظيم؟

أجاب بدر بخفر كي يخفِّف من حدَّة معلِّمه أمام ذهول طورة وصمته:

ـ لم أفعل شيئًا يا معلِّمي. ألم تعلِّمني أنت التمحيص والتدقيق فيما أتلقَّاه من علم دنيويّ، وأن أسلِّم بما أتلقَّاه من علم دينيّ؟

ثارت ثائرة المعلِّم الذي ردَّ عليه في سابقة غريبة منذ لقائه إيَّاه، بلغة تركيَّة:

ـ ما هكذا يكون التمحيص. لقد غرَّك علمك حتى تعتقد أنَّك أذكى منَّا جميعًا. ما الذي تظنُّه أنت؟ هل تعتقد أنَّ حظوتك لديَّ ومعزَّتي لك ستشفعان لك وقاحتَك في مجلسي؟ واللهِ إنَّك ضللت وفقأت عين بصيرتك بغرورك الباطل هذا؟

ردَّ بدر متسائلًا بالعربيَّة:

ـ وهل يستحقّ ما قلته أنا كلَّ هذا الغيظ، يا معلِّمي؟

ـ نعم، وأكثر أيضًا. فأَصغِ يا فتى: أنا معلِّمك في مقام أبيك، ولقد اهتممت بأمرك ورعيتك كولَدي، وستنصاع لي الآن؟

ـ سمعًا وطاعة يا معلِّمي.

ـ ستأتي هذا المساء إلى مجلسي كي تعتذر إلى العلَّامة، وتعلن له أمام الملأ أنَّك جاهل غرّ، وأنَّك ستحظى بشرف عظيم عندما تنال العلم على يديه.

حدج بدر معلِّمه بقسوة مستنكرًا أمره، ثم قال بسخط أذهب خفره واضطرابه:

ـ ألأنَّني فتى قال الحقّ في مجلسك وخالَفَ عالِمًا يدَّعي أنَّه سيِّد أسياد الحكمة، أعتذر؟!

ـ ماذا؟!

دنا بدر من معلِّمه ليُذهله بلهجة جديدة مليئة بالتحدِّي والصرامة:

ـ أنا لم أعد تلميذك المدلَّل. وإذا كان ثمَّة حظوة نلتها لديك فهي بعلمي وأدبي وحفظي لعهدك معي.

ـ ويلك، أتجحد؟!

ـ واللهِ ما أجحد، إلَّا أنَّني أرى حبائل مَذَلَّة وخنوع توشك على توثيقي بها، فواللهِ ما خضعت، ولن أخضع.

ـ فواللهِ محرَّمٌ عليك مجلسي ومدرستي ومرافقتي.

ثم انصرف أكمل الدين مخلِّفًا وراءه بدرًا وطورة الذي لم يزل مذهولًا ممَّا ألمَّ بصديقه من هيجان وغضب في وجه معلِّمه:

ـ ما الذي دهاك يا بدر؟

لم يستجب بدر لصوت صديقه القَلِق. كان يتأمَّل جدار حجرته

محدِّقًا بقسوة، كأنَّ غيبًا طارئًا انكشف له، ثم قال بأسى:

ـ «إنَّ الدنيا نزلة، وهي إلى كلّ نذل أَمْيَلُ، وأنذل منها من أخذها بغير حقِّها، وطلبها لغير وجهها، ووضعها في غير سبيلها»[1].

ـ ما بالك يا صديقي. أجبني. ما الذي تهذي به؟

شهق بدر الدين بعمق، ثم ارتمى فوق سريره قائلًا بثبات:

ـ هذا فراق بيني وبينه، يا طورة. لن أعود إلى المدرسة معلِّمًا ما حييت.

ـ هوِّنْ عليك، فما هي إلَّا ثورة غضب وستمضي إلى حالها.

ـ كلَّا، لقد كنت على يقين بأنَّني سأصل إلى هذا المبلغ مع المعلِّم. بعد سبع سنين أمضيتها تحت عباءته وفي مدرسته، ها هو يريد إذلالي. وبأيِّ ذنب؟

ذنبي أنَّني وقفت في وجه ابن خلدون الذي يتمتَّع بحظوة لدى السلطان هانئًا بذكر محاسن الخيل العربي، في الوقت الذي لا يجد الناس قُوت يومهم.

ـ هذه سُنَّة العلماء ومكانتُهم في زماننا؟

ـ لا، بل هذا هو الرياء والنفاق. الرياء لن ينالني، ولن أسمح لأحد بأن يُحيطني به ويُجبرني عليه.

ـ ويحك، يا بدر، أين كنت تخبِّئ كلَّ هذا السخط؟

ـ بل هو الحقّ، يا طورة.

---

(1) من أقوال قُطب الصوفيَّة، سعيد بن المسيَّب.

الفصل الخامس:
شهوة من نار

وأنت المتأهّب دومًا لسطوع النور في قلبك، القابض على جمر رفضك، إذ تحلّق على متن عنفوانك في فضاء تمرُّدك، أنّى لك معاندة مصير كُتب عليك بحروف زمان جائر؟

فما الذي تتوخَّاه الآن، وبأيٍّ صدد أنت في هذه الديار؟ في القاهرة التي آوتك واحتضنتك، لتُفرحَك وتُبكيَك وتجرحك وتداويك، ها أنت وحدك في أعماق وَحدتك تعرّي نَفْسًا أرهقت فؤادك المرهف؛ نَفْسًا مفعَمة بنور لطالما خشيت منه أنت وهربت من هالاته وإشراقاته، فماذا ستفعل وأنت تكابد وَحدتك كلعنة مُعلَّقة على جدران بيتك؟

تعبر أوجاع البلوغ إلى عين عقلك، والغيُّ فيك أحرق قلبك وأضلعك. وأنت الغريب الوحيد، القَلِقُ المبصر، الأعمى المتمرِّد الخانع، الضالُّ المؤمن، المخطئ التائب، المعلِّم الجاهل، الفتى

الكهل، عبدُ الشهوة وعبد التوبة، اصرخْ، اصرخْ بالله عليك، وقُلْ لي ماذا تريد؟

هكذا يُناجي نفسه بعذاب مستعر، معتزلًا في بيته.

هل كان محتجبًا، أم خائفًا؟

أكثر من سبع سنين في الديار المصريَّة والقاهرة البهيَّة لم يَمْسَسْك فيها وهنٌ ولا جزع ولا يأس، على الرَّغم من كلِّ ما حولك من عقبات وغوايات ونداءات، حيث سِرتَ بهامة مشرقة غُزلت من نور وطهر؛ لتحرسك من مهاوي الظلام وشهوات زمان ضاجعه السلطان فبات كلُّ ما حولك حرامًا في حرام.

أكثر من سبع سنين أَوْفيت في تقلُّباتها لأهلك وأبيك، وغدوت معلِّمًا وعالِمًا، ونلت حظوة العلم والعلماء، وأصبحت معلِّمًا للسلاطين كما شاء أبوك، ولكنَّك لم تعد إلى بلد أبيك عندما قبضتَ على جمر معرفة لم يدركها هو.

إذ انتشيتَ بغواية مسَّتك بنور مبهَم؛ غوايةٍ محبَّذة قادتك نحو الغياب فيما لا تعرفه وتدركه، لتكتشف أنَّ ثمَّة نورًا يشع منك أنت، فكيف تأوي إلى طِيب المقام وحُسن أيَّام وفتنة زمان شرَّعت أبوابها لك؟

لم تقنع بامتنان حضورك الذي ازدان بك معلِّمًا فذًّا في مدارس القاهرة وحلقات علمها وعلمائها، ولم تَبُحْ باختلاجات النور في نفسك حتى لأقرب أصدقائك؛ النور الذي زجَّك بشموخ في حلقة ابن خلدون من دون سواك لتقول قولك وتُبرز حُكمك، فمَن أنت أيُّها الفتى الغرُّ لتقف في وجه علَّامة العلماء؟ مَن أنت، وما قيمة علم لا يستمدّ تأثيره من سَنَد قوَّة؟ ألم يكن ابن خلدون محقًّا في قوله؟ أيُّها الحالم بعبث لا

مكان له في زمن العصبيَّات ودمائها السلطانيَّة، انظرْ حولك لترى. حلّقْ في سماء الزمان تَرَ الأرض ترتجف بزلزلة جيوش السلاطين. انظرْ، هناك في الشرق ملكٌ عظيم لن يردَّه عن أرض مستعصية على سيفه إلَّا موتٌ لن ينزل عليه الآن؛ وإلى الغرب انظر إلى ملَّتك نحو سلطان ينتزع بهول جيوشه ركنَه من الزمان والرياسة؛ ثم انظر أسفلك الآن، حيث أنت أيُّها المعلَّقُ بتطلُّعات نورك إلى الانعتاق، انظر إلى سوق عظيمة من النخاسة استحالت فجأة إلى قصور بهيَّة من المماليك والسلاطين. فمن أنت، بل أين أنت في خضمّ هذا كلِّه؟

أكثر من سبع سنين اشتدَّ فيها عودك وهربت من زمانك الأوَّل رافضًا العودة إلى مهدك، تطارد ما شفّ من غيب على هيئة نور سكنك، وأنت الذي في غيابك ترى غيبهم، وفي كشفك تلامس مصائرهم، وفي حزنك تشهد ظلمهم. وعندما يَمْسَسْك النور لا ترى، بل ترى، لا ترى، بل أرى، واللهِ، وألتفُّ بأنوار الله مشرقًا قلبي بها، هانئًا بنور حبيبي.

في عمرك المرهَق لم تعتِّقْ فؤادَك تلك الأصواتُ الهاتفة الصاخبة الهامسة الباكية، لتُبديَ لك الأصوات التي كانت تقودك إلى غياب أذهَشَ مَن حولك وأثار خشيتهم منك. أكثر من سبع سنين، وفي كلّ سنة كنت تنال من هذه الأصوات نبر نورها وحروف ضيائها، لتجمع الحرف على الحرف، والكلمةَ على الكلمة، والجملةَ على الجملة، لتُبدي لك الأصوات بسرِّها وتصدّ، ثم جاهدت أنت وغبت أكثر لتُصغي برهافة ووجل إلى الهمس. من أين ينبعث الهمس؟ من أين أتاك؟ من قلبك؟ من سمائك؟ من عقلك؟ من روحك؟ من أين أتاك الهمس فأدماك وسوّاك ممسوسًا غريبًا ملقًى هنا؟ فهل أدركت العبارة يا بدر؟

وأنت تقول بسطوع نورك في حلقة العلم، وما أدراك أنَّه نور وحقٌّ مُبين؟ هل صدَّقت أنَّ عبارتَك سماويَّةٌ وأنَّ نبرها وحرفها ولغتها كلّها سماء. هل أنت ابن كلتيهما: ابن السماء وابن الأرض؟ هل سيرحمك ربّك؟

عندما سطع نورك في سماء العلم وخالفتهم وأبديت ما يُجافي معتقداتهم، جافوك ونبذوك. وقد يقيمون عليك الحدَّ بعد قليل بتهمة الزندقة والكفر. لم تعد منهم يا بدر، ولن تبقى معلِّمًا بعد ما حدث، ولن ترتدي أزياءهم وعمائمهم. لن تحمل فَخورًا قرطاسَك، وقلمَك، ولفائفَ صُحفك، وكتبك، مختالًا بين الناس يباركونك في الأسواق والحارات على جزيل علمك، ولن تنال العطايا والحظوات والنِّعَم، ولن يدخل بيتَك ما يقيك من آلام الجوع، ويستر عليك بمعاش هانئ، ومقام طيِّب. لقد أعلنت الحرب على أمَّة من العلماء والفقهاء والقُضاة والتلاميذ، فكيف تجرَّأت على فعل هذا كلِّه وحدك؟

وحدك يا بدر ترفض مَن كنت في كنفهم؛ أولئك المتململين فوق فراش الحظوة السلطانيَّة الوثيرة. فلماذا ابتعدتَ عنهم؟

ها أنت اليوم في سطوع الحقيقة؛ حقيقةِ أنَّك بتَّ وحدك، وحدَك يا بدر ويحك. فما الذي تفعله هنا؟ تتلقَّف خَجِلًا مكسوفًا ما يمنحك إيَّاه مَن لم يتخلَّ عنك؟

طورة الذي بات يأتي إلى بيتك سرًّا ليتفقَّد أحوالك وأمورك، ساعيًا لمواساتك، باذلًا عطاء صداقته عليك، فهل هذا ما كنتَ تتوسَّله؟ أن تصبح مثار صَدَقات حتى وإن كانت من صديقك؟

فقل لي، بالله عليك، ما الذي تفعله هنا؟

تأسرك مكنونة. تجذبك إلى نور منبعث من طربها وأثير صدرها.

أهذا ما يشدُّك إلى القاهرة وزمانها؟ لتوفِّق أنت بين نور منبعث من ظلام خطيئة، وبين عشق نقيّ طاهر تسعى من خلاله لانتزاعها من أعماق السطوة السلطانيَّة. فهل وُفِّقت في مسعاك؟

أنت الذي تلفُّها دومًا بعبارات سمائك، وهي التي تناشدك، بطربها ورقص جسدها، بالهبوط والنزول عند رغبة حُسنها وجمالها، ما الذي كنت تبحث عنه فيها في ظلِّ ما ترميك به هي من غياب الآن؟

كنت تبحث فيها عن صرخة ندَّت عن زمان قصيّ بعيد. كنت تسعى لدفن عذاباتك في صدرها؛ أن تُولَد من جديد من رَحِمها. فلماذا لم تفعل؟ لماذا لم تجرؤ؟

وتقول لي الآن إنَّها طُهرك ونورُك المشتهى، وهي المهتوكة الجسد، المسفوكة الروح. طُهرك يا بدر؟! أهذا قَدْرُ عالِم مثلك؟ ونصيبُ الهائم مثلك؟

تطارد أثر جارية هبلتك بما تُرْديك به من براءة تارةً، وخلاعةٍ تارةً أخرى، لتراقصك مكنونةُ على وقع الخطايا والعطايا، والتهتُّكِ والبراءة، والندمِ والإمعان في الابتذال. أدمتك بضحكتين، صافية وغانية، وبعثرتكَ بآمالها وشهواتها، وآلمتك ببكائها وطربها. هي مثلك يا بدر. هي مثلك، فلا تفرَّ من خلاصكما معًا. هي مثلك، وأنت مثلها، فإلى الهاوية.

* * *

ينتشله طورة من سواد عزلته التي طالت لتمتدّ وتفرد ستارًا حجبه عمَّا يدور حوله في الدنيا من أحداث ومصائر متقلِّبة. كان يأتيه ليستردَّه من خيبته المريرة، وليذكِّره بأنَّ ثمَّة من يكترث لأمره وصداقته في هذه الدنيا، من دون أن يشعر لحظةً بما أصابه من عجز ويأس. فهل

استسلم بدر الدين حقًّا؟ يسأل نفسَه طورةُ في إطلالاته على صديقه ومشاهداته أحوالَه: هل خنع بدر؟ هل ناله الوهنُ واليأس؟

بيد أنَّه لا يلبث أن يطرد من خاطره هذه الأسئلةَ العبثيَّة عندما كان يلمح ذلك الوميضَ الغريب في عيني بدر. كان ثمَّة نور يشعّ منهما، حتى في أحلك لحظات صاحبهما ظلامًا وتشتُّتًا وضَياعًا. لقد كان طورة على يقين تامٍّ، هو المتأثّر بإرادة بدر وجموحه وأحلامه، بأنَّ صديقه يعرف ما يريد. لكنْ، ماذا كان بدر يتوخَّى. فذلك ما لم يكن طورة يعرفه. فكلُّ ما يعلمه هو أنَّ صاحبه يتأرجح بين حال وحال؛ بين أمل ويأس؛ بين تشوُّش وصفاء.

ـ جئتك بأنباء مهمَّة.

ـ ماذا هناك؟

يسأله بدر بخواء ولامبالاة، فيُجيبه طورة بحماسة يُلقيها عليه علَّها تحتلُّه:

ـ لقد انتصر سلطان المغول تيمورلنك في حملته الشرقيَّة مُخضعًا بلادَ الهند والسند.

ـ وما الذي يعنيه هذا؟

ـ لقد استتبَّ له الأمر في الشرق، وهو يُعِدُّ العدَّة الآن لشنِّ حربٍ عظيمة على سلطان الروم بايزيد. تقول القوافل القادمة من الشمال إنَّ السبب في ذلك هو المراسلاتُ الناريَّة بينهما، بحيث طلب فيها تيمور من بايزيد تقديم فروض الطاعة والولاء له عقب ما أحرزه من فتوحات وامتداد سلطانه في غرب البلاد. يقولون إنَّ تيمورًا قد بدأ حربه بالفعل بالانقضاض على شرق الأراضي الواقعة تحت سيطرة بايزيد.

نجح طورة، إذ تسلَّلت الحماسة إلى بدر الذي ومضت عيناه ببريق لم يتوقَّعه طورة، قائلًا بحزمٍ وثقة:

ـ لا أعتقد أنَّ تيمورًا سيحارب بايزيد الآن، فهذا ما سيقضي عليه، لأنَّه سيقع هالكًا بين جيوش بايزيد وجيوش برقوق.

ـ وما شأن برقوق في هذا؟

ـ هل غفلت عن العِداء المستعر بين تيمور وبرقوق؟ ألم تشاهد الجيش الذي أعدَّه وجهَّزه برقوق منطلقًا به إلى الشام قبل أربع سنوات لمحاربة تيمور؟

ـ ولكنَّ برقوقًا متحفِّظ عن التحالف مع بايزيد ودعمه في حربه المنشودة ضدَّ تيمور.

ـ ومن قال إنَّ برقوقًا سيشنّ حربًا؟

ـ فمن إذن؟

ابتسم بدر الدين ابتسامة ظاهرة، ثم قال بيقين راسخ:

ـ ذلك غيب الأيَّام القادمة يا صديقي؛ أيَّام ستُبدي انقضاض تيمور على برقوق في بلاد الشام.

ـ ولكنَّ تيمورًا يُعِدّ العدَّة لمحاربة بايزيد.

ـ لا واللهِ، بل يعدّها لمحاربة برقوق. سيتحيَّن اللحظة المناسبة التي سينقضّ فيها على خصمه بلا هوادة.

أقلع عن حديثه المُحاط باليقين فجأة، ثم أخذ يلهث بشدّة وعيناه جاحظتان مسمَّرتان في أرض الحجرة، كأنَّه لمح ملك الموت يوشك على القبض على روحه. هال طورةَ أمرُ صديقه، على الرَّغم من أنَّها ليست المرَّة الأولى التي يراه فيها على هذه الهيئة، غائبًا عن الحضور. فما الذي يشاهده بدر الدين في لحظات غيبه؟ ما الذي يراه في غيبٍ

ما إن يعود منه حتى ينكره مضطربًا؟

سأله طورة عمَّا ألَمَّ به، فأجاب بدر وهو يلهث:

ـ لا شيء يا طورة. لا شيء. مجرَّد إعياء مفاجئ، لا أقلّ ولا أكثر. لا تقلق.

ثم انسحب طورة تاركًا وراءه بدر الدين في حال من الوجوم، وعلى وشك الهذيان.

بدر، الذي رأى في لحظة غيبيَّة، اختطافَ فارس في كامل عتاده، يمتطي فرسًا ناصعة البياض، ويمتشق سيفين من نار، يضحك بغبطة للانتصار، هاتفًا بلغة غريبة عتيقة يتقنها بدر جيِّدًا:

«يجب ألَّا يوجد سوى سيِّد واحد على الأرض، ما دام لا يوجد إلَّا إلٰه واحد في السماء»(1).

ثم نام بدر وحلم وحلَّق، ثم هوى من فضاء الرؤيا عندما جذبته همسات تتالت عليه بسرعتها وحدَّتها:

«تبريز... تبريز... شرق الدنيا نور... فاتح الدنيا تبريز... أنت هناك».

استيقظ من نومه فَزِعًا، كأنَّ سيفين من جحيم قد اخترقا قلبه وصدره، وأنسياه همس الكلمات التي حاول جاهدًا أن يتذكَّرها فلم يفلح.

* * *

في ظلِّ انصياعه لعزلته وانشغاله عن أجواء زمانه بما تيسَّر له من كُتُب يُفرغ في أوراقه ما تدهشه به من أحكام واعتقادات، كان لا

(1) من أقوال تيمورلنك التي نقلتها المصادر العربيَّة.

يتخلَّى عن ذكر مكنونة، ولا يسلِّمها إلى النسيان، إذ لم تغب عنه لحظة. ففي كلّ كلمة كان يقرأها، كان يُصغي إلى طرب مكنونة. وفي كلِّ كلمة يكتبها، كان يشعر بأنفاسها الدافئة العَطِرة تلفُّه. فما الذي ألمّ بها، يا تُرى؟ أين هي مكنونة؟ وما يكاد يختنق، أسًى وخشيةً، بأسئلته المُرَّة هذه، حتى يطرد هواجسه تلك، مسلِّمًا قلبه إلى إحساس خفيّ يُثبِّته على طمأنينة وسلام يَشيان بأنَّ مكنونةَ بخير، ولم يَمْسَسْها سوء حتى هذه اللحظة على الأقلّ.

كان ينتظرها بعهد فجرهما معًا كلَّ يوم جُمعة خلف القصر الشرقيّ، ليظلَّ متوحِّدًا ممتطيًا جواده حتى شروق الشمس وقد أعلن عبث انتظاره وغياب مكنونة، وليكرِّر الانتظار كلَّ فجر على مدار الأيَّام الأخرى، علَّها تُطلّ عليه يومًا، مكنونة التي لم تبزغ من ديجور القاهرة. فأين هي بحقِّ السماء؟! ولماذا تدميني بكلِّ هذا الغياب الحادّ؟ يسأل نفسه متحسِّرًا عليها وعلى معاقبتها له، ربَّما في إثر لقائهما الأخير الذي اختلط فيه عواء الجسد بهمس الروح.

وما بين عزلة وهجر يزلزلان بشدَّتهما جبلًا شامخًا، لم يقنط بدر من إرادة صلبة أحاطته، ولم يَمْسَسْه حطام يُهلكه ويُذهب علمه وعقله، يؤازره طورةُ ويواسيه، ويُطلعه على آخر ما يجري في الدنيا من أحداث متسارعة أكثر من أيِّ وقت مضى، إذ حلَّ عليه مساءً بعاصفة من حماسة وسرور:

ـ أصبتُ أنا وأخطأتَ أنت، يا بدر.

ـ وكيف هذا؟

ـ في البداية، لأزفَّ إليك نبأ صديقنا الفارس الهمَّام مصطفى وأحواله.

حدج بدر صديقه باستغراب، ثم تذكَّر دفعة واحدة مصطفى؛ مصطفى الذي أقنعه بدر بالسيف لا بالكلمة، ثم هتف متعجِّبًا:

ـ آه، مصطفى. وما به مصطفى؟

ـ بالأمس، كنت أتقصَّى أخبار بلادنا البعيدة من بعض التجَّار الأتراك النازلين في الخان القريب من مدرستي، فإذا بمصطفى يقفز عليَّ من صخب الأحاديث. يقولون إنَّه أصبح أميرًا على الرَّغم من حداثة سنِّه، ولم يحدث من قبلُ لرجل في مثل عمره أن نال هذه المرتبة العسكريَّة المَهيبة. وقد حظي بها بفعل شجاعته وبراعته في فنون الحرب والقتال في الثغور الغربيَّة. وفي إثر سلسلة من الانتصارات التي أحرزها بايزيد في بلاد الصرب والبلغار، بزغ نجم مصطفى يا بدر. لقد غدا صاحبنا أمير حرب عظيمًا.

ـ والله، إنَّك أفرحتني وأنزلت السرور على قلبي. فليحمِه الله ويحرسْه من شرِّ سيفه قبل شرِّ أعدائه.

تسلَّل صمت إلى أجواء حديثهما بسبب تحليقهما معًا في فضاء ذكرى جميلة جمعتهما يومًا بمصطفى. سرحا في تلك الأيَّام المزدانة بقصص مصطفى ونوادره، إلى أن تساءل بدر مُعيدًا معه طورةَ من الماضي:

ـ ألم تقل لي إنَّك أصبتَ وأنا أخطأتُ، فأَفْصِحْ: كيف هذا؟ وفِيمَ؟

تنهَّد طورة بحرارة، مستعيدًا حماسته قائلًا:

ـ تيمورلنك لن يشنَّ حربه على برقوق كما قلت أنت، بل على بايزيد.

ـ ومن أين لك هذا العلم، يا سيِّد العارفين؟

تجنَّب طورة تهكُّم بدر قائلًا بجِدِّيَّة:

ـ لقد علمت من أولئك التُّجّار، بأنَّ جيوش تيمور المنسحبةَ من بلاد الهند وجهتُها بلاد الأرمن، وستُقيم معسكراتها هناك انتظارًا لانقضاء الشتاء، ثم ستنقضّ على سلطنة بايزيد. فإذا كان تيمور سيباغت برقوقًا في حدود الشام الشماليَّة، فلماذا يقوم الآن بنصب معسكراته في بلاد الأرمن التابعة لحكم السلطان بايزيد في أقصى الشمال؟ ولماذا أيضًا لا نشهد استعدادات برقوق الحربيَّة من جيش وتحشيد وتعبئة إذا ما أراد شنَّ حرب على تيمور؟

أنهى طورة حديثه وتساؤلاته لينال من بدر ضحكةً صاخبة ذهبت بحكمه الصائب، ثم قال بدر بعد أن هدأت أساريره بكلِّ حزم وجِدَّة:

ـ لا تحجبْ عنك حُسنَ بصيرتك بأحكام عمياء يا صديقي. ففي بعض الأحيان، عندما نكون مسكونين بحماسة هائلة لأمر ما، تختلط علينا الأحكام، إذ تُقلَب آية المنطق لنتفكَّر بقلوبنا ونحلم بعقولنا.

لم يعقِّب طورة، فهذه ليست المرَّة الأولى التي يعجز فيها عن مواجهة بدر بأحكام وأقوال مماثلة.

* * *

تسلَّل الطيف المتسربل بغبش الفجر بكلِّ خفَّة وهدوء إلى داخل البيت، واثقًا بخُطاه الهادئة. دلف إلى الحجرة ودنا، ثم مال وانحنى ليُحيط ببدر بأنفاسه العَطِرة الدافئة، ونزع لثامه عن وجهه ورأسه، ومسَّد بلطف صدر بدر المستلقي على ظهره، ثم ارتدَّ الطيف مذعورًا إلى الوراء في إثر مباغتة بدر الذي فتح عينيه قائلًا بخفوت:

ـ لقد أهلكتني بغيابك يا مكنونة.

شهقت مكنونة وهي تدنو منه من جديد:

ـ ويحك، وأنا التي كنت سأجعلك تشهق بحلولي عليك. ها أنت كدت تقتلني من شدَّة الفزع.

ـ أعوذ بالله من شرِّ قولك يا فؤادي.

قالها وهو ينهض من فراشه، ثم جذبها برفق من يدها وأجلسها إلى جانبه على حافَّة السرير، وقال لها منتشيًا بحضورها طاردًا عنه عتابَ هجرها:

ـ ألا ترين هالتك يا محبوبتي؟ إنَّك موشَّحة بنور على نور. أَقبلي، اقتربي، قبِّليني ليغدو دمي شمسًا، ونصبحَ معًا نهارًا.

ذهبت معه في غزله هامسة:

ـ سأُحيل قلبي أغنية لك. سأُطربك بعزف فؤادي المشغوف بحُبّك.

ثم انخرطا في قبلة هادئة، أرادها بدر لينصهر بها؛ أرادها ليُزيل عنه أثر غيابها الفادح وعزلة مريرة. أكان يقبِّلها، أم يلمح انعكاس نوره في عينيها. نقل إلى رحيق قبلتها شوقَه وهُيامه. سرَّها اندفاعُه الفجريّ هذا. كان ينتظرها واثقًا بقدومها إليه، يدفعها أمر جلل. انسحبت من حرارة شفتيه قائلة باضطراب:

ـ ألا أغنّي لك، يا حبيبي؟

رمقها بنظرات حادَّة ذهبت بسرور اجتماعهما من جديد، ثم قال:

ـ أَفصحي يا مكنونة.

اهتزَّ حضورها بتوتُّر، فقامت من جانبه مُديرة ظهرها له، محدِّقة في جدار الحُجرة، ثم سألته باضطراب:

ـ عمَّ أُفصح؟

ـ عن مكنون صدرك، يا مكنونة.

التفتت نحوه وهي تفرك كفَّيها بعصبيَّة وتوتُّر، ثم قالت بصوت خفيض:

ـ سأرحل إلى قلعة الجبل مع مولاي الأمير أقباي. سأسكن في قصره الجديد الواقع إلى جانب قصر السلطان.

قاطعها بصرامة:

ـ أكان هذا سببَ هجرك؟ كي أعتاد غيابك؟!

هرعت صوبه وارتمت عند قدميه، قائلة على مشارف البكاء:

ـ التَمِسْ لي عذرًا يا بدر، فأنا لست سيِّدة أمري.

أمسك رأسها بيديه وهزَّه بعنف:

ـ اهربي معي. إذًا، ارحلي معي. فأنا حتى هذه اللحظة قابض على انعتاقك بيدي.

تحرَّرت منه منقلبة في غمضة عين فجأة إلى لبؤة جارحة:

ـ وماذا ستمنحني أنت؟ انظر إلى حالك البائسة هذه؟ ماذا أصبت أنت بعلمك؟ فتأمَّلْ ما أصبته أنا بصوتي وحُسني.

ـ ما أصبتِ سوى الضَّياع وملازمة أهل الجَوْر.

دنت منه من جديد قائلةً بتوسُّل أزال عنها تنمُّرها:

ـ بدر، حين يطيب المقام داخل القصر الجديد في ظلِّ السلطان، وأحظى لديه بحظوة أميري وقربي منه، عندها سأبوح للسلطان بأمرك وعلمك حتى تحظى أنت أيضًا برضاه، ليبارك قراننا بالقلعة.

ثارت ثائرته:

ـ ما الذي تهذين به؟ أيُّ ترَّهاتٍ هذه؟ ألا تحلمين إلَّا بالحظوة؟

ما هكذا تنعتقين يا مكنونة، مستبدلةً قيدَك بقيد آخر من مذلَّة وخنوع وتريدينني شريكك فيه؟

ـ أترضى لي بما لا أرضى به لكَ؟!

ـ مكنونة، كأنَّك ممسوسة يا حبيبتي. ما بك؟ ألهذه الدرجة أعماكِ أميرك عن طبع قلبي؟

كانت تبكي بخفوت ساترةً وجهَها بكفَّيها، واقفةً أمامه ولا تدري كيف تجيب عن أسئلته القاسية، ثم كتمت بكاءها وتأمَّلته للحظات بنظرات مثيرة وفاتنة، لتباغته بانقلابها من حال إلى حال، كأنَّها مسكونة بشياطين الجحيم. ارتبك بدر من نظراتها التي تخترقه بلا رحمة من دون أن يلوي على شيء، ثم أخذت تنزع ثوبها على عَجَل مبديةً عريًا وجمالًا عاتيين، ثم ارتمت فوق السرير، تتأوَّه بإثارة مبتذَلة:

ـ هلمَّ تعالَ، فشهوتي في عينيك حارقة. تعالَ اتَّحد بي لتشعر بي.

بعثره إعصار ابتذالها. أهذه مكنونة التي يحبّ؟ أهي ذاتها التي يندغم بنور يشرق من أثير طربها؟

أدمته بتأوُّهاتها. دنا منها. كاد يبكي لأنَّه رأى الفقدان. رآها تضيع وهي تتأوَّه متململة في فراشه تتوسَّله الالتحام بها، كأنَّها أخرى. نعم، هذه ليست مكنونة، بل امرأة مسكونة بشيطانة ملعونة. دنا بدر منها، ثم انتزع الغطاء بعنف عن السرير، وألقاه عليها ساترًا جسدَها، وقائلًا وهو يردِّد بحسرة:

ـ جمالك من نور، وشهوتك من نار. جمالك من نور، وشهوتك من نار.

ثم استعادت نفسها وأنفاسها وثوبَ جسدها وأخذت تأوُّهاتِها،

ورمقته بسكونٍ ما بين بلاهة وخيبة ووداع، معلنة انسحابَها: لا كما دخلت طيفًا من نور، بل شبحًا من نار.

* * *

لقد فقدها إلى الأبد.

هكذا، أحاط به يقين مرٌّ كالحنظل: هل فقدتَها يا بدر، أم تخلَّيتَ عنها؟

غدا قلبه مطعونًا بخناجر ما فعلته هي في سريره، ليسأل نفسه، هو الذي سئم من عزلته وإقامته الخانقة بين جدران البيت الذي تتأوَّه فيه شهواتُ مكنونةَ وأنفاسُها، إذ برحيلها وغيابها نحو أعماق قلعة السلطان وقصوره، تمنحه يقظةً مباغتة استدعته إلى أحواله البائسة وواقعه التَّعِس؛ يقظة مشحونة بانكسار مكنونة أمامه وتهشُّم مرآة عشقها في قلبه. ويحها، كيف استحكمت وتوثَّقت بها شهواتٌ تصرخ بالعزِّ الزائل والحظوة المزيَّفة؟

وكانت يقظته بمداواة نفسه عبر كسر عزلته والهرب من شرِّ أحلام مكنونة الجارية، ليتأمَّل شؤونه هو وما حوله من دنيا وبيت صغير لم يعد يمتلك ما يكفل إيواءه فيه، ولا توفير غذاء له وكسوة ومال وجاه معلِّم مَحَقَه معلِّمُه.

في صيف القاهرة الحارق، عندما كانت شمس الظهيرة تجلد بيته بالحرِّ والقيظ، استيقظ بدر على حقيقة مُرَّة: فلا مال يملكه ولا هو يدَّخر شيئًا. ليس له إلَّا طورة يقيه من الجوع والتشرُّد بما يتقاسمه معه من مال يجنيه من عمله في المدرسة. يراوده شعور بالازدراء تجاه نفسه، إذ بات حالة مستعصية على العمل، وعبئًا على كاهل صديقه. فهل هذا ما كان يطمح إليه؟ هكذا يجلد نفسه مؤنِّبًا: فما الذي أحرزتَه

بعد كلّ هذا العلم، يا بدر، سوى ذلّ العزلة والعجز؟

كان في بيته يضطرم بيقظته الحارقة وما خلَّفته مكنونةٌ من جمر في صدره. ينتظر مجيء طورة إليه ليُعْلِمه بعزمه على كسب رزقه وطعامه بعرق جبينه.

ـ وأيُّ الأعمال التي تلائمك أيُّها المعلِّم؟

سأله طورة متهكِّما:

ـ سأمتهن أحطَّ المهن في سبيل لقمة لا أكون فيها عالة على أحد.

ردّ عليه طورة معاتبًا:

ـ سامحك الله يا صديقي. هل أنت عالة عليّ؟ هل أبديتُ لك ما يجرحك؟

ـ كلَّا واللهِ، ولكنَّني أنشد نجدتك لي ومؤازرتي على عزمي.

ـ أنت تعلم، يا بدر، بأنَّه ليس في استطاعتك العملُ بعلمك بعد ما أثرته من عواصف في مدرسة أكمل الدين.

ـ أعلم هذا.

ـ وتعلم أيضًا بأنَّ العمل في أسواق القاهرة وخاناتها ليس بالقلم ولا بالكتاب.

أجابه بدر بنزق:

ـ طورة، لا تحطَّ من عزمي وتُهبطْ هممي. فقد عزمت، ولا أطلب منك سوى المؤازرة.

قال طورة بلهجة طغى عليها الرجاء:

ـ في إمكاني، كما قلت لك في السابق، أن أسعى في وفاق بينك وبين المعلِّم كي تعود.

قاطعه بدر بغضب عارم:

ـ إيَّاك، يا طورة. فما هذا إلَّا الذلّ بعينه. فهل ترضى به لي؟

ـ لا وحقّ الصداقة.

استسلم طورة لعزم صديقه، فهو يدرك هول الآلام التي يعانيها بدر بسبب انتكاسته في درب العلم، ونتيجة هجران مكنونة له.

اعتقد طورة جازمًا أنَّ بدرًا يريد مواجهة واقعه المتوحّش هذا عبر الانغماس فيه وتحدِّيه بعيدًا عن سبع سنين أمضاها في تحصيل العلم والعمل به، مطمئنًّا في الوقت نفسه إلى أنَّه ممتلئ نورًا وإرادةً، فلن يتحطَّم في واقع القاهرة الرهيب.

لقد حجب بدر علمه لتتجلّى إرادة لطالما أراد اختبارها في قسوة الدنيا وصرامتها.

* * *

هجر بيته الذي لم يعد يمتلك ثمن أجرته، ومنح طورةَ جواده، ثم باع كتبه وأقلامه في سوق الورّاقين، إذ لم يعد معلِّمًا، فما حاجته إليها، واشترى بثمنها عربة خشبيَّة صغيرة وبعضَ بضاعة من الفاكهة المجفَّفة؛ ليتجوَّل بها بائعًا في حواري القاهرة وأسواقها.

هو الذي لم يصدِّق للحظة من لحظات عمره الشقيّ، أنَّه سيخوض هذا العمل، كان في أَوْج انخراطه في عمله الجديد والغريب عنه، سعيدًا باسترداده نفسَه وكرامته. فما فائدة العلم بلا عمل ولا كرامة ولا إباء؟

خبَّأ عليه سرًّا، ليعمل بائعًا جوّالًا مزدانًا بكرامته، حرًّا في عمله وسيّدًا لنفسه من دون أن يعايره أحد بفضله عليه، أو يقيِّده برعايته له. كان يُعيد الطهر إلى نفسه بطهارة عمله، ممعنًا فيه، هاربًا من الماضي

القريب المشيَّد من خيبة العلم والعلماء ومذلَّة مكنونة ومصيرها، بقروش قليلة تسدُّ رمق جوعه، راضيًا سعيدًا بنصيبه.

هام في القاهرة وعلى ضفَّتي نيلها، مشرَّدًا ينام في الأزقَّة، ويسكن الأماكن المهجورة والخانات وأنزالها الوضيعة، مفضِّلًا الابتعادَ عن فضل طورة عليه وإلحاحه في اللجوء إليه والسكن في ضيافته، محافظًا في الوقت نفسه على عهد الصداقة معه وزيارته، ولقائه سرًّا في حجرته داخل المدرسة بعيدًا عن عيني المعلِّم.

كان يسعى نحو ولادة جديدة. هكذا هو بدر الدين، ابنُ العزِّ والجاه البائدين، وابنُ العلم وآفاقه، تنقلب حاله في لحظات، غير أنَّه انقلاب محبَّذ وجميل انجذب إليه باطمئنان وتأهُّب. فما الذي كنت تتأهَّب له يا بدر؟ وفي زحمة الأسواق وأنفاس بائعيها وتُجَّارها والمتجوِّلين فيها، انساق بدر نحو قاهرة أخرى، لم تكن سيِّدةَ العلم والسلطان والجاه. القاهرة التي خاضها بدر الدين هي قاهرةُ البسطاء والمساكين ذوي الغايات البسيطة والأحلام الخجولة المتواضعة، ليتَّحد معهم ويسكن آلامهم، متعرِّفًا إلى أشخاص لم يكن يتخيَّل لقاءهم في يوم من الأيَّام، ليُبهِرهم بعلمِ أبى السرّ والكتمان، ولينفلت من هيئة البائع المسكين، مزيلًا حجابَهُ ليُنير مصائر الناس، مبدِّدًا عنهم جهلَهم بدنياهم.

لقد فتحت له قاهرة المساكين ذراعيها واحتضنته، وَدَعَتْه إلى الانخراط فيها، لتتكشَّفَ له ملامحُها البائسة والفقيرة.

وفي مطافه الطارئ هذا، استدلَّ بدر إلى ركن من أركان القاهرة الشرقيَّة يُطلَق عليه وادي المستضعَفين، يقع على سفح الجبل المُقطَّم الذي يسكن في قمَّته السلطانُ وفي أسفله المستضعَفون، والمشرَّدون، والهائمون، والدراويش، والمتصوِّفون، والزاهدون. كان مكانًا عثر

عليه بدر مصادفةً منجذبًا إليه في أثناء تجوُّله في أحياء القاهرة الشرقيَّة، ساعيًا وراء رزقه، إذ رأى بشرًا يسكنون في العراء، منهم من نصب خيامًا صغيرة، ومنهم من صنع من أخشاب متهالكة غرفًا صغيرة تقيه قيظ الصيف وزمهرير الشتاء.

نال المكان رضاه، معلنًا وضعَ حدٍّ لتشرُّده وتقلُّبه ليلَ نهارَ في أكثر من مكان وركن وزقاق، مبتعدًا عن ضوضاء القاهرة وعقرها الصاخب.

* * *

ذاتَ مساء، وبعد أن عثر على مستقرٍّ في الجهة الشماليَّة من الوادي لا يسكنه ولا يُحيط به أحد، مقيمًا فيه غرفةً خشبيَّة صغيرة بائسة، كان يتجوَّل في أنحاء وادي المُستضعَفين متفقِّدًا أحوالَ ساكنيه ومقامهم، مُرفِّهًا عن نفسه بنسائم تحلَّت ببرودة خفيفة أسهمت في حلول مساء صيفيّ عليل.

كان هائمًا في شمال الوادي، عندما تناهت إلى مسمعيه أصواتُ همهمة مصحوبة بإيقاع دفوف من ركن ما قريب منه.

استرعى انتباهَه الأمرُ وكأنَّه سمع هذه الأصوات من قبلُ، فصعد يقوده فضوله نحو الشمال، فإذا هي مغارة لا باب لها، يشعّ منها ضوء شحيح وتنبعث منها أصواتُ همهمة تعالت حين دنا من مصدرها. ولج إليها بحذر وتردُّد. كانت واسعة ورحبة. لفته مقام مُشيَّد من الطين بدا كأنَّه قبر، وإلى شماله مساحةٌ واسعة أبرزت رحابتَها مشاعلُ النيران المغروزة في جدران المغارة، تتوسَّطها حلقة مكوَّنة من بضعة أشخاص واقفين بثيابهم المهلهلة يشبكون أيديهم معًا، مُشكِّلين دائرةً، ويحرِّكون رُؤوسهم يَمنةً ويَسرة، ويردِّدون بكلِّ خشوع: «الله، الله، الله».

على وقع دفوف خفيَّة منسجمة مع الهمهمة، ليُدرك بدر أنَّه في زاوية صوفيَّة في أعماق المُقطَّم. لم يفاجئه المشهد، فقد شهِد مثله، بل أشدَّ منه رهبةً في زمانه الأوَّل، فانسحب مُفضِّلًا عدم إثارة انتباههم وقطع حلقة ذكرهم. وما إن شارف على المغادرة حتى استوقفه صوتٌ حازمٌ آمرٌ انبعث من خلفه:

ـ حسبك.

جمد بدر في مكانه لا يلوي على شيء، وكأنَّ الصوت انبعث من داخله. لم يجرؤ على الالتفات، ثم اخترقه الصوت من جديد:

ـ التفتْ بأمان، وانظُرْ إليَّ بسلام.

تردَّد بدر، ثم التفت ببطء وتوتُّر ليقع نظره على شيخ كهل ملتفٍّ بمُرقعة لا تفصح عن ملامحه، غير أنَّ بدرًا أدرك من مُرقعته أنَّه يقف أمام شيخ من شيوخ الصوفيَّة، ثم دنا منجذبًا إليه تدفعه الطمأنينة المنبعثة من صوت الشيخ الذي قال له:

ـ شهدتَ وهربت. ومن يشهدْ مثلك ويعرفْ لا يهربْ.

ـ اعذرْني يا سيِّدي، لم أقصد التطفُّل عليكم وإزعاجكم، بل انجذبت إلى حلاوة ذكركم.

تأمَّله الشيخ بعُمق شديد تسلَّلت منه قشعريرة حادَّة أصابت بدرًا وأربكت حضوره. كان الشيخ يتمتم بخفوت إلى أن قال بحزم:

ـ بل أنا من انجذب إليك.

اضطرب بدر من حديثه العجيب، فأطرق رأسه هاربًا من هيئة ـ ونظرات ـ الشيخ الذي قال:

ـ لقد منحك الله من لدُنه نورًا وسرًّا، فلماذا تهاب نورَك وتفرُّ منه؟ اذهبْ إليه ولا تَخفْ.

أوشك بدر على الانهيار وَجَلًا وخوفًا، ثم قال متسائلًا بتعجُّب:

ـ إلى من أذهب يا سيِّدي؟ ومن أين تعرفني لتقول هذا الكلام؟

شعر بدر بأنَّ الشيخ يحيط به بأنفاسه من كلّ جانب وركن في المغارة. زال ذعره وسكن قلبه بسلام مفاجئ، إلى أن سمع صوت الكهل يقول له بحزم:

ـ أنا من يتلمَّس نورك. فلماذا تخالف إشارات النور المنبعثة من فؤادك الذي يا ليته فؤادي. مُبارك أنت، فلا ترتدَّ عن أصلك، واذهبْ.

ـ إلى أين، أيُّها الشيخ الجليل؟

اشتدّ الصوت رهبة وحزمًا:

ـ يلمع غيب في جبينك، ألا تراه؟ مقامك هنا زائل، وأواصرك هنا باطلة. دنياك ليست في القاهرة. واعلم بأنَّك ستحظى بالكشف والسيف والغيب. فمن تطلَّع كتم ومن أُطلع كفر.

انتفض بدر. كان معروقَ الجبين مغمَضَ العينين، ثم استدرك الشيخ قائلًا:

ـ لا تفتح عينيك فلن تراني، وعُد من حيث أتيت، وامضِ، فقد استعدت نورك. إن حجبته فسيُنير، وإن هربت منه فسيهرب منك إليك، فلا تجزع من غروبٍ ما بعده إلَّا شروق. النور يشرق منك أيُّها المبارَك بنور الله.

عاد إلى غرفته الخشبيَّة مُمتلئًا بإحساسٍ جديد، مُزدانًا بالسكينة والسلام، كأنَّه كان في جنَّة الله، على مشارف سِدرة المُنتهى. أحسّ برهبة نوره أكثرَ من أيِّ وقت مضى. لم يسأل الشيخ الذي تجلّى من أعماق المغارة عن مصيره وأحواله القادمة، كما لو أنَّه يعرفه منذ

سنين، كما لم يَخُضْ معه في غيب ما قاله وغموضه، كأنَّه يتنبَّأ له بمصيره القادم، إذ ائتلف معه وهدأت خواطره وزالت هواجسه على يد الشيخ وصوته العميق الحنون. احتفى بدر بنوره وشعر بأنَّه سيِّد الدنيا على وشك الكشف وإزالة حُجُب الغيب. نعم، سيُسِرّ إلى طورة ما جرى له هناك من إشارات وأمارات على لسان شيخ مدّه بحروف من همسات هواتفه الغريبة؛ هواتف بدر التي كانت تداهمه في لياليه الطويلة، إذ قال له الشيخ: يلمع الغيب في جبينك. وأيُّ غيب، يا شيخي، أيُّ غيب؟

ثم نام. نام بدر الدين كما لم يَنَمْ من قبل، وحلم بظلال تُخيِّم على بلده البعيد. رأى طيفًا مُتهالكًا يشي بأمّه. رأى وجه أبيه ناصعًا، ثم حلم بالأرض والسماء معًا. وبعد كلِّ هذا النور الذي سرى فيه، حلم بمكنونة. حلَّقا معًا في سماء الحلم، وأيّ حلم!

* * *

في صبيحة أحد أيَّام ذي القعدة من سنة 800 هـ. الموافقة لأوائل آب من سنة 1398 م، استيقظت القاهرة على أصداء فشل مؤامرة رهيبة كانت على وشك الإطاحة بعرش السلطان الظاهر برقوق، الذي قضى عليها معلِّقًا رؤوسَ أصحابها على باب زويلة؛ إذ تداولت الألسنة أقاويلَ تشي بأنَّ علي باي الخازندار، الذي اشتراه السلطان برقوق طفلًا من سوق النخاسة بمئة وعشرين دينارًا، وربَّاه وعلَّمه الفروسيَّة، وخصَّه بحظوة وسطوة وإقطاع، قد دبّر المؤامرة جاحدًا فضلَ السلطان عليه، قاصدًا قتلَه غيلةً للتربُّع على عرشه، فذهب الله به وبتدبيره الشنيع، وكشف حيلته ومسعاه الدنيء الذي قام به بدافع الانتقام والصراع الخفيّ بينه وبين أمير حرس السلطان. فقد قال الناس إنَّ مملوكًا تابعًا لعلي باي قام بالاعتداء على جارية محظيَّة مملوكة لأمير

الحرس السلطانيّ أقباي طرنطاي في عقر المجلس، فقام الأمير بالتنكيل بمملوك علي باي، وحمل جاريته على جَلده على مرأى المجلس ممعنًا في إذلاله. وعندما قام علي باي برفع الأمر إلى السلطان شاكيًا إليه ما عاناه مملوكه من إهانة وتنكيل على أيدي أقباي ومحظيَّته، لم يُسعفه السلطان بالاقتصاص له من أمير حرسه وجاريته، ما دعا علي باي، مدفوعًا بعزَّته الآثمة وسطوته الجاهلة، إلى القيام بإثمه العظيم الذي أودى إلى موته خنقًا على يد السلطان.

وبعد انتهاء مؤامرة أقرب الأمراء، الأمير الذي كان كولد من أولاد السلاطين، وتعليقِ رأسه المُدمَّى على باب زويلة، أمر السلطان أمير حرسه بجلب جاريته إلى مجلسه الخاصّ كي يشهد سحر امرأة بسببها عُلِّقت الرؤوس.

وفي المساء، عندما كان المجلس متألِّقًا بأنوار السلطان، ومزدانًا بعبق عطوره، جلب الأمير أقباي جاريته إلى وليِّ أمره السلطان الظاهر أبي سعيد برقوق بن آنص، الذي كان فيما مضى مملوكًا شركسيًّا للأمير المملوك يلبغا اليحياوي الذي اشتراه من نخّاس خوارزميّ بثمانين دينارًا وربّاه وعلَّمه الفروسيَّة والسطوة المملوكيَّة، حتى أصبح سلطانًا متربِّعًا بدلال على عرشه.

كان يرفلُ في زينته وطِيبه، يستر لحمَه السلطانيَّ بعباءة حريريَّة حمراء موشّاة بخيوط ذهبيَّة، ممتلئ البنية بوسامة مغتصبة من عمره المشرف على الستِّين. شعره أسود فاحم، يتوسّل الشباب بطوله ونعومته وانسداله على كتفيه؛ أبيض الملامح، تُزيِّن وجهَه لحيةٌ سوداء خفيفة، تزيده وسامة زرقةُ عينيه المحدِّقتين بقسوة في هيئة الجارية الواقفة إلى جانب أميرها بخفر وحياء، تضمُّ عودها بذراعيها النحيلتين إلى صدرها المستور بثوب حريريّ أسود مزركش يُفصح عن مفاتنها

بإخلاص. ما إن انحنى الأمير أقباي ملقيًا تحيَّته على السلطان، مستودعًا لديه جاريتَه، حتى قال برقوق بصوته الحازم الآمر:

ـ ابقَ هنا.

فلم يتوانَ الأمير لحظة عن تنفيذ الأمر جامدًا في مكانه. رمق السلطان الجارية من عليائه وسموِّ عرشه، ثم قال بعظمة سلطانيَّة:

ـ اقتربي يا جارية.

فدنت منه بخطوات بطيئة، ثم انحنت وقبَّلت الأرض بين قدميه، وظلَّت كذلك حتى أمرها بالوقوف والدنوّ منه أكثر، فانصاعت. تملّى في حُسن وجهها بعمق، ثم قال:

ـ آمل أن يكون طربك كجمالك كما يدَّعي أقباي.

فأجابت بخفر وخفوت:

ـ السلطان لا يأمل، بل يأمر فيُطاع.

قهقه السلطان راضيًا سعيدًا، ثم قال لها:

ـ وفصيحة اللسان أيضًا. ما اسمك يا جارية؟

ـ أَمَتُك مكنونةُ يا مولاي.

ـ أفصحي عن طربك يا مكنونة.

ما إن شرعت في العزف على عودها حتى سحبها السلطان برفق وأجلسها أسفله على عتبة عرشه عند قدميه، مديرة ظهرَها له كما أراد. فزعت هي من تصرُّفه العجيب هذا، فأمرها مداعبًا وهو يمسِّد كتفيها جالسًا في علياء عرشه:

ـ لا تفزعي. ألا تأمنين في حجر السلطان.

التفتت نحوه مبتسمةً بإثارة، ثم شرعت في الغناء في الوقت الذي

انشغل فيه هو من ورائها بنزع طرف ثوبها عن صدرها ليمسّ بأصابعه نهديها الغضَّين. أمعن في أمر يديه المتواترتين على جيدها وصدرها وهي تغنّي محدِّقة باستغراب في أقباي الذي يقابلها من أقصى العرش يراقب مضطربًا حائرًا في أمر سلطانه الغريب وحاله العجيبة مع الجارية.

اضطرب غناؤها بنشاز الشهوة، وطغى عليه التهاؤها واهتياجها بسبب ما يثيره سلطان النِّعَم في مفاتن جسدها. وما إن تمكَّن منها حتى ندَّت منها صرخة لذَّة مروِّعة، معلنة نهايةَ الغناء، ملقيةً عودَها إلى جانبها. سعت للالتفات نحوه وهي تنزع عنها ما تبقَّى من ثوبها، فمنعها عن ذلك، مثبِّتًا جلستها ووجهتها نحو أميرها أقباي. احتارت مكنونة في أمرها وإثارتها. احترقت بكفَّيه اللتين تتناوبان على عنقها ووجهها وفمها ونهديها، وسط صمت ثقيل تخلَّلته تأوُّهاتها من دون أدنى همسة منه. وعندما شارفت على بلوغ الذروة، داهمها بوثاق حريريّ أبيض لفّه حول عنقها النحيل، ثم خنق صرخَتها بعنف، فارتجفت، ثم التصق بها من الخلف كاتمًا أنينها، فاختلجت، ثم سكنت، وانطفأ بريق الشهوة في عينيها، محدِّقة في أميرها بتوسُّل لن تلفظه أبدًا من فمها، ثم شدّ برقوق الوثاق بقسوة أكثر، فهمدت وسَرَتْ زُرقة الموت في وجهها، حتى صرخ وهو يلهث دافعًا جثّتها بقدميه بوحشيَّة عن عتبة عرشه:

ـ أقباي، ها أنا قد خنقت فتنتك التي بسببها خنقت أقرب الأمراء إليّ. هيّا تعالَ أيُّها الوغد وخذ غانيتك ورجسها عن عرشي، لأنَّني سأصحو غدًا لأرى من منظرتي رأسَها معلَّقًا إلى جانب رأس الخازندار على باب زويلة، هيّا.

* * *

استيقظ مفزوعًا على صرخة رهيبة ندَّت من أعماقه وكادت تهدم عليه غرفته المتهالكة. نهض من فراشه على عَجَل لا يلوي على شيء مسكونًا بهواجسَ، لا بل بيقين حادٍّ أدمى فؤاده. لقد رآها. لقد شعر بأنفاسها الثقيلة وهي تُكتَم. سمع صرختها؛ صرختها الأخيرة. يقوم يذرع غرفته جيئة وذهابًا. يتخبَّط في ركنه البائس. يكاد قلبه بوجيبه الشديد يمزِّق صدره، في إثر كابوس مرعب صرعه بظلامه بعد أن مسَّه النور في مغارة الجبل المُقطَّم؛ قلبه الذى دوهم بعد كلّ هذا السلام والرضا بإحساس يقضي بوقوع شرّ يُصيب قلب مكنونة، ليهرع، يملأه الهلع، إلى صديقه طورة. يهرول على عجل بين حلم وواقع، بل كان يفرّ من وجه إحساس لا يخيب، وحدسٍ لم يخذله يومًا.

تسلَّل إلى حجرة طورة بخفَّة وهدوء بعيدًا عن أعين لم تشرع يقظتها بعد لاستقبال الصباح. كان لا يزال غارقًا في نومه وفراشه عندما هزَّه بدر بتوتُّر شديد:

ـ طورة، استيقظْ يا طورة.

فزع طورة مرتجفًا في فراشه:

ـ ويحك، ما الذي جاء بك صباحًا؟

بهياج وحيرة أفضى إليه بدر بكابوسه وهواجسه، فاحتدَّ طورة قائلًا:

ـ واللهِ، إنَّك ممسوس. هل تصدِّق كابوسًا دفعك إليَّ هذا الصبح كالمخبول؟

ـ بل دفعني يقيني.

ثم ناشده بدر، متوسِّلًا إليه أن يذهب إلى القلعة لتقصِّي أخبار مكنونة.

فأجابه طورة حائرًا:

ـ وكيف أفعل هذا؟

ـ لن تفوتك الحيلة، فأنت تذهب إلى هناك كثيرًا برفقة المعلِّم، ولا بدَّ من أنَّك تعرَّفت إلى بعض المماليك والأمراء بطريقة أو بأخرى. ستجلب لي الخبر اليقين.

انصاع طورة لرغبة بدر متأفِّفًا. أعدَّ نفسه مرتديًا أبهى ثيابه، ومضى يرافقه بدر حتى أبواب القلعة. وفي الطريق إلى هناك استرعى انتباهَهما حشدٌ من الناس يهرعون نحو جهة بعينها؛ نحو باب زويلة، وسمعا همهمة تقول بأنَّ ثمَّة رؤوسًا جديدة قد جُزَّت أعناقها وعُلِّقت فوق الباب في إثر مؤامرة علي باي. جمد بدر في مكانه، الأمر الذي أثار سخط طورة:

ـ ما بك؟ هل ستظلُّ واجمًا هكذا في زحمة السوق وهرج الناس؟ هيَّا.

رمق بدر صديقه بقسوة، ثم قال له آمرًا:

ـ فلنذهبْ أوَّلًا إلى حيث يذهب الناس.

ـ إلى أين؟

ـ إلى جهنَّم.

اشتدَّت زحمة الناس بحشود وافدة إلى ناحية باب زويلة برؤوس مشرئبَّة إلى الأعلى لتحدِّق في عقاب السلطان الرهيب ودلالته المفترسة كلَّ من يجرؤ على مجرَّد التفكير في التآمر عليه. نكَّس بدر رأسه في الأرض، رافضًا النظر ناحية الباب وسوره العلويّ. هزَّه طورة سائلًا:

ـ ما بك؟ ارفع رأسك وانظر إلى مصير الذين يلهثون وراء شهوة السلطان.

أحاط بدر وجهه بكفَّيه، وتمتم بعبارات لم يفهمها طورة، ثم رفع رأسه، ورأى ما رآه من رؤوس مدمَّاة متعفِّنة برزت جماجمها. دقّق فيها، وجال بنظره ناحية الرؤوس التي عُلِّقت حديثًا. وقع نظره على رأس محدَّد. لقد رآه؛ رأى رأسًا ما زالت صرخته الأخيرة المكتومة معلَّقة في الوجه المُزرقّ؛ وجه امرأة فاتنة بعينين خضراوين ونمش خفيف وشعر أحمر مجعَّد طويل. بهت صحبه، ثم صرخ قائلًا بلوعة:

«رأيت الدهرَ يجرحُ ثم يأسو   يعوّض أو يسلّي أو يُنَسّي

أَبَتْ نفسي الهلوعَ لفَقْدِ شيء   كفى حزنًا لنفسي فَقْدُ نفسي»(1).

ردَّد الأبيات وهو يلهث ويشهق. لم يبكِ بدر الدين، بل مال على طورة، ثم تهالك مُغمًى عليه.

* * *

وبدر الدين يهجر نوره، خسفته شمسٌ من جحيم وعذاب.

اختفى هكذا فجأة عن ظهر الدنيا. انصهر مبتعدًا عن الدنيا الظاهرة الظالمة إلى دنيا أخرى، ممسوسًا بجنون الفقدان.

سكن في رأس مكنونة المعلّق على بأس السلطان، ليتقيَّأ كلَّ علمه وأدبه بإرادته في لحظة، مُعْرِضًا عن الحياة، تائهًا في دهاليز الموت والغياب. هجر نفسه وكيانه، مستعيرًا من عهر الزمان نَفْسًا أخرى؛ نَفْسًا صاحبها تشظَّى في التهتُّك والتفسُّخ والاهتراء والتشرُّد في البعد عن صديقه طورة، وماضيه وزمانه البائدين.

أراد أن يطيح بنفسه عن نفسه وتعاليمه ورُؤاه، حاقدًا على نوره وإشاراته ومِزَق هالته؛ إذ ما الجدوى من كلّ هذا؟ ما جدوى حياة

---

(1) من شعر علي بن عبَّاس الروميّ.

عجز فيها عن انتزاع مكنونة من حياة زيفُها حرامٌ؟ ظلَّ عاجزًا عن إنزال رأسها عن نقمة السلطان ومواراتها الثرى؛ عاجزًا عن الانتقام والصراخ والاحتجاج. فهل كان مصرعُ مكنونة دافعَه إلى التحلُّل من عهد نوره وعلمه لينصهر في عالم لا يمتّ إليه بأيِّ صلة؟

عالم مزدحم بالخطايا وأوكار الدناءة والرذيلة والانحطاط، ولج منه بدر إلى دنيا قصيَّة سُفلى لعينة لا تنتمي إلى قاهرة روحه؛ إذ تاه في بيوت المغاني، مندفعًا بقضائه على غصَّة كبحت جماح شهوته ونوازعه.

هوى إلى قعر عوالم غريبة عنه، منصاعًا إلى كلّ ما كان يجتنبه وينبذه، حيث انجذب بطاقة مجون جامحة انبعثت من أعماق نفسه لتنكر عليه ماضيه الذي كان فيه عالِمًا ومعلِّمًا مشرقًا بنور نقائه وطهره. بالغ في إذلال نفسه حتى بات عبدًا لشهواته، يحرق الضياع قلبه. كان يتهتّك في بيوت المغاني بحقد لا يوصف، يجامعهنَّ، يقسو عليهنَّ، يجلدهنَّ، يدميهنَّ بشهوة مستعرة ناقمة، موغلًا في الانحلال أكثرَ فأكثر، حين كان يشارك في ليالي الإفاضة داخل الجيوب المستترة عن وضح القاهرة؛ تلك الليالي التي يجنّ فيها الليل، وتعبَّأ الكؤوس، وتُطفَأ الأنوار والسُّرُج، وتدخل الرؤوس في الرؤوس، وتلتحم الأجساد في الأجساد.

كان مبهورًا بطاقته تلك التي يخوض بها كلَّ خطيئة بمتعة شيطانيَّة أهلكت قلبه؛ قلبه الذي أتقن العشق ذات يوم، ورقّص مكنونةَ على إيقاعه ذات فجر؛ قلبه الذي مسّه نور لم يمسس سواه، ها هو يتمزّق بين أفخاذ الدنيا السافلة.

اندفع بدر. نُكّل به. ذُلَّ وتبعثر وتحلَّل، وتبدَّد ومات حيًّا، وعاش ميّتًا في أمكنة ومستنقعات لم يَغُصْ فيها يومًا. كان يُقْبِل بلهفة

عارمة وإخلاص منقطع النظير نحو كلِّ ما يؤذيه ويؤذي ذكرى أيَّامه. نزف دمه الذي كان يصرخ بالحبِّ ويسطع بأنواره، مالئًا شرايينَه بدم فاسد دنيء، كاتمًا الهمساتِ الأولى والهواتفَ التي كانت تنتابه بأنوار غيب قادم لم يعد يُصغي إليه.

هل كان على يقين بأنَّ ثمَّة يدًا قد تجلبه إلى أصله بعد كلِّ هذا الغياب في غياهب الجنون؛ يدًا حانية من شغف ونور وطهر تجذبه من سَوْء الشرّ والرجس والظلام.

كان يلتفت نحو توطئته المكلَّلة بالعلم والنور من دون أن يؤوب إليها، كأنَّه كان يهتف قائلًا بأسًى: ليس الآن، إذ أتبدَّد في صقيع البُهتان وأفنى في آلام المعصية.

أتقن بدر كلَّ الشر. تشرَّد؛ صرخ؛ بُحَّ صوتُه؛ هام في البلاد وأصقاعها الأربعة، متشرِّدًا فيها بين معابدَ عتيقة مستترة بالرمال، وأديرةٍ ومساجدَ وزوايا وأماكن قصيَّة. شوهد في كلِّ ركن، وحار الناس فيمَن رأوه ولمحوه؛ في أمر بكائه وسخطه وجنونه: أهو درويش، أم ممسوس، أم شيطان على هيئة بشر؟

بآيات الفتنة كان يرتاد الطرق الخفيّة، وينتاب مَن فيها بغوايات الشهوة التي اندلعت من أعماقه لتحرقه ومَن حوله؛ ليغدو قلبًا للمخطئين ومكانًا للآثام والشرور في الدنيا. وبمقدار ما كان منبهرًا بنوره، اتَّحد بظلامه، وسكن حيث الكهنةُ القدامى، وتعلّم من السَّحَرة، وانتهك كلَّ التعاليم العتيقة. هذا جُلُّ ما كنتَ تطمح إليه يا بدر. هذا كلُّ عالمك الأسود، ها هو مشرَّع أمامك مكشوف مفضوح، فهل ستُقيم به إلى الأبد؟

تمرُّ عليه اللحظات. تتدحرج فيها الأيَّام وتنقلب أسابيعَ، ثم تغدو

شهورًا تزحف على جسده المرهَق. نعم، لقد اندثر البدر في الظلام، وراح في عواء دمه يتمزَّق في بلاد مزدحمة بالشعوذة وزوايا السحر وتقديس مَن لا يستحقّ، متأرجحًا بين شعوذة ودروشة، منقادًا إلى قهقهات شيطانيَّة قذفته نحو أعماقها المخيفة، وهو يضحك مستمتعًا بمجون وعبث على وشك النسيان والانتهاء من أثر مكنونة وعبقها وفتنتها، منفقًا ماضيَها كلَّه على حاضر كان يصرخ به قائلًا: «أنا ابن وقتي، وأنا سيِّده».

مضى متخبِّطًا، خليعًا، سكِّيرًا، مقترفًا آثامَه، عبدًا لها وسيِّدًا في آنٍ، منجذبًا إلى سحر الغوايات والشهوات، حتى إنَّه انقادَ مرَّة أخرى إلى الكتب والمجلَّدات، ولكن هذه المرّة ليغوص في الكتب المُحرَّمة، إذ كان يتسلّل في عتم الليل إلى كتبخانة المدرسة الظاهريَّة، مُبْتَدِئًا علمه وهواه، ليمسّ تلك الكتب التي كان معلِّمه قد حذَّره من الاطِّلاع عليها وقراءتها، وهو المنقاد إلى نقائضه ولعناته. ولج إلى عالم السحر والطلسمات وعلوم التنجيم والفلك، وأدرك علم أسرار الحروف، واقعًا على مخطوطات الساحر الأكبر جابر بن حيَّان، وكتاب «الفلَّاحة النبطيَّة» لابن وحشيَّة، و«غاية الحكيم» لمسلمة بن أحمد المجريطي، و«مصاحف الكواكب السبعة»، مجرِّبًا سحرَه في طقوس خفيَّة على نفسه، وعلى مَن صحبه من خليعين وعاهرات.

فما الذي دعاه إلى كلِّ تلك العُلوم السوداء؟

يؤجِّل بدر أسئلته، فالوقت ليس للنور. الآن هو وقت الظلام، فإلى لجَّة الغيب الجحيميّ يا بدر.

لتبلغ أقصى حضيضك، لتسكن العوالم السبعة الخفيَّة المختفية في أعمق أعماق الأرض. فهل فسد وجدانه، وتلف قلبه، واختلّ عقله،

في الوقت الذي لم يتبقَّ فيه عهد فسق وكفر ومجون إلّا وأخذه على نفسه الهالكة؟

* * *

هل أصبح بدر سواه؟

ذات مساء صيفيّ، وغداة ما يُقارب عامًا بأكمله من الضياع والتيه في معمعان الفساد وتوغُّله في سواد الدنيا الأعظم، كان بدر منزويًا في زقاق مهجور من أزقَّة الأحياء الواقعة شماليّ القاهرة، ومنهمكًا في مضاجعة غانية، كأنَّه يخوض في أمر رتيب لا بدَّ منه من دون أدنى رغبة أو لذَّة، وهي بدورها، بملامحها القبيحة وجسدها المترهّل، كانت ترجوه الرأفةَ بها حتى وإن كانت غانية. كانت أسفله من دون أن يحدّق فيها، إذ كان ساهمًا في جدار الزقاق. وما إن شارف على بلوغ الذروة، حتى لمح طيفًا مرّ مسرعًا من آخر الزقاق. كان شعاعًا من نور فضَّ عتمة القاهرة، فانتابته قشعريرة حادَّة، أطاحته عن جسد الغانية باشمئزاز، ثمَّ لملم نفسه لاهثًا. رمقها بنظرات خاوية كأنَّه لم يكن يجامعها منذ لحظة، وألقى قرشين في حجرها وصرفها. جلس متَّكئًا على الجدار ضامًّا ركبتيه إلى صدره، وغاص في بكاء مرير جارف. لقد آب بدر الدين إلى نفسه ونوره وبكى كأنَّه لم يبكِ من قبل. بكى غاسلًا آثامَه وكلَّ عَلَق أسود امتصَّ قلبه. ناح منخرطًا في نشيج جارح، ثم رفع رأسه متأمّلًا صفاءَ السماء المتلألئة بنجوم رَصَّعت ليلًا جلَّل القاهرة بنسائمه العليلة، ثم انتفض ونهض من رقاد خطيئة زائلة مندفعًا نحو ضفَّة النيل الشرقيَّة حيث اغتسل وتوضَّأ، ومضى على عَجَل بأنفاس لاهثة وهو يرتجف صاعدًا الجبلَ المقطَّم بعد صلاة العشاء. تسلَّقه بالغًا أعلى قمَّة فيه، ولم يكن فيها سواه.

على وشك ملامسة السماء وألق نجومها، نزع عنه ثيابه المهلهلة

وجُبَّته المهترئة، وسطع بعُريه الطاهر، ثم أخذ يرقص مستديرًا حول نفسه فاردًا ذراعيه كجناحين، هاذيًا بكلمات غريبة، ثم علت همهمته وصرخ متوسِّلًا باكيًا وهو يحدِّق في السماء:

ـ يا غيَّاث المستغيثين أَغِثْني. يا غيَّاث المستغيثين أَغِثْني.

ظلَّ يدعو وهو يرقص ويدور حول نفسه بوتيرة متسارعة إلى أن انتفض بشدَّة عندما أحسَّ بنور يخترقه ويُنير قلبه. تهالك على الأرض لاهثًا مرتجفًا، ثم هتف قائلًا:

«وأنا من قبل قبل وجودي كنت غوثًا في نطفة الآباء،
أنا سلطان كلِّ قطب كبير وطبولي تدقّ فوق السماء»[1].

لقد استعاد بدر الدين نوره.

* * *

في اليوم التالي، عندما أشرقت صبيحة يوم الجمعة، الخامس عشر من شهر شوال من سنة 801 هـ، الموافق للعشرين من حزيران من سنة 1399 م، كان بدر الدين المنبعثُ من نقائه ونوره المستَرَدَّين، في طريقه إلى صديقه طورة، ليزفّ إليه نبأ توبته إلى الصواب وما ناله من كشف وانجذاب فوق الجبل المقطَّم. كان قد أزال عنه رجس أيَّامه الماضية والفاسدة. كان قلبه صافيًا. وعلى الرَّغم من هيئته المُزرية وجبَّته الممزَّقة وشعره الأشعث ونحوله حدَّ المرض، فإنَّه كان ممتلئًا بعافية نور وسلام نفسيٍّ مُبين، أعادا إليه نبض قلبه الذي لفظ ذكرياته المريرة.

في الطريق إلى طورة، لاحظ خلوّ الطرقات من العامَّة، وسكونًا

---

(1) السيِّد أحمد البدوي؛ من أقطاب الصوفيَّة في مصر.

مُريبًا يلفّ القاهرة مَشوبًا بأصوات هتافات ونداءات ما إن تناهت إلى مسمعه حتى أدرك عجب هذا الصباح. حين بلغ ناحية الجامع الأزهر، أصغى إلى نداءات المؤذِّنين على مناراته يُعْلمون الناس بوفاة السلطان الأعظم الظاهر برقوق، عن عمر ناهز الستِّين عامًا، أمضاها في خدمة الإسلام والمسلمين وإعلاء كلمة الحقّ والدين والذود عن المسلمين، موصيًا بعهده وسلطانه لابنه ووليّه السلطان الناصر زين الدين أبي السعادات فرج. فعلى السلطان الرحمة، وعلى المسلمين الطاعة وإشهار الولاء للسلطان الناصر.

حين وقع عليه النبأُ تهلَّلت أساريره وابتهجت مشاعره وأحاسيسه، فأيُّ مصير ينتظر الأمَّة والبلاد على يد أمير أحمق صغير لم يعرفه أحد كما يعرفه بدر، فهو معلِّمه الذي سئم من تعليمه، وفرَّ من غواية أمّه.

عبرت مكنونةُ في خاطره وهو يصغي إلى نداءات النعي، ولكنّه ما لبث أن فرّ من صورتها، حاثًّا الخطى نحو صديقه طورة.

كان خبر وفاة السلطان قد شاع في أنحاء القاهرة كافَّة، كما في المدرسة الظاهريَّة التي تسلَّل إليها بدرُ مخفيًا ملامحه، هارعًا نحو حُجرة صديقه، مبتعدًا عن جمهرة المعلِّمين والتلاميذ الذين كانوا يتجهَّزون من أجل الالتحاق بجنازة السلطان المهيبة.

كان طورة يعدُّ نفسه في حجرته عندما باغته بدر بعد أكثر من عشرة شهور أمضاها بعيدًا عنه، فدفن طورة صرخة فرحه بلقاء صديقه بعناق حارّ، ثم هبَّ مذهولًا من هيئة بدر المزرية:

ـ هل أنت بدر الدين حقًّا؟ ويحك، أين كنت، وما الذي فعلته بنفسك؟

هبَّ بدر بعواصف كلامه المُحمَّل بغيوم سوداء حجبت سماء

شهوره الماضية. كان طورة مذهولًا بحديثه، غافلًا عن مغادرة المعلِّمين والتلاميذ ليلتحقوا بجنازة السلطان، إلى أن ختم بدر حديثه بما ألمّ به بالأمس على الجبل المُقطَّم، فدنا منه طورة وقبَّل رأسه، ثم قال بغبطة وسرور:

ـ إنَّك مبارَك من ربّك، يا بدر. واللهِ ما ضللتَ إلَّا لتُهدى، وما فقدتَ إلَّا لتُعطى. وما مجيئُك إلى هنا اليوم إلَّا إشارة وزيارة سارّة. فإنَّني، واللهِ، ما نلت حظوة في هذه المدرسة إلَّا وتمنَّيتك معي، وها أنت تحلّ عليَّ بعد كلِّ هذا الغياب في الوقت الذي أعدّ فيه نفسي للرحيل، وكنت أتمنَّى في سابق الأيَّام وجودك معي.

سأله بدر باستغراب:

ـ إلى أين سترحل، يا طورة؟

ـ لقد كلَّفني المعلِّم الإرشادَ على المذهب الحنفيّ في مدرسة في شرق الدنيا، تحديدًا في تبريز. هل سمعت بتبريز يومًا، يا بدر؟

ألقى طورة عليه سؤاله هذا بهدوء وسرور مطلَقين، لا يستدعيان ما أصاب بدرًا من رجفة وغيبة، تنازعته بهما تلك الهواتفُ الماضية التي تجلَّت وتحقَّقت أخيرًا على لسان طورة.

فقام وعانق صاحبه بحرارة هاتفًا بحماسة:

ـ ستكون شيخَ يميني يا طورة. ستكون شيخ يميني.

* * *

القسم الثاني:

مَدارك الغيب والأماني

«أنت هلاكي في ديني ودنياي،
وأنت كفري وإيماني ومناي
وغاية رغبتي وأنت أنا»[1]

---

(1) حكيم صوفي عتيق.

الفصل السادس:
قطب النور ورأس العارفين

رماديَّة الدنيا

رماديَّة قاتمة خانقة، يطلُّ عليها من أعلى غصنٍ في شجرة عجيبة، لا لون لها ولا رائحة، كان قد تسلَّقها فجرًا. يحدِّق في البعيد، فيلمح نيرانًا، وأممًا مشتعلة، وأزهارًا ذاوية، وسماءً تتمزَّق متهاوية فوق الأفق الممتدّ أمامه. تتناهى إلى مسمعيه أصواتُ عويل ونُواح وقهقهات وتأوُّهات وآلام وتصفيق وغناء. تختلط الأصوات ثمَّ تتَّحد، ثم تباغته مخترقة فؤادَه وتطيحه عن الشجرة. يهوي ولا يشعر بألم السقطة، إذ يتربَّع على عرشٍ من حروفٍ منيرة، يحدُّه من جانبيه سَيْفان من نور، ثم يتلفَّت حوله بريب وذعر. يوشك على البوح. يبوح، لكنَّه لا يسمع صوته. يعجز، يختنق، لا هواء يُنعش نطقه. يغرق في عرشه. يحدِّق من جديد في الأفق. ارتفعت السماء من جديد، ولكن هذه المرَّة على

أعمدة من دخانٍ ودماء. ثم يلتفت إلى الوراء بخوف بعد أن شعر بأنَّ ثمَّة من يلكزه بنعومة.

يراها منتصبةً بشموخ عريها تقبض على رأسه بيد، وبالأخرى على عودها، تقهقه بجنون. ينهض عن عرشه هلعًا. يتحسَّس رأسه في الفراغ فلا يجده بين كتفيه. يصرخ صرخة مُريعة فتلقي هي برأسه من يدها مرتجفة ليتدحرج الرأس. يلحق بها ولا يلحق، إذ تتشبَّث به هي. تُحيط به. تنتابه بهمسات مثيرة متوحِّشة. يسعى للإنفلات منها. يعجز، ورأسه يتدحرج، ويهوي في أعماق ما تبقَّى من سماء وقعت على الحرائق البعيدة. يتعثَّر هو. يقع أسفل عرش حروفه. يرمق المرأة بعينيه الواسعتين الحائرتين. تدنو منه، تجلس في حجره، بلا رأسها ووجهها الساحر. هذه المرَّة تحمل مرآة في يدها. يجزع ويرتجف، ويشيح بنظره عنها، ويحاول إزاحتها وهي متشبِّثة بتلابيبه. يُصغي إلى صوت جميل كان قد ألفه فيما مضى. يستكين بالطرب، ثم تقرِّب المرآةَ من وجهه. يحدِّق في المرآة فيراها. يرى وجه امرأة فاتنة تغنِّي متمتمة كلماتٍ غريبةً وهي ملتحمة بين كتفيه. يهذي. يتمتم بجزع. ينوح. ينزعها عنه بعنف، ثم يهرع إلى سيفَيْ نوره. يمتشقهما. يشهرهما كجناحين، ثم يُغمدهما في خاصرتيه بقوَّة، لتصرخ هي صرخة رضا وانتشاء، وهي تُعيد وضع رأسها إلى ما بين كتفيها.

* * *

وقال الناس يا بدر الدين، أيُّها المنجذب إلى شرق الدنيا، إنَّ دمشق احترقت ونابَها العويلُ وهُتِكت بدمارٍ رهيب، وسُفِكت بسيوف الجيوش الآتية من الشرق بعد أن انسحب جيش السلطان المملوك الصغير الناصر أبي السعدات فرج، متخلِّيًا عن نجدتها إلى عرشه، ملهوفًا، في إثر ما ورده من أنباء انقضاض مماليكه على عرشه القاهريّ

وقلعته؛ تلك القلعة، يا بدر، التي كنت تدخلها أنت كلَّ صباح كي تلقِّنه أُسس العلم والكلام. تلميذك الأمير الأحمق، ابنُ الممسوسة بشبقٍ شيطانيّ، تخلَّى عن دمشق ورياحينها وياسمينها وبساتينها وغوطتها. لقد وهبها في أوَّل معركة حقيقيَّة له، فلم يخضها كسلطان شجاع يستهلّ حكمه بانتصار مَهيب. وهبها للسيوف الشرقيَّة، منسحبًا ملهوفًا ليوطِّد دعائم حكمه؛ ليتخبَّط أهل دمشق؛ لتضيق بهم الميادينُ والبيوت بما رَحُبت. وحين دقَّت ساعة الحشر معلنةً مجيءَ الطغاة، كان أهل دمشق مكتظِّين مخنوقين يتقافزون، بعضهم فوق بعض، بعد أن أحرقت النارُ الشرقيَّة الشام بأكملها، وأبادت حلبَ وحماة وحمص، فلم تصمد سوى دمشق وقلعتها وسورِها المنيع وإصرارِ أهلها، وما تبقَّى من حميَّة المحاربين على مقاومة الغازي المخيف، تيمورلنك الذي أغاظه فِرارُ فرج وجيشه وحاشيته متخلِّيًا عن جنَّة لا يستحقّها. تخبَّط الناس وذُعروا متسائلين متفكِّرين في مصيرهم البائس، منهم من قبض على السيف وقال بصرخة المحارب الأخيرة: فلنجاهدْ، فإمَّا النصر وإمَّا الشهادة. ومنهم من قال: إنَّ المآل بائس، والرعيَّة في حاجة إلى سائس، والجيش عظيم، ولن تقوى دمشق على الصمود، بل سيؤول مصيرها إلى مصير حلب ومحرقة حلب. وعليه، فإنَّ من الواجب التسليمَ بقضاء الله وقَدَره، وعدمَ إلقاء دمشق وأهلها في التهلكة. فما العمل، يا سادة العقول والأفئدة؟ فلنجمعْ وفدًا صغيرًا، من القضاة والعلماء، ولْنَمْضِ به إلى سيِّد الجيوش؛ ذلك المشرف علينا من علٍ والموشك على الانقضاض علينا؛ ذلك الذي يسخر منَّا الآن، ويأسف لحالنا وجشع سلطاننا الذي انسحب من نجدتنا ليُنجد عرشه... فلنمضِ إليه متَّشحين برايات الاستسلام والصلح وسيقبل.

«الله أكبر»، هتف أكبر العلماء بثقة وحماسة: سيقبل تيمور

بالصلح. لقد استقبلت الآن رسوله الذي أعلن قبول سلطانه الصلحَ، ولكن بشروط.

وما هي هذه الشروط، أيُّها القاضي الجليل، والعالِم الفهيم؟

قال الرسول: إنَّ تيمورًا سيُملي علينا شروطه بنفسه عندما نمضي إلى معسكره. فهلمُّوا بنا، يا قوم، ننجد دمشق برأفة أنزلها الله على قلب تيمور.

وكان الخان الأعظم، فاتحُ الدنيا، سلطانُ السلاطين، تيمورلنك، ينتظرهم شامخًا في عظمة عرشه، وكانوا خمسةَ رجال متقدِّمين في علومهم وأعمارهم، يرأسهم قاضي القضاة تقي الدين الحنبلي، ويرافقه جهبذ الجهابذة وسيِّد علماء زمانه العلَّامة الفذُّ ابن خلدون. استقبلهم تيمور بحرارة بعثت فيهم السكينة والطمأنينة، قائلًا لهم: إنَّه أَعْتَقَ دمشقَ وأهلَها، معتبرًا اجتهادَهم هذا بمثابة زكاة للمسلمين ليدفع البلاء عنه وعن سلطانه وأولاده. وشروطه بسيطة، بل وضيعة، تتمثَّل في تطبيق عُرْفه الحربيِّ الذي يسري على كلِّ بلد يفتحه، بأن تقدِّم إليه دمشق، على عتبة عرشه من كلِّ صنف فيها من المأكولات، والمشروبات، والدَّوابّ، والملابس، والتحف: تسعًا. وهذه، يا بدر، تُسمَّى «الطقزات»، وأنت أعلم بهذه الكلمة التركيَّة، بالإضافة إلى شرط آخر أملاه الخان الأعظم، يقضي بأنَّ كلَّ ما تركه السلطان فرج في دمشق من أموال ومماليك ودوابّ، يؤول إلى تيمور بحقِّ الفتح وشرع الفتح.

استقبل الوفد شروط الخان بكلِّ سرور، الأمر الذي دعا ابن خلدون إلى إلقاء خطبة عظيمة مؤثِّرة مدح فيها تيمورًا، مشيدًا بفضل أفعاله وشرعه، فنال حظوة ومقامًا محمودين وعطاءً جزيلًا عنده. وما إن عاد الوفد إلى دمشق، حتى انتشرت في أنحائها شروطُ الصلح

وفضائل تيمور الذي رأف بحال الأمَّة الضعيفة. تنفَّس الناس الصعداء، متناسين ما أحدثه بهم فرج من حرج وحرائق ومذلَّة. انظرْ، يا بدر الدين. إنَّهم في الجامع الأمويّ يعقدون الصلح، ويسلِّمون رسل الخان الأعظم تيمورلنك الطقزات. بعض الناس سعداء، وبعضهم الآخر أغمدوا سيوفهم في صدورهم قهرًا وذلًّا.

دخل تيمور دمشق دخول الفاتحين، ونظَّم أمورها مُوَلِّيًا عليها أمير حربه شاهملك، مانحًا العطايا، مقسّمًا على أعضاء الوفد الذي فاوضه على الصلح المراتبَ، ومناصبَ القضاء، والحجابة، والدواوين، واستخراج الأموال، فتنهَّدت دمشق، يا بدر، مرتاحةً من عبء أيَّامها الماضية.

وما هي إلَّا أيَّام حتى ثارت ثائرة تيمور الذي أذلَّ من مدحوه وأثنوا عليه بقبوله الصلح، إذ قبض على قاضي القضاة وأعضاء وفد العلماء، وأهانهم وأذلَّهم وحبسهم، بعد أن وصلته رسائلُ من السلطان النبيه فرج، هدَّد فيها متوعِّدًا إيَّاه بإلحاق الهزيمة به والقضاء عليه بجيش عرمرم سيستردّ به بلاد الشام، ومتوعِّدًا بأنَّه لم ينسحب خوفًا منه، بل لأسباب قاهرة. جُنَّ جنون تيمور، معتقدًا أنَّ الوفد قد تآمر عليه بالطمأنينة وادّعاء المصالحة إلى حين قدوم جيش فرج. وقبل أن يحشد الخان الأعظم جيشه للرحيل عن دمشق عائدًا إلى عقر سلطانه، سمح لجيشه وتابعيه باستباحتها وانتهاكها، وإحراقها، واغتصابها، وسبيها، وقتل أهلها وتشريدهم، مدَّةَ ثلاثة أيَّام بلياليها، دكَّ فيها معالم عِلْمها وناسها وحضارتها على مرأى من الناس وربّ الناس، ثم انسحب انسحابَ المنتصرين، منتشيًا برائحة لحمها المحترق، مُرْضِيًا شهوتَه السلطانيَّة، فهو فاتح الدنيا، وأيّ دنيا تقف في وجهه؟

لقد افترعَ دمشق، يا بدرُ، بعد أن عقرها من قبله تلميذُك الأحمق

فزج، وها هو، يا بدر، انظرْ، ودقِّقِ النظر نحو تيمور العائدِ إلى عاصمته سمرقند، يصحبه الصنَّاع، والمهرة، والمهندسون، والمزخرفون، والفنَّانون، والعلماء، والمعلِّمون، لتزيّينها بزينة دمشق. فقم من نومك، وانهض من حلمك، واغتسلْ وتوضَّأْ، ثم صلِّ صلاة الغائب على دمشق.

* * *

ـ كيف تخلَّى عن أمَّة محشورة مذعورة داخل أسوار دمشق، التي استنجدت به، منسحبًا لتثبيت دعائم حكمه في القاهرة؟!

يسأل طورة بدرًا بحرارة، عمّا يجري، فيُجيبه بدر بلا مبالاة:

ـ هذا دَأْب السلاطين. فما بالك في طفل أحمَق، لا يمتلك من أمر حكمه شيئًا سوى الانصياع لرغبات حاشيته المملوكيَّة وأطماعها.

ـ لقد كنت محقًّا في أمرك، يا بدر، عندما اعتقدت بانقضاض تيمور على بلاد الشام، وليس على أراضي بايزيد.

ـ إنَّه المنطق يا طورة وليس أنا، بيد أنَّه ليس المنطق الذي أخذناه على أيدي العلماء والكتب، بل منطق السطوة لسيوف الجيوش، والمفهوميَّة الفذَّة لتيمور هذا.

ـ تتحدَّث عنه كأنَّك مفتون به على الرَّغم من كلّ ما ألحقه بالدنيا من دمار.

ـ إنَّه محارب رهيب، وخصم عنيد، يمتاز بحيلة ومهارة ندرتا عند غيره. يفكِّر في حرب، ويشنُّ أخرى مباغتة. فهل تتوقَّع من قاطع طريق أن يدرس فنون الحرب في زاوية جامع؟

ـ وهل كان قاطعَ طريق حقًّا؟

ـ هذا ما يقوله الرواة عنه، وهو ما لا ينكره تيمور، بل يفتخر به

وبلقبه. فهو تيمور الأعرج، الذي أُصيب بسهم في ساقه عندما كان في صِغَره على وشك الانقضاض على قطيع مشاة تابع لقبيلة أخرى مجاورة لقبيلته. وها هو الآن الخان الأعظم والسلطان الأكبر. أرأيت، يا طورة، كيف أنَّ التاريخ لمن يكتبه بألمه الخاصّ في المقدِّمة، ثم يتناسى ألمه وخيبته في المتن، ليكتبه بدماء الآخرين وآلامهم.

ـ وهل بلغ خاتمته؟

يجيبه بدر بحزم:

ـ لا والله، فتيمور لن يُرضيه أن يشهد سلطانًا أعظم من سلطانه في شرق دنياه ودولة بايزيد العثمانيّ. لقد كانت الشام وحرائقها توطئةً للقادم، والقادمُ أعظم.

ـ من أين لك كلُّ هذا التشوُّف يا إمام العارفين؟

يسأله طورة متهكِّمًا، فيردّ بدر بثقة تامَّة أخمدت تهكُّمه:

ـ تقول العرب: إنَّ سيفين لا يجتمعان في غمد واحد.

كان الوقت مساءً، وكانت تبريز، والربيع على وشك الهبوب في حديقة طورة الصغيرة، معلنًا أنَّ آذار سنة 1401 م، الموافق لشعبان سنة 804 هـ، سيشي بربيع أخّاذ محمَّل بالإشارات والأحوال، على الرَّغم من حرائق الشام وعويل أهلها.

تبريز، المدينة الواقعة في شرق الدنيا، لم تكن بسعة القاهرة وعظمتها، بل هي بلدة تجتهد بجِدٍّ لتغدو مدينةً بأركانها وأسواقها وخاناتها المزدهرة بالحياة والتجارة، وبما اشتهرت به من صناعات وحِرَف خزفيَّة وجودة سجَّادها وحريرها. وخصوبة سهولها وبساتينها، تزيدها جمالًا على جمال، لتُحيلها جنَّةً بحيرةُ آرميَّة الواقعة إلى شمالها، وإلى الغرب منها تمتدّ البلاد الأناضوليَّة العثمانيَّة الناشئة،

لتشرف هي على الشرق كلِّه، فهي المدينة المشرَّعة طريقًا تجاريًا وعسكريًّا للقوافل والجيوش الهارعة نحو حروبها. تبريز التي استقبلت بسرور منذ عامين وافدَيها القادمَين من القاهرة، المعلِّمَ الرشيد في المدرسة الحاكميَّة، طورة كمال، وصديقَه الغريبَ الأطوار بين عالِم ودرويش، بدر الدين محمود.

* * *

في بداية دربهما معًا في تبريز، كان طورة قد عرض على بدر العودة إلى رحاب العلم والتعليم، ومشاركته في إدارة شؤون المدرسة والتلاميذ، إلَّا أنَّ بدرًا تملَّص من رجاء صديقه بكلِّ امتنان، لا لأنَّه رحل سرًّا برفقة طورة الذي لم يُخبر معلِّمه أكمل الدين بأمره وما فتحه الله عليه فوق الجبل المقطَّم، بل لأنَّه حرَّم التعليم على نفسه في إثر ما ألمَّ به في القاهرة وفق وجهة محدَّدة سلفًا من أُولي الأمر والسلطان. حرَّم حلَّة المعلِّم على بدنه، ولكنَّه لم يحرِّم العلم على عقله. فمنذ اللحظة التي وطأت فيها قدماه تراب تبريز، هام بدر مدفوعًا بسحرها وذلك التأثير العابق فيها، والذي يشي بطمأنينة وحياة مفعمة بالبساطة واليُسر والوداعة، بحيث لم يُصرَع فيها بدر بضوضاء كتلك الصارخة في القاهرة، ولم يختنق بغبار يلفُّ الناس نافثًا سمومَ القهر والحقد والظلم في صدورهم، كغبار القاهرة. كانت تبريز مكشوفة له، منبسطةً كباطن كفّ حوريَّة. وعليه، فقد فضَّل الابتعاد عن المدرسة على الرَّغم من انصياعه لرغبة طورة في السكن عنده في بيته المتواضع بحديقته الصغيرة إلى جانب المدرسة، فكان على تسكُّعه وتشرُّده التامَّين في طرقات تبريز وحواريها، مدقِّقًا في ملامحها، من خانات وأسواق وبساتين، والأهمّ من ذلك الزوايا والأماكن الصوفيَّة.

لقد كانت تبريز، بالرَّغم من ضآلتها مقارنة بالقاهرة، تعجُّ

بالمدارس والزوايا والجوامع الصوفيَّة، التي انجذب إليها بدر مدفوعًا بأصداء الهواتف التي كانت، ولم تزل، تنتابه.

كان يسعى وراء أمرٍ ما، متأهِّبًا دومًا لما قد يحلّ عليه في أيِّ لحظة. كان يحلِّق في أثير تبريز، ليشهد من علوِّه كلَّ الطرقات والزوايا؛ كي ينتقي منها واحدة تجذب قلبه إليه. وما إن يلتحق بزاوية لقطب من أقطاب الصوفيَّة، أو شيخ من شيوخها، متَّحدًا في البداية في شعائرهم وطقوسهم، حتى يرتدَّ مرَّةً أخرى متخبِّطًا بين خيبته من تلك الحلقات، وجزعِه من عدم تأثُّره بها، معتقدًا أنَّ الله لن يقبل مقام توبته التي هي أوَّل مقامات العشق الإلٰهي، غير أنَّه لا يلبث أن يطرد الهاجس بنورٍ ليس كنور المجالس وحلقات الذكر والتوحيد الصوفيَّة؛ النور الذي جلَّله على قمَّة المقطَّم بالمعرفة اللَّدنيَّة والربَّانيَّة. بدر الدين الذي شهد كلَّ شيء لم يكن في حالق نوره يقوى على الهبوط إلى تلك المقامات الأرضيَّة التي تُحيط بزوايا تبريز الصوفيَّة.

كان يطارد أثر تلك الأصوات والهواتف الهامسة، والتي قادته إلى هنا. يبحث عن معنًى؛ عن إشارة؛ عن دلالة تكشف له سرَّ تبريز لينشغل بالبحث عمَّا يشفي قلقه، ويُذهب جزعه، ويُزيل ماضيه القاهريّ وما يُخفيه من آلام وأحلام مكنونة؛ ليعثر على مستقَرّ اعتقد لوهلة أنَّه سيكون مهدًا لروح هائمة تُبعَث من جديد من رَحِم النور التبريزيّ.

إلى أن التحق ذات يوم بزاوية قطب الصوفيَّة الأكبر في تبريز، الشيخ المعلِّم ابن نور السماء، والذي تدور في فلك علمه النورانيّ كلُّ الزوايا والطرائق في تبريز. انسجم بدر في حلقات الذكر ومجالس المعرفة الصوفيَّة، خاشعًا بصمت عميق لا تشفُّ منه أدنى همسة، مفضِّلًا عدمَ الخوض في جدل يمليه عليه منطق عقله وهوى فؤاده، إذ سلَّم أمره لحلاوة التعاليم التي يُلقيها المعلِّم عليه وسواه من المريدين،

رافضًا الخوض فيما قد يُعيد إليه سيرة ماضيه الخائب في المدرسة الظاهريَّة، عندما تجرَّأ على مواجهة العلماء بعلمه الناشئ، فنبذوه وحاربوه وأنكروه.

في تبريز فضَّل بدر الدين الانصياع التامّ في الزاوية ومقاماتها، مريدًا مخلصًا لمعلِّمه، فهل كان حقًّا ينجذب إليه؟

هو الذي كان يتأمَّل في المريدين من حوله متحلِّقين حول قطب علمهم ونورهم، منصاعين له مسلمين، كان يدَّعي، نعم، كان يتظاهر بانجذابه وتداعي حضوره في حضور معلِّمه ابن نور السماء، محرِّمًا على لسانه النطقَ داخلِ الزاوية، لينسى اللغة وأسرارَ حروفها في المجالس، إلى درجة أنَّ مريدي الزاوية ومعلِّميها أطلقوا عليه لقب العاشق الكتوم. فهل كان على درجة من الرضا والسكينة في مقامه هذا؟

هو الهائم في الزاوية وشدَّة المقامات والمجاهدات، لم يكن لينتابه الوَجْدُ، بل ادِّعاءُ الوجد. هو الذي كان فيما مضى مجلَّلًا بهالة نوره وهانئًا بذلك الوَجْد العتيق، وجد العشق الذي كان يسمو به ويعلو، يعرج في الرؤى حتى يصل إلى سِدرة المنتهى، لم يَمْسَسْه نور ابن نور السماء.

إلى أن جاء اليوم الذي سيعقد فيه المعلِّم حلقة خاصَّة لأخذ العهد من بدر الدين؛ عهدِ التسليم الخالص.

في ذلك المساء، وعقب صلاة العشاء، تألَّق مجلس الزاوية بأنوار بهيَّة، تآلفت مع أثير المجلس العابق بالمسك والعنبر. كانت قد عُقدت حلقة المريدين الذين جاوز عددهم الخمسين، متحلِّقين حول القطب، الذي ما إن ختم أدعيته وتسابيحه حتى هتف باسم بدر:

ـ تقدَّمْ، يا بدر الدين، واجلسْ بين يدي.

دنا بدر زاحفًا نحو المعلِّم وجلس متربِّعًا، فتمتم المعلِّم هامسًا بآيات من الذكر الحكيم، ثم التقط خرقة فضفاضة من جانبه وغمر بدرًا بها، وأمره قائلًا:

ـ هات يدك في يدي.

مدَّ بدر يمينه وصافح المعلِّم. وفي تلك اللحظات التي أحاطت الحلقة بخشوع عميق ورهبة شارفت على القداسة، لم يرتعش قلب بدر بالسكينة والخشوع والسرور في أثناء عبوره إلى مقام التوبة باكورة المقامات الصوفيَّة والوصول إلى مشتهى العشق. لم يكن متأثِّرًا من قبوله مُريدًا في زاوية ابن نور السماء الذي أغلق عينيه، ثم هتف قائلًا وهو يقبض على يد بدر بيمينه:

ـ سبحان سرّ الأسرار، ربّ الأكوان، ربّ العرش العظيم والنور المُبين؛ سبحان الله ربّ السموات والأرضين، الذي يتجلَّى نور اسمه الأعظم حين نسبِّحه ونعبده ونصلِّي له خاشعين عاشقين لجلال وجهه وعظيم إكرامه، مقبلين بيقين نوره على تقبُّل عبده بدر الدين العاشق الكتوم المنجذب إلى قطب النور. هل أخلصت بتوبتك يا بدر؟

هزَّ بدر رأسه مجيبًا من وراء الخرقة.

فأردف الشيخ قائلًا:

ـ الله وحده من يعلم بتوباتنا وخطايانا وإخلاصنا وخشوعنا وجحودنا ونكراننا وكفرنا وإيماننا، فأظهرْ يا بدرُ حُسْنَ إقبالك على توبتك في هذا المقام، واعقدِ العهدَ، وامنحني إرادتك وأمرك وكلَّ كلِّك، ولا تُبقي بعضك لبعضك فاحلل عقدة لسانك وردِّد خلفي، فاليوم يومك المشهود في حضرة نور ربّك المعبود، فأفصح بولائك ورجائك، واقبل عهدي وأمري، أنا عبد الله الفقير إليه عطاء ابن نور السماء.

كان بدر غائبًا في ظلمة الخرقة تصله كلمات الشيخ صدًى واهنًا تطغى عليه تلك الهمسات العتيقة الصاخبة التي اخترقته بشدّة، ثم سمع الشيخ يأمره:

ـ أَفْصِحْ يا بدر الدين، وأَعْرِبْ عن تسليمك.

فأفصح بدر الدين، ولكن بنزع يديه من يد الشيخ مزيلًا عنه خرقته، ثم نهض منتصبًا بشموخ وثبات في نور الحلقة، فارتاع الشيخ من أمره المفاجئ وهو يرمقه من جلسته الأرضيَّة، إلى أن هتف بدر قائلًا بصوت عميق صاخب:

ـ لن أنصاع. لن أسلِّم أمري ونوري إلى مخلوق من تراب ما حييت.

ثم خرج على عَجَل من الحلقة وسط حيرة المريدين وذهول معلِّمهم الذي تبعثر حضوره البهيّ بتصرُّف بدر الغريب وتمتماته.

هرول بدر عائدًا إلى بيت صديقه طورة لا يلوي على شيء.

كانت أنفاسه كأشواك حادَّة تخرج ممزِّقةً صدرَه. كان مشتعلًا ببوحه يعدو بعد كلّ ذلك الصمت والانصياع والتظاهر بالوَجْد والإخلاص في الزاوية. نطق بدر، بل صرخ، مُشهدًا من حوله وقطب النور على أنَّه ليس مثلهم، ولا دأبه كدأبهم، ولن يستسلم لقَدَر، مستترًا عن الدنيا وآلامها ووحشتها وآثامها، هاربًا لاجئًا إلى بؤرة ساكنة كشفت حجاب النور لتحجب عنه الدنيا وهمومها. فإذا لم نقع في الخطيئة والمعصية، فكيف نذوق حلاوة التوبة والإيمان؟ هكذا كان يتساءل حين كان يعدو إلى أن داهمه الهمس:

ليس نورك كنورهم. امتشِقْ سيفك. سيفك من نور.

ثم تعثَّر ووقع بشدَّة متدحرجًا ككومة ثياب بالية فوق التراب،

وعلى وشك أن يغشى عليه. كان معروقًا يرتجف مُغْمِضًا عينيه من ألم السقطة وهول الهمس، ثم انتزعته يدٌ خفيَّة بقوَّة وثبَّته على قدميه. فزع بدر فزعًا شديدًا. تلفَّت حوله محدِّقًا في الفراغ المعتم فلم يلمح أحدًا. دقَّق فيما حوله من حجر وشجر وسماء ونجوم ولم يلمح أحدًا. تثاقلت أنفاسه، ثم سمع صوتًا انبثق من همس أثيريّ:

ـ لهم طريقة تقودهم إلى ربّهم راضين هانئين، ولك طريقك، فلا تقترب منهم فأنت لست منهم، ولا يَمَسَّنَّك هلعٌ، فقد لمحوا نورك ولم ينكروه.

* * *

لجأ إلى بريَّة تبريز وفيافيها. هناك كان يُمْضي جُلَّ أيَّامه بعد عجزه عن الاندغام بزاوية صوفيَّة قد تُنير له درب أيَّامه المحفوفة بالهواتف الهامسة، وتُريح قلبه المتأهِّب لغيب ما، ليغدو محروسًا بنوره الخاصّ منجذبًا إليه لا يخشى فيه لومة لائم، ولا منابذة معلِّم وشيخ. لقد كان بدرٌ قطبَ ذاته، يدور حول نفسه منتشيًا مفعَمًا بالوَجْد. في رحاب شجرة وارفة كان يسطع نوره ليتَّحد ثانية بالأنوار العُليا، هو الذي لم يكن يشكّ لحظةً في ردّ تداعياتٍ قد تنشأ من رفضه الحادّ تسليم إرادته إلى ابن نور السماء. فهو الآن معبَّأ بالكشف والأحوال، ولن يجرؤ أحد على المساس به وبنوره، فوحدهم الذين يشهدون الإشارات يُدركون هالة بدر وسرَّ مكنونه.

كان معتزلًا للناس، ينفصل عنهم لأربعين يومًا هائمًا في الدنيا المزدانة بجمال الله المتجلِّي في خلقه، من خضرة وبهاء وينبوع وازدهار؛ يزهد أربعين يومًا صائمًا متعبِّدًا راقصًا، لا ليتجنَّب الدنيا المكتظَّة بالآلام والمعاصي والهموم، بل لينفصل للحظات مشبَعة بالطهر والنور؛ ليتفكَّر في أحوال الدنيا وأهلها. هكذا كان منطقه

المنفصل عن الحال المعيشة ليلحظ ما حوله من بعيد من أعالي نوره وبريَّته؛ ليراقب بصمت تدابير الدنيا وشؤونها وذئابها وحملانها، وكيف يغدو القلب في لحظة افتراس وتوحُّش قادرًا على سلب الحياة من الحياة، ومَحْقِ الطهر والبراءة من مخلوقات الله الصاغرة والمستضعَفة، وإغراقِ الدنيا بالرجس وآثامه في زمان شحَّ فيه الخير والتقوى؛ زمان يُعاني وفرة في دماء لا تعلم بأيِّ ذنب سُفكت. آه، يا بدر، كم هو صعب أن تموت من دون أن تُدرك معاني موتك. هكذا كان يناجي نفسه، ليسري في فؤاده الصفاءُ ويسُرُّه البقاء على قيد نورِ أبى الانصياع لحلقة ابن نور السماء، لتزيّنه وتحرسه المشاهداتُ والأحوال. هو القطب بذاته، ولكنَّه ليس لذاته بل للناس. أهذا هو تأهُّبك، يا بدر، واستعدادُك الغامض، وتشوّفك المشرئبّ نحو الغيب القادم ليغمرك بعد قليل بأنواء زمانك؟

لم يكن بدر يُفضي إلى طورة، كسابق عهده، بما كان ينتابه في بريَّة تبريز؛ طورة الذي كان قَلِقًا من غيابات صديقه الطويلة عنه وعن بيته، وخصوصًا أنَّه كان قد اشترط عليه عدم العمل في أسواق تبريز في مقابل قبوله رغبة بدر في عدم التعليم في المدرسة.

ـ أين تغيب يا بدر؟ أخبرني يا صديقي.

بلهجة رجاء صادقة كان طورة يتوسَّل لمعرفة سبب شحوب بدر ونحوله، فيُجيبه بدر بطمأنينة خالصة:

ـ لا يجزع قلبك يا طورة. أنا بعافية، وفي أحسن حال ومقام.

ـ وأيُّ مقام هذا؟! انظرْ إلى نفسك في المرآة، أنت على وشك أن تصبح طيفًا.

يبتسم بدر بسرور من تشبيه صديقه، ثم يقول:

ـ إنَّني أسكن إلى البرِّيَّة، فهناك تهدأ روحي، وأحلم.

ـ وبماذا تحلم؟

ـ بالنور.

ثم يصمت فجأة، محوِّلًا الحديث إلى مسار آخر:

ـ أخبرني: هل أنت سعيد بالتعليم في المدرسة؟

يدرك طورة تهرُّب بدر من أسئلته، ويجاريه عاجزًا:

ـ ليست كهيبة المدرسة الظاهرية وعظمتها، ولكنَّها جيِّدة. ثمَّة تلاميذ متلهِّفون إلى تلقِّي العلوم، أعتني بهم وأحدِّثهم عنك.

ـ وبماذا تحدِّثهم؟

ـ بأنَّك معلِّم أضاع علمه.

ـ بل أضاعني علمي.

يتنهَّد طورة بحرارة، ثم يقول:

ـ الأحوال هنا مختلفة يا بدر. تبريز مدينة صغيرة، وليست كالقاهرة.

ـ وعليه؟

ـ لقد علمت بما قمت به في زاوية ابن نور السماء.

يتململ بدر في جلسته، قائلًا بلا اكتراث:

ـ لم أفعل شيئًا. لقد تملَّكتني حال ليست كحالهم، فانسحبت من الحلقة.

ـ وما الذي تملَّكك؟

يتبرَّم بدر:

ـ لقد قلت لك مرارًا، يا طورة، إنَّني لا أقوى على تذكُّر ما ينتابني في تلك اللحظات.

ـ يقولون إنَّك درويش ممسوس.

ـ ممسوسٌ بماذا؟

يسأله، وهو يطلق ضحكة قصيرة ساخرة، فيُجيبه طورة مستعيدًا صرامةَ حديثه:

ـ إنَّني أخاف عليك من نورك هذا، فتريَّثْ يا صديقي واخضعْ لشؤون حياتك ودنياك، ودعك من درب محفوف بزيف الرؤى وأضغاث أحلام اختلطت فيها الشعوذةُ بالحكمة، والعلمُ بالسحر، إذ هو التيهُ الأعظم، فوالله لن تقدر عليه.

ـ ويحك يا طورةُ ماذا تقول؟ كأنَّني قد كفرت بحديثك هذا عن نفسي وحياتي.

ـ لا عليك، فما هو إلَّا حرصي على صداقتك وخشيتي عليك.

يرمق طورة للحظات، ثم يسأله باستغراب:

ـ هل ثمَّة أمر يا طورة؟ ما بك، هل مللت هذا المقام؟

يُشيح طورة بوجهه عن نظرات بدر الحادَّة، قائلًا:

ـ كلَّا، ولكنَّني لم أعد أراك وأجالسك كسابق عهدنا.

ـ لا عليك، يا طورة، فأنا لا أبتعد إلَّا لأقترب.

ـ ها قد عدت إلى طلاسمك من جديد.

ينتفض بدر لاويًا عنق طورة تحت إبطه، وهو يداعبه:

ـ لا بدَّ لك من امرأة في بيتك تُؤْويك إلى صدرها وتُسكِن قلقك، أيَّها المعلِّم الخجول.

ـ دعك من هذا العبث، يا بدر.

ـ أيُّ عبث؟! هذه سُنَّة الحياة

ـ قل لنفسك هذا القول.

يتوقَّف بدر فجأة عن مداعبة صديقة، لتعبر في دمه مكنونةٌ. يتدارك طورة الأمر بسرعة مؤنِّبًا نفسه:

ـ ما أقصده هو أنَّني لن أبني بامرأة عاقدًا قراني قبل أن تعاهدني بأن تحذو أنت حذوي.

ثم ينسحب بهدوء من الحُجرة مودِّعًا بعد أن أحسَّ بغياب بدر عن المجلس والحديث.

ينتفض بدر بشدَّة كأنَّه يطيح عن كاهله ذكرى مريرة تسلَّقته، ثم يُحيط نفسه بتعويذة نسيان، وينام.

* * *

في الصباح، استيقظ على جلبة أصواتٍ شاذَّة عن سكون بيت طورة ومحيطه في هذا الوقت. ينهض من سريره متَّجهًا نحو النافذة. يلمح موكبًا صغيرًا من الناس تدلّ ثيابهم وهيئتهم الوقورة على أنَّهم من ذوي الأمر والشأن في تبريز. يسترعي انتباهَه هذا الشأنُ الصباحيّ، فمن يزور مدرسة للفتية في هذا الصباح؟ يسأل نفسه مستغربًا، ثم يتمطَّى متثائبًا نافضًا عنه ما تبقَّى من نعاس ويَمْضي ليتوضَّأ تمهيدًا لصلاة الضحى. كان قد عزم أمره، بعد عزلاته الطويلة والمتكرِّرة في البرِّيَّة، على الإيفاء بعهد صداقته من خلال البقاء برفقة صديقه طورة هذا اليوم، وسيفاجئه بزيارته في المدرسة على غير عادته، إلَّا أنَّ هذا الحشد الذي اقتحم المدرسة أثبط عزمه وأخَّره عنه.

يتشاغل في تشذيب الأزهار والأعشاب وتهذيبها في حديقة البيت، مسرورًا في إثر صلاة الضحى وسط سكينة الصباح ورياحينه. لا يطول دأبه هذا كثيرًا، فالموكب الغريب يرحل فجأة كما جاء على

عَجَل، الأمر الذي يعمِّق فضول بدر الذي توجَّه قاصدًا صديقه في المدرسة قبل أن يلتحق بحلقات التدريس.

ـ أسعدتَ صباحًا يا طورة.

تتهلَّل أسارير طورة بزيارة بدر المفاجأة:

ـ أيُّ صباح مزهر حطَّ بك في مدرستي.

ـ الذكريات يا صديقي. لقد استيقظت هذا الصباح على شجن القاهرة وأيَّام المدرسة الظاهريَّة.

يسأله طورة بحماسة:

ـ أهذه إشارة عودة؟

يتبرَّم بدر قائلًا:

ـ لا تبالغْ يا طورة، فما هي إلَّا زيارة قصيرة أدعك بعدها لشؤون علمك.

جلسا داخل حجرة طورة الأنيقة في المدرسة في مقابل ساحتها الكبيرة، وسأله بدر مستغربًا:

ـ لقد لمحت وفدًا غريبًا يخرج من المدرسة قبل قليل. فمن هؤلاء يا طورة؟

يزفر طورة قائلًا بأسى:

ـ إنَّهم من حاشية أمير تبريز القاضي حسام الدين الفاضل.

ـ وما شأنهم؟

وبعدم تحفُّظ، ينصاع مُجيبًا عن أسئلة بدر:

ـ يبحثون عن طبيب يداوي نجل الأمير. يقولون إنَّ أباه لم يدَّخر وسيلة إلَّا أنفقها في سبيل شفاء ولده الوحيد، حتى إنَّه جلب أطبَّاء من

سمرقند وبخارى من دون أدنى أمل بالشفاء، وهو الآن يصارع الموت.

يسأله بدر بين تعجُّب وتهكُّم:

ـ وأين الطبيب في هذه المدرسة؟

ـ لقد جاؤوا ليسألوا إذا كنَّا، أنا أو أحد المعلّمين، قد خبرنا أعراض هذا المرض، أعاذنا الله منه، أو إذا ما كان في إمكاننا إرشادهم إلى طبيب بارع.

يسأله بدر:

ـ وماذا قلت لهم؟

يسترعي طورةَ تفاعلُ بدر المتحمّس في هذا الشأن، فيُجيبه بامتعاض:

ـ لم أقل لهم شيئًا. فأنا لا أعرف طبيبًا ذا قدرات خارقة.

لم يطل مقام بدر كثيرًا، إذ انسحب مع أوَّل إشارة من طورة إلى حلول موعد الحلقة.

* * *

في المساء، وعندما عاد طورة إلى البيت منهَكًا من عبء المدرسة وشؤونها، استقبله بدر بصدر رحب وحماسة منقطعة النظير، عادت لتحتلّه بعد طول انقطاعٍ ليسأله طورة مستغربًا:

ـ ما بال وجهك مشرقًا هذا المساء؟

أجابه بدر بانشراح:

ـ لأنَّني انصعت لعهد صداقتي لك، وحبست نفسي طوال النهار في البيت. أما يَسُرّك هذا؟

ـ بلى، يَسُرّني.

تناولا عشاءهما ممَّا تيسَّر لهما من لبنٍ وخبزٍ وبعض شرائح اللحم المقدَّد، بشهيَّة طيِّبة، ثم انتقلا إلى الحديقة كي يسترخيا في أجواء مساءٍ صيفيٍّ عليل، إلى أن باغت بدر صديقه بأسئلة كان قد أعدَّها مسبقًا:

ـ حدِّثني يا طورة عن شمائل ذلك الأمير؛ أمير تبريز.

تساءل طورة بسخرية:

ـ ولماذا تسأل عن صفاته وطبائعه؟ هل ستزوِّجني إيَّاه؟

قهقه بدر بانشراح، ثم قال:

ـ أجبني يا طورة، بالله عليك.

أجاب طورة مستعيدًا جدِّيَّته في الحديث:

ـ لقد زارنا في المدرسة أكثرَ من مرَّة. حضوره مؤثِّر، وعلمه جزيل، وطبعه يغلب عليه اليُسر.

ـ وكم عمر ابنه المحتضر؟

ـ فتًى في العشرين من عمره على الأغلب. ولكن، لماذا تسأل كلَّ هذه الأسئلة التي لا تخصُّنا في شيء؟

لم يُجب بدر، بل أشاح نظره متأمِّلًا في خضرة الحديقة، ثم سأل برجاء:

ـ طورة، أتلبِّي لي حاجة يا صديقي؟

ـ سمعًا وطاعة.

ـ قدِّمني إلى أمير تبريز. سأَشفي ولده، بإذن الله.

انتفض طورة، ثم صاح قائلًا:

ـ أيُّ هراء هذا. هل جُننت يا بدر؟

ردَّ عليه بدر بحزم:

ـ بل هو الجِدُّ، كلُّ الجدّ. فهل خذلتك يومًا؟

زفر طورة بحرارة وهو يرمق صديقه بهدوء للحظات، ثم أجاب:

ـ كلَّا والله، ولكن أَفْصِحْ: ما شأنك في هذا الأمر؟

* * *

كان مساء اليوم التالي قد حلَّ بحكمته الشفيفة على القصر المنيف المشيَّد بشموخ على تلّ شرقيّ تبريز، إذ في الجناح الصغير الواقع شماليّ القصر، قصر الأمير حسام الدين الفاضل، مدبِّر أحكام تبريز وشؤون أهلها. كان الفتى عبد الله، نجلُ الأمير ووحيدُه، يرزح تحت أغطية الموت المرتقب، غائبًا عمَّا يُحيطه به أبوه من رعاية واهتمام وأدعية ترجو من الله شفاءه. وإلى جانب الأمير، كان يقف أمين القصر وحاجب الأمير، بالإضافة إلى المعلِّم طورة وصديقه غريب الأطوار بدر الدين، الذي كان يتقمَّص مخلاة فوق ثيابه ومُرَقَّعَته المهلهلة المُخِيطة من رقع قُماش سوداء وبيضاء وزرقاء مهترئة، لا تُشير إلى طبِّ صاحبها وحكمته، بل إلى دروشته وتصوُّفه.

تقدَّم بدر من القاضي، ثم تنحنح قائلًا بصوت عميق هادئ:

ـ اعذرْني يا مولاي، أرجو أن تُسعفني بإخلاء الجناح منكم جميعًا.

فانصاع الأمير ومن معه من دون أدنى تردُّد، متأثِّرًا بثقة وطمأنينة تامَّتين انبعثتا من حديث طورة عن بدر في أثناء تقديمه للأمير، إذ أتحفه بقدرة بدر الشفائيَّة العجيبة، وبأنَّه يمتلك الأدوية والأدعية السّرّانيَّة والشافية التي ستنال من مرض عبد الله. وما توفيق بدر إلَّا بالله، في الوقت الذي كان فيه طورة غير مقتنع في سرِّه بما كان يقوله

لأنَّه لم يلمس ويلحظ ويَرَ يومًا صديقه بدرًا طبيبًا مداويًا.

دنا بدر الدين من فراش الفتى بعد خلوِّ الجناح. كان الشابّ منصهرًا في الحمَّى، ضئيلَ البنية، شاحبَ الوجه معروقًا، غائبًا عن اليقظة وأمرِ بدر، الذي أخذ يمسح على جبينه متمتمًا بالبسملة. كان جبين الفتى قد مسَّه حمٌّ من جحيم ملعون. جلس بدر على حافَّة السرير وأخرج من مخلاته دواةَ حبر عاجيَّة وقصبة عظم رفيعة، بدت كأنَّها كانت، فيما سبق، عظمةً من ساق كائن حيّ، وحده بدر يعلم إذا ما كان إنسانًا أو حيوانًا، ثم أخرج ورقة فارغة تشي صُفرتها واهتراؤها بعتقها، وقد قدَّها نصفين متساويين. خطَّ على نصف رسومًا وحروفًا غريبة الأشكال، ثم نهض وتقدَّم من السراج المعلَّق في كوَّة الجدار الواقع خلف السرير، وأحرق المزقة بشعلته، ثم قبض على رمادها بعد تلاشيها ونثره فوق الفتى. تريَّث قليلًا، وقد تثاقلت أنفاسه، ثم جلس مرَّة أخرى على حافَّة السرير قرب الفتى، ليخطَّ على نصف الورقة الآخر كلماتٍ بحروف عربيَّة هذه المرَّة، وطواها عدَّة طيّات، وقام بتمزيقها نتفًا صغيرة، ثم أخرج من مخلاته طاسة حديديَّة وقربة ماء دُبغت من جلد ماعز، وسكب الماء في الطاسة مازجًا نتف الورقة به. مال على الفتى حتى أصبح فوق رأسه، وغمَّس أصابع يده اليمنى في الطاسة وأخذ يمسِّد على جبينه متمتمًا بصوت خفيض: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الأَرْضِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ، إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمٰنُ!**»[1].

(1) دعاء على لسان النبيّ محمَّد ﷺ.

كرَّر الدعاء ثلاث مرَّات بخشوع وأنفاس متثاقلة، وهو يمسِّد ضاغطًا على جبين الفتى الذي أخذ يتململ فاتحًا عينيه ببطء، فعاجله بدر برفعِ رأسه، وسقاه الماء الممزوج بالتعاويذ. وما هي إلّا لحظات حتى تنفَّس الفتى بعمق بعد أن سعل سعالًا شديدًا، ثم أخذ يشهق مختلجًا صدره بشدَّة، ريثما هدأ قليلًا للحظات تلاها انخراطُه في نشيجٍ مريرٍ خافت. تأمَّله بدر مطمئنًّا، وهو يتمتم ممسِّدًا رأسه، ثم هتف به قائلًا بسرور:

ـ بوركت يا فتى. هيًّا قم لصلاتك، واشكر الله على عودتك من غياهب الموت.

حدَّق الفتى بغرابة في وجه بدر المشعّ بنور عجيب، ثم سَرَتْ في جسده قشعريرةُ حياة، وأماراتُ الشفاء والتحسُّن انتقلت إلى وجهه مزيلةً عنه شحوبَه وإعياءَه بالتدريج. اطمأنَّ بدر إلى حال الفتى الذي شرعت الحياة تدبُّ فيه، وخرج ليعلن النبأ السارّ للأمير.

دلف الأمير إلى الجناح ملهوفًا على عَجَل، وما إن رأى نجله على مشارف العافية حتى انهال عليه بعناقٍ حميم مبلِّلًا بدموع الامتنان والسرور ثيابَه.

في تلك الأثناء، كان طورة يقف في الممرّ خارج الجناح يتأمَّل في وجه بدر بكلِّ استغراب وخشية، ثم اقترب منه هامسًا كي لا يسمعه أمير القصر وحاجبه الممتلئان سرورًا:

ـ ويحَك، ما الذي فعلته، من أين لك كلّ هذه القدرة؟

أجاب بدر هامسًا بهدوءٍ تامّ:

ـ واللهِ، ما فعلت شيئًا سوى الدعاء بشفائه بعد أن أيقنت أنَّ الماء الذي كان يشربه فاسدٌ، فأسقيته من مائي.

لم يصدِّق طورة صديقَه. وعندما شرع بمداهمته من جديد باستغراب، فاجأهم الأمير بغبطته قائلًا:

ـ قل لي كيف أجزيك أيَّها المبارك؟ لك ما شئت، فقد رَدَدْتَ إليَّ روحي.

أجاب بدر بخجل خافضًا نظرَه:

ـ لا شيء يا مولاي إلَّا سرورك ورضاك بشفاء ولدك.

ـ واللهِ لتشهدنَّ تبريز قاطبةً على حُسن صنيعك إزائي وبركتك والحقِّ الذي ظهر بك على ولدي.

في اليوم التالي، اندلع في تبريز وطرقها وخاناتها وبيوتها وأسواقها وميادينها نبأٌ يُفيد بأنَّ عبد الله نجل الأمير حسام الفاضل عاد إلى عافيته وحياته، على يد ذلك الدرويش الممسوس الذي رفض الانجذاب إلى زاوية ابن نور السماء؛ ذلك الدرويش الذي سيبني له الأمير زاوية خاصَّة به في وضح تبريز وسمائها وزواياها، وستصبح زاوية قطب النور رأس العارفين مولانا بدر الدين، الذي سلَّم له طورة أمره أخيرًا، إذ سيكون شيخ يمينه بعد أن لمح ذلك الوميض في عيني صديقه ومولاه بدر الدين.

* * *

الفصل السابع:
ستقوم بك الدنيا

وأنت ستقوم بك الدنيا أيُّها المتجلّي بدرًا في سماء تبريز، بعد أن أغدق عليك أميرها بيتَه القديم الواقع غربيّ تبريز لتقيم فيه زاويةَ نورك.

فهل ستقنع وترضى؟

هل حقًّا كانت زاوية، أم مدرسةً؟ أيُّها القطب الذي جذبت إليك **كلَّ** هوامش الدنيا وفُتاتها، من مجذوبين ودراويش ومساكين وتلاميذ حائرين ومستضعَفين؟

لتُحيل البيت الوسيع المهجور وحديقته الذاوية إلى ركن أثَّثته من سماء صافية، ورصَّعته بنورك وزيَّنته عابقًا به بخضرتك وازدهارك، فهل أزهرت حقًّا، يا بدر؟

هل زال تأهُّب روحك وقلقُ فؤادك؟

وأنت ستقوم بك الدنيا. هكذا يُنعشك الهمس، ويجعلك تفرد ذراعيك ومُرَقَّعَتَك لتستقبل الآهات صارخًا بأسمائها لتمنحها سلوان

كلامك وسكينةَ أحكامك، فهل كنت قطبًا، وأولئك المهلوكون كانوا مُريديك حقًّا؟

وأنت ستقوم بك الدنيا، وأنت من انقلبتَ في لحظات من هُيامك إلى وجدك ووجودك لتنشر في تبريز وآفاقها معانيَ اسمك؛ أنت الشابّ، هكذا يستغرب الناس من يُنوعك وحداثتك عندما كانوا يَؤُمُّون ركنك مدفوعين بمن استعدته أنت من الموتِ، ساعين بلهفة لانبعاث الآيات والبركات من مُرَقَّعتك التي أحطتَ بها نجلَ الأمير، القاضي حسام الدين الفاضل، الذي يحكم تبريز بصرامة حكّام الشرق وهيبتهم، ليمنحك العطاء ويُلحقَ بزاويتك ولدَه عبد الله الذي شفيته أنت، ويشدَّ من عزيمتك بما ينفض عن أحلامك غبارَ السكون والوهم، ليقف الأمير مرحِّبًا بك في شرق مدينته، باذلًا على زاويتك العطاءَ والجراية من مأكل وملبس وشراب وماء، وكلٌ ما يكفل سدَّ رمق المساكين اللاجئين إلى حُسن ضيافتك وعظيم قولك وإكرامك، لتشعر هذه المرَّة بإحاطة ما، إذ ينتابك ذلك الشعور المُغذَّى بسُلطة تحميك وتحرسك. وأيُّ حكم يقيك شرَّ الزمان أشدُّ من حكم الأمير؟

فنعمت أنت بإنقاذ قناعاتك وعاداتك وأحكامك. ما بين مدرسة وزاوية؛ ما بين نور البصيرة والفؤاد، وحكمة العقل ومنطقه السديد، أقمت حلمًا غريبًا عن دنيا مزدحمة بالزوايا والطرائق الصوفيَّة العتيقة، فتمدَّد الحلم وشرَّع أبوابه ليُقبل المسحوقون عليك وأنت القائل: «بزغ نور الحقّ كي ينير دنيا المقهورين ودروبهم الموحشة».

وأنت ستقوم بك الدنيا، أيُّها المُقْبِلُ على رؤاك في زاويتك لتنتشي بمَن حولك، فهل اكتفيت بتحلُّقهم وتشبُّثهم الأخير بمُرَقَّعتك؟

منذ اللحظة الأولى التي أقمت فيها زاويتك، جذبتَ صديقك طورة إليك. لم يُرهقك إقناعُه، إذ انصاع لك بسهولة ويُسر، مأخوذًا

بما يكتشفه فيك من خفايا وأسرار، متذكِّرًا أحوالَك فيما سبق من دنياك الحائرة، في إثر غياباتك ومتاهاتك البعيدة لتعود إليه في كلّ مرَّة مشحوذًا بمعانٍ جديدة متلألئة.

انجذب طورة وبات، كما قلت له أنت منذ زمن عندما كنت على وشك التهالك واليأس؛ قلت له بصرخة أمل أخيرة، صرخة تشوُّف: أنت شيخ يميني، يا طورة.

وها هو اليوم برفقتك لتتَّحدا معًا، أنت المتأرجح ما بين درويشٍ ممسوسٍ وقطب عارف، وهو المعلِّم الذي تخلَّى عن حلم علمه ومدرسته، ملقيًا كلَّ ماضيه وراءه، مُنقادًا إليك. فهل سترضى؟

طورة الذي لحظ فرحك والوميض الساطع في عينيك عندما استقبلت أنت أوائل التلاميذ والمجذوبين إلى زاويتك، كان يلمس غبطة هائلة إذ يشهد حلمك. يرقص ويدور حول نفسه، ثم يعانقك حقيقة، ليتساءل مناجيًا صداقتك: ما سرُّك يا بدر؟ لماذا ينجذبون إليك بهذه السرعة ومقامُك في حاجة إلى سنين طوال من الأحوال والمقامات والإشارات والمجاهدات كي تصل إليه. فكيف وصلت، يا بدر، بهذه السرعة؟ كيف حظيت بكلّ هذا الالتفاف الذي يكاد يصير إسباغًا قدسيًّا؟

إذ أسبغوا عليك ما منحته أنت لهم من الطهر والسكينة والبركة والنور، بالإضافة إلى ما كان يحيطك به الأمير من زيارات ووفود مكوَّنة من سادة تبريز وأعيانها، غير أنَّك في حضرة الجاه والسطوة لم تكن لتنساق إلى إغواءاتهم وعطاياهم. كنت، في تحلُّقهم حولك، تردِّد في سرِّك: «اصحَبِ الأغنياءَ بالتعزُّز، والفقراءَ بالتذلُّل، فإنَّ التعزُّز عن الأغنياء تواضعٌ، والتذلُّل للفقراء شرفٌ»[1].

---

(1) أبو عثمان النيسابوريّ.

ولهذا ستقوم بك الدنيا يا بدر، فأيُّ تناقض هذا؟

هكذا يسألك طورة في سرِّه: أيُّ تناقض وتباعد تحشرهما في زاويتك لتساويَ بين الفقير والغنيّ، وبين السيِّد والعبد؟ كيف كنت تثبِّتهم بكلامك كأنَّك تُغويهم بسحرٍ مُبين؟

وأنت ستقوم بك الدنيا، لا لشيء، فقط لأنَّك نشرت نورك ولم تَحْجبه عن أحد، متلقِّفًا الناسَ في شرقيّ تبريز، مرحِّبًا بأنْ هلمُّوا لأُذيقكم رحيق المعرفة. تعالوا لأغمركم بأنوار الحياة. هلمُّوا لأدلَّكم كيف تُزيلون أدران نفوسكم وحُجُب ظلامكم. عليكم بآلامكم، امحقوها، أَزيلوها، إذ هي ما يكفل لكم الحقيقة، والحقيقة هي الحياة.

في بداية الأمر، لم يصدِّق طورةُ ما عزم عليه بدر في بيته الجديد في زاويةٍ دَأْبُها ليس كدأب زوايا تبريز الأُخرى؛ زاوية تعبق بالحرِّيَّة والنور والعدل والعلم، متآلفة بذلك الانسجام الغريب الذي أحدثه بدر في أروقتها التي لا تشي على الإطلاق بعهدهما السابق معًا في أروقة الأزهر والمدرسة الظاهريَّة في القاهرة.

بيد أنّ طورة ما لبث أن اندغم في شأن صديقه وغوايات أحلامه ورؤاه. كان يسبر أغوار بدر في ليالي مقامهما الجديد في إثر الانتهاء من حلقات العلم والذكر والاعتناءِ بإطعام الفقراء وعابري الطريق:

ـ غايتك هذه تشي بمملكة صوفيَّة. أهذا ما تسعى إليه؟

يضحك بدر باسترخاء وصفاء وهو يفترش التراب الطريّ في حديقة الزاوية الغنَّاء:

ـ مملكة؟! أنا الذي أزيل من دماء الناس سُمَّ الاستسلام والخنوع لمصائرهم التي كُتبت عليهم بسيوف الطغاة، أسعى لإقامة مملكة؟!

ـ أقصد تلك المملكة التي يتحدَّث عنها الصوفيُّون وأقطابهم، فأنا أعلم بأنَّ قطب الصوفيَّة ورأس العارفين هو الملك...

يقاطعه بدر بلطافة وودّ:

ـ وأنت إمامه وشيخ يمينه، أهذا ما تعنيه؟

يجيب طورة:

ـ أليست هذه مرتبة من مراتب الصوفيَّة. القطب هو الملك، وأمَّا مملكته فهي مُقامةٌ من المريدين والرعايا، من الأوتاد والأبدال والنجباء والأخيار والنقباء والشيخين، شيخ اليمين و...

يتوقَّف طورة عن حديثه فجأة للحظات، وهو يتأمَّل في بدر، ثم يسأله مستدركًا، كأنَّه تذكَّر أمرًا مهمًّا:

ـ فإذا كنت أنا شيخَ يمينك، فأين شيخ يسارك؟ ألا يحيط بالملك القطب شيخان عن يمينه ويساره؟

يضحك بدر بسعادة، ثم يقول:

ـ أراك ضليعًا في شؤون الصوفيِّين وممالكهم، فهل شهدت في زاويتنا هذه شيئًا ممَّا تحدَّثت به لتوِّك؟

ـ وهل رأيتني أدَّعي القطبيَّة وتملُّكَ المعرفة والنور؟

يتحاشى طورة الإجابة بإصراره على الحصول على إجابة عن سؤاله:

ـ فمن هو شيخ يسارك؟

يتأمَّل بدر في وجه صديقه الحائر للحظات، ثم يُجيب بكلِّ ثقة وتشوُّف:

ـ هو منسيّ. يمنحني إيَّاه الغيبُ عندما يسفك حلوله عليّ.

تسري قشعريرة رهبة في أوصال طورة، سببها تلك اللحظات

المشبَعة بتشوُّف بدر وحزمه في خفايا الغيب:

ـ فهل يوحَى إليك يا بدر؟

يعتدل بدر في جلسته بحدَّة، ثم يُجيب بسخط:

ـ أستغفر الله العظيم من إثم سؤالك، وهل أنا نبيّ كي يوحى إليّ؟

تطغى نبرة رجاء واعتذار على طورة:

ـ أقصد أنَّ ثباتك هذا وتحلُّقَ الناس من حولك في هذا الوقت القصير لهما دلالات عديدة تشي ببركة وقداسة وإشارات من نور الله تكشف لك حُجُب الغيب. هذا ما أشهده فيك، يا بدر، حين تغيب وترتجف وتتعرَّق.

يردُّ عليه بدر بهدوء مستعاد:

ـ ثمَّة فرق يا صديقي بين الوحي والإلهام. وكفى.

كان طورة يُدرك جيِّدًا عدم قدرته على استدراج بدر إلى البوح بأسراره وهالات أنواره، إذ يبتعد عنه ويغيب كاتمًا بوحَه، مُخْفِيًا كشفه.

وهي، بكلِّ أحوالها ومقامات شيخها وصديقه، لم تكن زاوية تُشبه زوايا تبريز. وصدق بدر وأصاب حين قال لصديقه إنَّه لا يسعى وراء مملكة من وهم. هكذا كان يُفضي إلى طورة ساخطًا: أيُّ مملكة هذه تحجب عدل أنوارها وسموَّها عن الدنيا؟ ويدَّعي مَلِكها أنَّها مقامة لتدبير شؤون آخرته ومريديه والوصول إلى الفناء على عتبة سِدرة المنتهى.

ففي زاويته كان يعقد هو وطورة جلسات العلم المتراوح بين أصول الحكمة والمنطق، وبين الآداب وعلومها وتصاريفها، بالإضافة إلى حلقات الذكر والوجد المرفقة بالأنغام والألحان التي تنشد على

وقعها أناشيد الشعر اللدنيّ والنورانيّ وقصائده، مبعدًا الزاوية عن الأحاديث المطلسمة والعبارات الغامضة التي لا تعتق تلاميذه ومريديه من ظلام الجهل وحُجُبه العاتية.

كان منشغلًا في أيَّام زاويته هذه بمواساة من يطلبه، وإجابة من يسأله، ومداواة من يسكنه، إلى أن جاء اليوم الذي كان بدر يتحسَّب مستعدًّا له؛ يومُ شيوخ تبريز وأقطابها وزواياها؛ يومُ الذين استهجنوا بدرًا ومساعيه وعلمه وزاويته، وأنكروا أقاويله وحلقاته وجلساته؛ يوم ابن نور السماء الذي رفض الانجذاب إلى نوره بدر.

في تلك العصيرة، كان منشغلًا، في مجلسه الواسع، بحلقة علم كان يزوِّد بها تلاميذه بدرس عنوانه «إشراقة العقول وانشراح الصدور»، مُبيِّنًا فيه أهمِّيَّة إقامة التوازن بين بصيرة الفؤاد ومنطق العقل، بينما كان طورة في الخارج ينظِّم إفراغ عربتي الخبز والطعام اللذين كان يرسلهما القاضي كلّ يوم إلى بدر الدين، عندما داهم الزاويةَ حشدٌ صغير من الأشخاص المتهجِّمين، على رأسهم الشيخ ابن نور السماء، في سابقة غريبة عن تبريز التي لم يلمح أهلها يومًا تجوُّلَ ابن نور السماء في طرقاتها بعدما اعتادوه معتزلًا في زاويته لا يبرحها.

وما إن رآهم طورة مقبلين بهيئاتهم الساخطة حتى هرع صوب بدر ليُعْلِمه ويحذِّره من أمرهم، إلَّا أنَّ بدرًا لم يكترث لتحذير صديقه المشحون بالخشية والرهبة من مقام ابن نور السماء وقَدْره العظيم في تبريز، إذ ظلَّ بدر في حلقة علمه مندمجًا في درسه، إلى أن لمح دخول الحشد مجلسه، فرمق ابن نور السماء مرتديًا مُرَقَّعته المهيبة، ووجهه معروق متجهّم، تشعّ منه نضارة شاذَّة عن عمره السبعينيّ.

كان على رأس الحشد يتأمَّل بصمت بدرًا وحلقته ومجلسه المتواضع والمؤثَّث من سجاجيد زرقاء بالية وحواشٍ ووسائدَ فشلت في

إقناع المتّكئين عليها بنعومتها وراحتها.

لم يتوقَّف بدر عن حديثه المشوب بحسن الكلام وجزالته، من دون أن يفضَّ حلقة العلم من حوله على الرَّغم من اضطراب تلاميذه وتململهم من حلول الحشد الساخط. كان يتحدث إلى تلاميذه مشيحًا ببصره نحو ابن نور السماء الذي تنحنح قائلًا بصوته الجهوريّ:

ـ السلام عليك.

توقَّف بدر عن حديثه واستأذن مُريديه بالوقوف معتذرًا عن تعليق الحلقة، فأذنوا له، ثم نهض قائلًا بانشراح:

ـ وعليك السلام أيُّها الشيخ الجليل. أيُّ عصيرة رائعة حلَّت بحلولك علينا. تفضَّلوا بالجلوس.

ردَّ عليه الشيخ وهو يدقّ عصاه بأرض المجلس بسخط أذهب عنه حُسْنَ سلامه:

ـ ما جئت لأجلس في مقام أنكر علينا علمنا وفيض نورنا، بل جئناك واعظين مذكِّرين.

لم يتأثَّر حضور بدر المتماسك بانهيال الشيخ عليه بحديث شابَهُ التحذير والتهديد، ثم ردَّ عليه بهدوء وثقة:

ـ ما ينكر إلَّا جاحدٌ، وما يحجب إلَّا جاهل، وما أنا سوى تلميذك.

قطع عليه الشيخ حديثه الودِّي ومحاولته الفاشلة لاستمالته بحُسن كلامه، قائلًا بحدَّة:

ـ معاذ الله أن تكون تلميذي ومُريدي وأنت الجاهل الطامع بمحاسن الدنيا ومفاتنها، فخلطتَ وكفرتَ معتقدًا أنَّك وصلت، وما وصولُك إلَّا إلى زيف الدنيا وأدرانها وآفاتها. فكيف تكون تلميذي

وأنت لا تفقه طريقي، رافضًا نورَ عهدي وصوفيَّتي؟

أجابه بدر كاظمًا غيظه بصعوبة، مدَّعيًا الهدوءَ وهو يلاحظ انشداد الحشد وحماسته لحديث الشيخ:

ـ وما هو التصوُّف يا شيخي؟

رمقه الشيخ بحدَّة للحظات، مستغربًا سذاجة سؤاله، ثم أجاب:

ـ هو «إسقاط الجاه، وسواد الوجه في الدنيا والآخرة»[1]، وليس التذلُّل لناشدي الدنيا والسعي لحظوتهم ونِعمهم. فما الذي أصبته أنت في مقامك الفاسد هذا سوى غضب الله؟ فَتُبْ وارجِعْ إلى طريق الحقّ.

فردّ عليه بدر بسخط مضحِّيًا بهدوئه:

ـ كلَّا والله، فما التصوُّف إلَّا أن «يُميتَكَ الحقّ عنك ويحييك به»[2]؛ الحقُّ الذي يُنير الوجوه ويكسو الدنيا ببياض ناصع يُذهب عن العباد سوادَ الجهل والخنوع.

ـ ويحك! ما يقول هذا القولَ إلَّا عارفٌ، وما أنت إلَّا مشعوذٌ ساحر كافر.

صاح بدر برباطة جأش انبعثت من هامته المرفوعة ووميض عينيه:

ـ أستغفر الله لي ولك من شرِّ قولك وباطلِ اتِّهامك، «إذ عرفت ربِّي بربِّي ولولاِ ربِّي ما عرفت ربِّي»[3]، فما حاجتي إليك كي أصل؟ وكيف، بحقِّ الله، تُسبغ على نفسك نورًا وقداسة لم يُنزِلا على صدري السكينةَ ولم يمسَّا فؤاديَ بالسرور الربَّاني، فكيف أنصاعُ مُسلِّمًا نفسي وإرادتي إليك؟

---

(1) رسالة القشيري.

(2) الإمام الجنيد.

(3) ذو النون المصريّ.

ارتدَّ الشيخ إلى الوراء بوجوم خلخل حضوره وتأثيره في حشد مُريديه.

باغته كلام بدر المشحون بالسخط والغضب؛ كلام لا يقوى الشيخ على ردّه وإنكاره، ولا على إلحاق الكفر والزندقة بصاحبه ابن نور السماء الذي استهان ببدر معتقدًا أنَّه يدَّعي الدروشة والتصوُّف، تشظى لينجذب في سرِّه إليه، مبتعدًا عنه في العلن؛ ففي الوقت الذي لم يقدر فيه على إفحام بدر بحججه وعمق تجربته ودرايته بمسالك التصوُّف، لم ولن يقوى على المساس بهذا الشابّ البهيّ بنوره، أو السماح لمريديه بالتعرُّض له، لا لأنَّه يرفض العنف وإراقة الدماء فحسب، بل لأنَّ بدرًا كان مُحاطًا بهيبة أمير تبريز، لينسحب الشيخ لا كما جاء ساخطًا، بل واجمًا حائرًا.

* * *

وإذ أخفق ابن نور السماء في مسعاه القاضي بحجب بدر وزاويته عن تبريز وأهلها، تجلَّى بدر الدين أكثرَ من أيِّ وقت مضى في سمائها. وخير ما عزَّز حضوره ومقامه تلك الأقاويلُ المدلوقة في طرقات تبريز وأسواقها ومجالسها، بحيث تداولت الألسن المواجَهة الحاميةَ في زاوية بدر الدين، والتي ارتدَّ عنها ابن نور السماء عائدًا إلى معتزله لا يلوي على شيء. ومن الناس مَن قال إنَّ بدر الدين، بتعاليمه الغريبة وطرائقه العجيبة عن تبريز وما عهدته من صوفيَّتها، لَمُبارَكٌ من السماء. والحجَّة على ذلك إقبالُ الهائمين والمساكين عليه؛ هو الذي لم يطلب لنفسه دنيا من أعيان تبريز وسادتها، بل كسوة وغذاء وعطاء لمريديه وتلاميذه وزوَّاره.

ومن الناس مَن قال إنَّ بدر الدين ساحر عظيم، سحر ابن نور السماء ملقيًا عليه تعويذةً رهيبة ذهبت بعلم القطب ونوره، وحبسته

داخل قوقعة بائسة داخل زاويته.

وهكذا، كانت الأقاويل والشائعات تتعربش على زاوية بدر لتُحيطها بقداسة مشوبة بالغموض والسحر.

في تلك الأثناء، لم يكن بدر ليرضى ويُسَرَّ بكسر جاه ابن نور السماء وعلمه أمام مُريديه، إذ كان يأمل في استمالة الشيخ إلى جانبه وإفساح ركن له في زاويته، لتشتدَّ عزيمته أكثر. فبدر الدين لم يكن لينكر هالة النور التي تُحيط بابن نور السماء، وكان يعتقد، بشدَّة، أنَّ هذا الشيخ قد نال كشفه الصائب وعلمه الراجح غير أنَّ سُنَّته لم تكن كسُنَّة بدر وزاويته.

في إثر تلك المواجهة، ازداد إيمان بدر بنفسه عمقًا، مؤمنًا في الوقت نفسه بحكمة قوله وتأثيره الشديد وحضوره الطاغي في زاويته؛ فتعاليمه لم تكن لتختلف في جوهرها عن تعاليم الصوفيَّة وأسسها لدى ابن نور السماء وغيره من أقطاب الصوفيَّة، فهي من اللدن الربَّاني نفسه، ولكنَّه كان يملك طاقة عجيبة، وكان قادرًا على إحالة نبرها الربَّاني إلى فعل نورانيّ على الأرض. كان يُحيل العشق الإلٰهي إلى عمل أرضيّ مدفوعًا بعشق الله. وعليه، لم يكن أحد ليقدر على إدانته وإقامة حدِّ الكفر عليه.

يسأله طورة

ـ أمَا تخشى منهم يا بدر؟

يُجيبه بهدوء وطمأنينة:

ـ بل هم من يتوجَّب عليهم خشيتي.

ـ قل لي، بحقِّ السماء، من أين لك هذه القدرة كلُّها؟

ـ ليست قدرة بمقدار ما هي إرادة؛ إرادة النور. والأهمّ من هذا

الإفصاحُ عنه والعمل بمقتضاه. أولئك قوم فضَّلوا حَجْبَ نورهم في قلوبهم، فكيف أقوى أنا على هذا؟ كيف أحجب عن الناس بركة منحني إيَّاها ربِّي؟

إنَّه يَرْفُلُ بالطمأنينة التي عزَّزها أكثرَ القاضي حسامُ الدين الفاضلُ، الذي ما إن تناهت إلى مسمعه أصداءُ التحريض على بدر ومضايقته وتشويه سيرته في إثر تلك المواجهة مع ابن نور السماء، حتى أَشْهَدَ تبريزَ، بناسها وسادتها وشيوخها، أنَّ بدرًا، ذلك المبارَكَ من الله، لا يُمَسّ، ولا يتهافت أحد من أئمَّة المتصوِّفة ومريديها على سيرته بأيِّ سوء، في الوقت الذي كان فيه نجله عبد الله تلميذًا نجيبًا ومُريدًا مخلصًا للشيخ بدر الدين.

ليُدرك بدر معنًى جديدًا من معاني وجوده، ألا وهو أنَّ حضوره في هذه الدنيا يجب أن يكون مُقامًا دومًا على دعائم القوَّة والهيبة وأواصرهما.

* * *

اللهمَّ إنِّي أسألك حبَّك وحبَّ مَن يحبُّك، وحبَّ عمل يقرِّبني إلى حبِّك.

بهذا الدعاء النبويّ المفعم بالخشوع، كان يناجي ربَّه بدرُ الدين المجلَّلُ بجلباب أبيضَ ناصعٍ في فجر شتائيّ نابَهُ دفءُ المناجاة والوجد.

في الحديقة كان وحدَه في هدأة تبريز وفجرها يسبِّح الله متفكِّرًا في أحداث يومه الصاخب في الزاوية، راضيًا بما أصاب فيه من إجابة السائلين وإطعام المساكين وإغداقه على حلقات تلاميذه الذِّكْرَ الجليلَ والعلمَ الجزيل.

وما إن عاد من لحظة وجده وصفائه حتى تناهى إلى مسمعيه صدًى واهنٌ لصوت منبعث من البعيد، من ركن ما من أركان تبريز النائمة؛ صوت أنين ضعيف. أصاخ السمع، فإذا هو صوت أنين عزف ناي حزين انبعث من ركن بعيد ليلفّه ويسكنه. نهض من تسبيحه، وخرج من زاويته منقادًا باستسلام تامّ إلى مصدر الأنين. جال يبحث في الطرقات. هام على وجهه. هرول. كان يقترب أكثر فأكثر من الصوت، إلى أن بلغ ناحية خان التجّار الكبير الواقع شماليّ شرقيّ تبريز.

كانت الطرقات خالية لا يرتادها سواه وأنفاسه وهالته النورانيَّة. ازداد وضوح الأنين وصفاؤه. عرج إلى زقاق إلى جانب بناء الخان الضخم، فلمح في آخره بيتًا حجريًّا صغيرًا، له باب خشبيّ متهالك شفَّ من شقوقه نورٌ باهت رافقه أنين الناي الشديد. تقدَّم على عَجَلٍ ووقف أمام الباب حائرًا في أمره عندما اكتشف فجأة أنَّه وقع على حانة أبى روَّادُها الخلودَ إلى سُنَّة الليل. تردَّد في الدخول عندما أحاطت به رائحةُ الخمر المنبعثة من الداخل، بيد أنَّ أنين الناي طغى على تردُّده، فدلف إلى الحانة التي كانت بسروجها الواهنة متَّشحةً بعتمة خفيفة شابت مساحتها الضيِّقة ومنضدتها الخشبيَّة الصغيرة، والتي تحلَّق حولها روَّادُ الحانة المنتشون بخمرهم مصغين بخشوع، محدِّقين في عازف الناي، مُصيخين السَّمْع إلى أنينه الذي بثَّ في نفوسهم الأشجانَ والأشواق. كانوا مأخوذين بالأنغام إلى درجة أنَّهم لم ينتبهوا لاقتحام بدر الغريب لخلوة حانتهم إلَّا بعد عدّة لحظات عندما اقترب هو، بحلَّته البيضاء الشاذَّة عن قتامة الحانة واهترائها، من عازف الناي الشابّ، كأنَّه كان يتوسَّله غرز الناي في صدره ليسكنه الأنينُ أكثرَ، ثم أغمض بدر عينيه ومدَّ ذراعيه إلى جانبيه، ودار حول نفسه ببطء متَّحدًا

في النغم. استغرب الروّاد أمره هذا، إذ هو الشيخ التقيّ الذي يُنير، بأنوار علمه وزاويته، سماءَ تبريز، فكيف يطلع عليهم الآن ليرقص في حانتهم البائسة؟

اشتدَّ الأنين وازدادت وتيرة بدر بالدوران، كما لو أنَّ عازف الناي قد انجذب إلى رقصته متآلفًا بأنغامه مع أنفاس بدر اللاهثة، ثم صرخ بدر هاتفًا بوجد خالص:

«مُزجت روحك في روحي كما تُمْزَج الخمر بالماء الزلال

فإذا مَسَّك شيءٌ مَسَّني فإذا أنت أنا على كلِّ حال[1]».

ثم همدت رَقْصتُه، وزالت رَجْفَتُه، وذهب وَجْدُه. حدَّق، وهو يلهث، فيمن حوله من روَّاد مبهورين محدِّقين فيه وقد شهقت أنفاسهم. رمقهم بحدَّة كما لو أنَّه وَقَعَ عليهم لتوِّه، ثم تأمَّل وجه عازف الناي الذي توقَّف عن أنينه لينخرط في نشيج بكاء خافت في إثر ما شهده من وجد بدر وانخطافه، ثم دنا منه بدر بهدوء وربَّت على كتفه بمودَّة، قائلًا بصوت خفيض مبحوح:

ـ أنت مبارَك بنفحات الله. أنت أنين السماء على الأرض.

خرج من الحانة على عَجَل، ليعدو في الطرقات كأنَّه هارب من شرٍّ عظيم. كان يعدو؛ يبكي؛ يشهق. كان قلبه يخفق بشدَّة، ثم أصابه الإرهاق والاختناق، فتمالك أمره وعَدْوَه ساعيًا لاستعادة أنفاسه. اتَّكأ على جِذع سروة سامقة في طريق عودته إلى زاويته، وضمَّ ركبتيه إلى صدره، ورفع رأسه متأمِّلًا في السماء الفجريَّة، ثم حلَّت عليه؛ رأى وجهها الساحر، بنمشه الخفيف يبتسم له ابتسامة أخَّاذة. رأى مكنونةَ وتجلِّياتِ أنوار الله فيها، والوجدَ، كلَّ الوجد، في عينيها، ثم بكى

(1) الحلّاج.

بخفوت قائلًا بهمس وهو يناجيها:

ـ أنا المعبَّأ بك، كيف أنتهي وأتبدَّد، وكلُّ عشقك فيّ مَداد للحياة؟ فاستهلكيني يا مكنونةُ. أَفرغيني بك لَعَلّي أستعيدك من مثواك، ونصير عشقًا.

ثم نكَّس رأسه بقنوط. خشع للحظات مُقْلعًا عن البكاء، ثم كفكف أثر دمعه ورفع رأسه مجدَّدًا نحو السماء، قائلًا بثبات متوسِّلًا خاشعًا:

ـ يا ربِّي، يا إلٰهي الحبيب، كلَّما اقترفتُ ذنبًا أعود إليك صاغرًا بتوبة تطهِّرني وتزيل عنِّي رِجْسَ الدنيا وأوهامَ الزمان.

ثم قام من اتِّكائه عائدًا إلى زاويته بعد أن أخذت غباشة الفجر بالزوال تدريجيًا. وما إن بلغ عتبة زاويته حتى لفت بصرَه كتلةٌ بشريَّة ضئيلة متكوِّمة في عباءة سوداء فوق العتبة. هاله المشهد، فدنا بسرعة وحذر ليستوضحه، فإذا بصوت أنين خافت جارح ينبعث من الكومة الآدميَّة المتَّشحة بسوادها. تردَّد في مسِّها خائفًا، ثم استجمع شجاعته وأزال طرفي العباءة عنها، ليرى وجه امرأة مخضَّبًا بالدماء، مغمًى عليها. ومن دون أن يتردَّد لحظةً، حملها وأدخلها الزاوية صارخًا:

ـ طورة، استيقظ يا طورة.

طلع الصباح أمام ذهول طورة من أمر هذه الضيفة الغامضة التي كانت على وشك الموت غارقةً بدمائها على عتبة البيت، واستغرابِه من انهماك بدر في تضميد جراحها وكدماتها بلهفة وإخلاص كما لو أنَّها أمّه أو خليلته.

كان قد أخلدها إلى الفراش داخل الحجرة المجاورة لحجرة طورة، الذي لم يُعقِّبْ بحرف، بل اكتفى بأن يساند بدرًا بعجب وتحفُّظ

شديدين وهو يحاول استردادها من غياهب الموت، هي الغائبة عن مساعي بدر لاستعادة حياتها ويقظتها، إلى أن انتهى من تطبيب قد يكفل بوحها بما ألمَّ بها حين تعود إلى رشدها ووعيها.

خرج مرهَقًا يرافقه طورة إلى باحة الزاوية. جلسا على فراش أرضيٍّ، ثمّ قال طورة بامتعاض:

ـ أيُّ مصيبة ألقت بها هنا. أخشى أن...

نهره بدر وهو يستعيد أنفاسه:

ـ حسبك. بل قُلْ أيُّ لحظة مباركة هي تلك التي ننقذ فيها نَفْسًا.

قال طورة موضحًا:

ـ أقصد أنَّ أمرها عجيب. واللهِ إنَّها تخفي أمرًا جَلَلًا.

ـ فلتُخفِ ما تُخفيه. ما دام الله قد شاء شفاءها بإذنه في مقامنا هذا، فهيّا قُمْ نُصَلِّ الضحى، ثم نَسْعَ لتدبير شؤون يومنا هذا.

* * *

وعلى مدار النهار، وعلى الرَّغم من انشغاله بشؤون زاويته، كان يتفقَّد زائرته الغريبة بين فينة وأخرى، متحيِّنًا لحظة يقظتها وحاجتها. كان يطرق الباب متوخِّيًا ردًّا أو همسة منها، فإذا لم تكن ثمَّة إجابة كان يدلف إلى الحجرة لتفقُّدها والإصغاء إلى أنفاسها ليعرف إذا ما زالت في قيد الحياة، هي التي كانت غائبة في أعماق الحمَّى التي أعقبت ما مرَّت به من أهوال.

وفي تلك الأثناء أيضًا، لم تغب تلك الضيفة الغامضة عن بال طورة الذي ظلَّ طوال نهاره مضطربًا مشوَّشَ الذهن على غير عادته، إذ كانت تلك المرّة الأولى التي يسكن فيها تحت سقف واحد برفقة أنفاس أنثويَّة غامضة وثقيلة.

ثم حلَّ المساء وَخَلَتِ الزاوية من التلاميذ والزاوَّر، فقصدها بدر يرافقه طورة.

طرق الباب بهدوء، ثم تريَّث قليلًا في انتظار نداء قد يشي بعودة المرأة إلى وعيها. تناهت إلى سمعيهما همهمٌة واهنة من داخل الحجرة، فنادى عليها بدر من وراء الباب يستأذنها الدخول، فردَّت عليه بصوت واهن وتمتمة غريبة دلًا على عودتها إلى دنيا الأحياء، ثم دلفا بخجل ووقفا إلى جانب الباب المفتوح. أمَّا هي، فقد كانت تختلس النظر إليهما من تحت غطائها. قال لها بدر مطمئنًا:

ـ نحمد الله على سلامتكِ وتعافيك.

همهمت بصوت مبحوح من دون أدنى إشارة قد يفهمان منها شيئًا، الأمر الذي أثار خشية طورة الذي كاد يقول لصديقه إنَّ المرأة ممسوسة أو مجنونة. دنا منها بدر مستوضحًا تمتماتها، ساعيًا لطمأنتها من جديد، فأزاحت هي طرف الغطاء عن رأسها، كاشفةً عن وجهها المذعور والمرهَق من شدَّة الكدمات وزرقة آثارها، ثم قالت بضع كلمات بصوتها المبحوح، فتهلَّلت أسارير بدر الذي قال بالفارسيَّة:

ـ أنت فارسيَّة، إذن. حسنًا، ما عليكِ. هدِّئي من روعك، فأنت في أمانٍ هنا.

تأفَّف طورة مقتربًا من بدر قائلًا باللغة ذاتها التي يُجيدها هو أيضًا:

ـ ما دمتِ قد نطقت، فبُوحي لي بسرِّك، إذن.

رمقه بدر معاتبًا، ثم قال موجِّهًا الحديث إليها بالمزيد من الطمأنينة والراحة:

ـ قومي من فراشك، هداك الله، لتتناولي ما يساعدك على

الشفاء، فقد أعددنا لك حَساءً سيدفِّئك ويردُّ إليك عافيتك.

سألته بصوت طفوليّ ناعم بريء:

ـ مَن منكما بدر الدين؟

ابتسم بدر الدين في حين تساءل طورة مستغربًا:

ـ وما حاجتك إلى بدر الدين؟

سترت وجهها من جديد تحت الغطاء مذعورة من سخط طورة، فقال لها بدر وهو ينزع الغطاء عن رأسها بِرفق، متجاهلًا اضطرابَ صديقه اللّامفهومَ:

ـ أنا بدر الدين، وكلّ ما تطلبينه مُجاب.

زفر طورة بضيق في أثناء خروجه من الحُجرة ليُعِدَّ لها الطعام، في حين سألته بوهن وهي تعتدل في جلستها:

ـ حتى إن طلبت اللجوء إليك والسكن لديك؟

ـ واللهِ لو تطلبين منّي الرحيل عن هذا المقام لتسكنيه أنت فسأفعل.

حدَّقت فيه للحظات مأخوذة بطلَّته الآسرة وسريان طمأنينة في نفسها، ثم نكَّست رأسها مُحيطة وجهَها بكفَّيها، وانخرطت في بكاء مرير خافت. حار بدر في أمر هذه الفتاة الغريبة الأطوار، ثم أخذ في مواساتها وتهدئة روعها بكلماته المسكِّنة والمصبِّرة، إلى أن هدأت وأفضت بخواطرها وأسباب كدماتها وجراحها. هي نرجس الجارية المملوكة لأكبر تاجر حرير في تبريز، وقد اشتراها وهي طفلة صغيرة من سوق للنخاسة ليُلحقها بجواريه وغلمانه داخل جناح حريمه في قصره المنيف. وما إن كبرت وازدان بدنها بمفاتنها حتى انهال عليها بشهواته المستعرة كدأب الأسياد بعبيدهم، مَثَلُه في افتراعها كَمَثَلِ الذي

يربّي شاةً صغيرة ما إن تسمن حتى يذبحها ويشوي لحمها الشهيّ ليأكله ويزدرده بكلّ نهم وتوحُش. بيد أنَّ أمور الصبيَّة لم تقف عند هذا الحدّ، فلم يعد سيِّدها وحده يتمتَّع بجسدها، بل باتت مُلكًا مشاعًا لأصحابه في ليالي سمره وخلاعته داخل قصره. كان يحملها على مضاجعتهم، كما لو أنَّها هبة يرسلها بين ليلة وأخرى إلى أحد أصدقائه، وهذا ما لم تحتمله بجسدها النحيل الواهن، وخصوصًا في الوقت الذي كان سيِّدها لا يجامعها إلَّا وهو منهال عليها بسوطه وقبضاته، إلى أن تلمع شهوة الاكتفاء في عينيه عندما كان يرى دمها الساخن يخضِّب بدنها الناصع وجمالها الشهيّ الذي ما لبث أن بهت وذوى في إثر بطش الأسياد به، برغباتهم ووحشيَّة شهواتهم، إلى أن جاء اليوم الذي سمعت فيه نرجس من أحد غلمان القصر عن حكايات الناس وأقاويلهم بشأن درويش مبارك يُدعى بدر الدين، يلجأ إليه المساكين وذوو القلوب المستضعَفة، وقد عمّ تبريز ببركاته وأنوار علمه، بالإضافة إلى حظوته لدى الأمير حسام الدين الفاضل. وقد دفعها هذا الأمر لتزيل عنها رجس قيود سيِّدها في إثر ليلة ليلاء دامية، فارَّةً من فراشه المدنَّس ودناءة رفقاء سمره، لتجد نفسها مغمًى عليها فوق عتبة الزاوية التي يقطنها بدر الدين.

كان يصغي إلى قصَّتها المأساويَّة بقلب يعتصره الأسى، يتأمَّلها بتجهُّم متألِّمًا وهي تلقي بسذاجة وبراءة في حضرته فحشَ قولها اللامقصود. بدا مجروحًا بما أفضت إليه به من مصائب شديدة وكبيرة على روحها الصغيرة وقلبها الهشّ وجسدها النحيل الواهن، من دون أن يستغرب للحظة فظاعةَ زمانه التي تُسيِّج أسواق النخاسة في أصقاع الدنيا كافَّة. هاله كلامها على القذارة والدناءة، هي التي لم تكن متحفِّظة في بوحها، وخصوصًا بعد خروج طورة من الحُجرة.

كان يستمع مصغيًا منجرفًا إلى نجدتها، هي التي أعادته إلى ويلات الماضي؛ إلى القاهرة وقصورها ومجالسها وغنائها ومكنونةَ. آه، من مكنونة. ولكنَّه ما لبث أن عاد إلى وعيه عندما تنحنح طورةُ عائدًا وهو يقدِّم الحَساء وبعض الخبز إلى الفتاة التي شكرته بتحفُّظٍ شديد، ثم انخرطت تأكل طعامها بنهم كطفلة جائعة. انتبه طورة لوجوم بدر، فسأله بريبة عائدًا إلى اللغة العربيَّة:

ـ ما بك. ما الذي رمتك به هذه الفتاة؟

أجابه بدر بحسرة في أثناء تأمُّله إيّاها وهي تأكل:

ـ فظاعة الدنيا وجَوْرُ أسيادها.

* * *

في صباح اليوم التالي، توجَّه بدر إلى حجرة نرجس حاملًا بيده صُرَّةً قماشيَّة. ألقى عليها تحيَّة الصباح قائلًا بحرج شديد:

ـ أنت تعلمين بأنَّ هذه الزاوية يؤمُّها الرجال، ونحن لا دراية لنا بشؤون النساء وحاجاتهنَّ. فأنا وطورة...

قاطعته بمرح مشوب بسخرية أفصحت عن تعافيها من آخر أعراض الحمَّى:

ـ طورة؟ اسمه غريب.

أردف بدر كأنَّه لم يسمعها وهو يمرِّر إليها صُرَّةَ القماش:

ـ أنا وطورة سنتركك لشأنك الآن. هذه بعض الملابس، انتقي منها ما يناسبك إلى حين توفير ما يعجبك وينال رضاكِ. فقومي الآن وانفضي عنك رقادك.

قالت بخفر وكسوف:

ـ أخشى أن أسبِّب لك المتاعب بلجوئي إليك، يا سيِّدي.

ابتسم بدر بحنوٍّ، ثم قال بحزم:

ـ منذ اليوم هذا، سيكون هذا البيتُ مقامَك، ولن يجرؤ أحد على المساس بك ما دمتِ في ظلّي. فمنذ أن وطأتِ عتبة مقامي أصبحتِ حرَّةَ نفسك وأمرك.

هتفت بسرور:

ـ حقًّا؟ هل أنا حرَّة الآن؟ لست جارية؟! لست مملوكة لأحد؟

تهلَّلت أساريره بسرورها، ثم قال:

ـ قولي لي: إذن، هل اسمك نرجس حقًّا؟ أقصد هل هو اسمك الحقيقيّ؟

حدَّقت فيه ببلاهة من دون أن تدرك مقصده، ثم قالت متلعثمة:

ـ أنا نرجس. هذا هو اسمي. هكذا ينادونني.

أدرك بدر أنَّها لا تعرف اسمها الحقيقيَّ. وكيف تعرفه، وهي الناشئة في سوق النخاسة؟ ثم قال بأسًى:

ـ حسنًا، سيصبح اسمك زينب. ما رأيك؟

ردَّدت الاسم كأنَّها تُحدِّث نفسها بصوتها الطفوليّ:

ـ زينب... زينب. اسم جميل. فليكن، إذن، اسمي زينب يا سيّدي.

ردَّ بثبات في أثناء خروجه من حجرتها:

ـ زينب، أعدِّي نفسك غدًا. ستلتحقين بما ينفع دنياكِ ويُنير لك دربك.

ثم توقَّف عند الباب ملتفتًا نحوها:

ـ كما أرجو منك ألّا تناديني بسيّدي، بل قولي: معلّمي.

أجابت بحماسة ومرح:

ـ حسنًا، يا سيّدي، أقصد: يا معلّمي!

* * *

جمد طورة في مكانه متوقّفًا عن السير، ثم رمق بدرًا بغضب شديد في أثناء تجوُّلهما معًا في أسواق تبريز، ثم قال:

ـ واللهِ، إنّي أراك مفتونًا بما ينغّص عليك عيشك ومقامك جاذبًا إليك كلَّ لعنات الدنيا. قل، بالله عليك، ماذا سنقول للناس عندما يعلمون بإيوائك في زاوية علمك وذكرك جاريةً فارَّة؟

جذبه بدر من يده إلى جانب طريق السوق المكتظَّة بالناس، ثم قال بهدوء:

ـ سنقول إنَّ الله رأف عليها وعتقها من قيود الدَّنَس والهوان.

ـ وهل الدنيا بهذا القول اليسير يا بدر؟ وهل سيقنع بمسعاك هذا الذين واجهوك بالأمس القريب بعراقة تعاليمهم؟

ـ لا تَخَفْ يا طورة. حسبك الله، فهو نِعْمَ المولى والنصير.

تظاهر طورة بالهدوء والانصياع لقول بدر، بيد أنَّه، في سرِّه، كان قَلِقًا، بل خائفًا من تداعيات أمر هذه الفتاة؛ فقد كان على يقين بأن تبريز كلَّها ستتداول غرابةَ سيرتها وأمرها، هي الساكنة في زاوية تُعقَد فيها حلقاتُ العلم للرجال. غير أنَّ تسليم بدر بالأمر، كأنَّه ليس مدركًا عواقبَه، أغاظ طورة الذي رآه مهتمًّا بالصبيَّة وتعليمها.

هكذا يريد بدر أن يُحيل نرجس من جارية مسفوكة البراءة والمصير إلى امرأة مدركة لنفسها ودنياها من حولها. لقد شكَّ طورة

للحظة في أنَّ بدرًا يبحث فيها عن آثار ماضٍ بعيد، عن أثر يشي بمكنونة. فهل كانت عناية بدر بالتي أسماها زينب، سعيًا نحو إصلاح عطب قلبه واسترداد مكنونة، ولكن على هيئة زينب؟

انتابت هذه الأسئلة طورةَ بمرارتها من دون أن يقوى على مواجهة صديقه بها.

لم يدم تسكُّعهما طويلًا في أنحاء تبريز، إذ عادا لإعداد الزاوية لاستقبال التلاميذ والمُريدين والزوَّار. وما إن دلفا إلى باحة البيت حتى فاجأتهما زينب بحسن استقبالها وإطلالة ساحرة أزالت عنها آثار مصيرها البائد وآلامه. كانت واقفة بخفر عند باب المجلس، مرتديةً ثيابًا ذكوريَّة، تمثَّلت في سروال أسود فضفاض وقميص بنِّي اللون ذي كمَّين طويلين، يغمر جسدها، وتغطِّي رأسها بخمارٍ أبيض. وكانت قد اغتسلت وتطيَّبت وتأنَّقت بأنوثتها المستَرَدَّة من براثن ماضيها القريب البائس، تكاد آثار الكدمات الباهتة تزول عن وجهها الأبيض الناصع. عيناها سوداوان واسعتان، بأنف دقيق وشفتين رقيقتين وجبين لامع، تنمُّ عن جمال هادئ مستمَدّ من عافية انعتاقها. ألم يقل لها بدر، وهو يداوي جراحها، إنَّها باتت حرَّة وسيِّدة نفسها وقَدَرها. حدَّقا فيها مأخوذَين بحضورها الخلَّاب، ثم دنا منها بدر وقد تهلَّلت أساريره، في حين كان طورة واجمًا مضطربًا.

ثم قال بدر بانشراح:

ـ ها قد أشرق وجهك وعادت إليه نضارته.

أجابته بكسوف وهي تنكِّس رأسها:

ـ الفضل يعود إلى ما أَحَطْتني به من رعاية واهتمام، يا معلِّمي.

قال بدر وهو يلتفت نحو طورة:

ـ طورة، اقترب لتشهد استرداد زينب عافيتَها، فهي ستغدو تلميذتك.

صاح متسائلًا بارتياع:

ـ ماذا؟! تلميذتي؟!

* * *

ما بين جارية وحرَّة، وقصر وزاوية، وسيِّد جائر وشيخ عاشق، نشأت زينب التي كان اسمها نرجس، هانئةً بأجواء مفعَمة بالسكينة والأمان والتزامها حياةً جديدة غريبة عنها؛ حياة العلم والتلمَذة والاجتهاد على يد طورة الذي دفعه بدر إلى الاهتمام بها وتعليمها، ليزول بالتدريج حَرَجُ طورة واضطرابه من حضورها وتردُّد أنفاسها في أروقة الزاوية، ولتأخذ هي العلم على يديه.

كان طورة مقدِّرًا، في انتقائه وتحضيره دروسَه معها، سذاجةَ تفكيرها وبراءته وهي الأمِّيَّة رُغمًا عنها، الجاهلةُ بأمور الحياة وأحوالها من حولها، فعلَّمها الكتابة والقراءة بلغتها الأمّ الفارسيَّة، ثم انطلق بإفادتها بأصول لغة القرآن الكريم، اللغة العربيَّة، متوخِّيًا البساطةَ واليسر في تلقينها الآدابَ والعلوم وإفهامها إيّاها، لتتلقَّف العلم بلهفة، مجتهدة، سعيدة بردِّ الجميل لمعلِّمَيها، بدر الدين وطورة، بحيث كان بدر يلحظ تقدُّمها في مسالك علمها الناشئ وإصرارها على الاجتهاد، إلى أن أقنع طورة بضرورة إلحاقها بحلقة العلم العموميَّة في رحابة المجلس وسط التلاميذ، بعد أن كان طورة يعلِّمها وحدها في جلسات خاصَّة عقب رحيل تلامذته وخلوِّ الزاوية من الزوَّار. وقد فاجأ بدر الدين تلاميذه بهذه التلميذة الطارئة عليهم بأنوثتها، والمنخرطة وإيَّاهم في حلقات العلم، فكيف بحقِّ السماء تجرَّأتَ على هذا يا بدر الدين،

مخالفًا أعراف الدنيا وتقاليد تبريز؟

كيف جعلت من جاريةٍ مريدةً وتلميذة نجيبة أبهرت مَن حولها بخلقها وأدبها واحتشامها في حلقات ذِكْرك وعلمك؟!

غير أنَّ ما كان يخشاه طورة ويحذِّر بدرًا منه، قد وقع، بعد أن انتشرت في تبريز، كالنار في الهشيم، سيرةُ نرجس التي صارت زينب. وبات الناس يتساءلون: مَن تكون نرجس هذه؟

يقولون إنَّها بغيّ، والعياذ بالله، كانت قد هربت من دار الفسق إلى زاوية بدر الدين. كلَّا، بل يقولون إنَّها زوجته، وجاء بها من القاهرة بعد استقرار مقامه هنا. كلَّا، بل هي من أعمق أعماق تبريز، جارية تاجر الحرير الذي جُنَّ جنونه عند اختفائها، وهام باحثًا عنها في الأنحاء.

وها هو يومك الذي كنت تخشاه يا طورة قد حلَّ. يوم عاصف ببرده ومطره، حلَّ فيه، في زاوية بدر الدين، تاجرُ تجَّار الحرير، ابنُ واصل الدين، شاتمًا لاعنًا، تصحبه عصبة من أصحابه وغلمانه في موكب لا يوحي بسلام، بل بمعركة عنيفة قد تطيح بدرًا وزاويته:

ـ أين هذا الأفَّاق الذي يدَّعي التصوُّف والإيمان؟

وحدها زينب التي داهمتها في غمضة عين نرجسُ ومصيرها الأسود، ارتجفت حين تناهى إليها صوتُ الذي كان سيِّدَها ومولاها. ارتجفت منسحبة من حلقة طورة الذي تفاجأ بدوره بهلعها الشديد حين هرعت إلى حُجرتها.

ازدادت الجلبة في الخارج صخبًا، وطالب الناس المتجمهرون بقدوم بدر إليهم، فلم يتوانَ عن الخروج إليهم، منسحبًا من المجلس على عَجَل:

ـ ماذا هناك؟ ما شأن القوم؟

باغت ابن واصل الدين بدرًا، جاذبًا ياقته بعنف:

ـ شأني في جاريتي التي اختطفتها يا عدوّ الله.

أفلت بدر نفسه منه ودفعه إلى الوراء بشدَّة، قائلًا بسخط:

ـ ويحك، أجننت يا هذا باعتدائك عليّ في مقامي؟

وما إن انتهى بدر من ردِّه، حتى جاءه طورة ومعه المريدون والتلاميذ الغاضبون، فأحاطوا ببدر، يحمونه بأجسادهم، ليتدافع الجَمعان أمام الزاوية إيذانًا بوقوع شجار دامٍ. طغى صراخ بدر على الهرج القائم ناهيًا أصحابه عن التشاجر مع هؤلاء الغرباء، ثم خرج من تلك الدائرة التي أحاطه بها تلاميذه قائلًا بحزم:

ـ قلت لك ما شأنك يا هذا؟

أجاب التاجر المحتمي بجماعته حاشرًا جسدَه وسطهم:

ـ جئت أستردّ جاريتي نرجس.

تقدَّم بدر من التاجر بثبات، ثم صاح مهدِّدًا:

ـ إنَّ التي تسكن زاويتي هي شقيقتي زينب. فإذا ما لفظت اسم نرجس مرَّة أخرى واللهِ لأقتلنَّك وأدفنك في مكانك هذا.

حتى طورةُ سرت في أوصاله قشعريرة رهيبة من تهديد بدر والرعب الذي أنزله في صدر التاجر وصحبه، فقال وهو ينسحب معهم مرتدًّا عن بدر مهدِّدًا:

ـ سأشتكيك إلى الأمير. هو وحده من سيُنصفني ويردّ إليَّ حقِّي.

لم يعقّب بدر على قول التاجر، بل تمالك نفسه وكأنَّ شيئًا لم يحدث، ثم التفت نحو أصحابه موجِّهًا حديثه إلى طورة:

ـ هلمُّوا إلى ذِكْركم وعلومكم يا إخوتي، هيَّا.

عاد التلاميذ برفقة طورة إلى الداخل يملأهم الذهول والاضطراب من الشجار، وانقلاب حال معلِّمهم الهادئ إلى وحش كاسر في غمضة عين.

وحده عبد الله لم يلتحق بحلقة العلم، وظلَّ واقفًا حائرًا في أمره، ثم تقدَّم من بدر قائلًا له بتأثُّر وصوت خفيض:

ـ لا عليك، يا معلِّم. لن يجرؤ هذا الآثم على المساس بك.

فأجابه بدر، وهو يربِّت على كتفه مبتسمًا ابتسامةً ساحرة أزالت عنه غضبه:

ـ بارك الله فيك يا عبد الله.

لم يكن ليفوت بدر الدين سرورُ عبد الله، نجلِ الأمير، بحضور زينب في رحاب الزاوية؛ سرور مهذَّب، وشّاه بنظرات ساهمة مختلسة من حلقات العلم، كان يرمي بها زينب على غفلة منها ومن التلاميذ. وحده بدر كان يُدرك العبرة في تلك النظرات. وكيف لا؟ أليس عاشقًا؟

توجَّه بدر إلى الداخل قاصدًا زينب ليطمئنّ عليها ويهدِّئ من روعها. طرق بابها قائلًا بتوسُّل:

ـ افتحي، يا زينب، لا تخافي، فقد رددته خائبًا.

لكن زينب لا تُجيب. كانت غارقة في أسمال نرجس وماضيها الدنس.

* * *

في المساء، وكما توقَّع بدر، زاره الأمير حسام الدين الفاضل برفقة ولده عبد الله وحاشيته، يتفقَّد أحوال زاويته وأمورها:

ـ يا أبا عبد الله، ألا تحلُّ بعطفك وكرمك إلَّا إذا ألَمَّ بي جهلُ هذا الزمان؟

أجابه القاضي بغبطة وهو يجلس إلى جانبه متصدِّرَين رحابة المجلس:

ـ بل الحرص على حسن مقامك عندنا وصونِ عهدنا ودَرْءِ الكيد والحسد عنك. فأبشِرْ أيُّها المعلِّم الجليل، لن يتعرَّض لك ابن واصل ولا غيره، بل سأحمله صاغرًا ذليلًا إلى هنا كي يطلب صفحك.

ردَّ بدر برباطة جأش تليق بحضوره ومجلسه:

ـ معاذ الله أن يُذَلّ أحد بسببي. وقد سعيت قَدْرَ صبري لاجتنابه طالبًا ذهابه وانصرافه عنَّا، ولكنَّ جهله وغيظه أعمياه وحملاه على التطاول بإساءة طالت مقامي.

ـ ما عليك، فما جئناك هذا المساء إلَّا لإزالة أثر ما أصابك من ناقصة بسبب ذلك الجاهل المتهوِّر.

وما إن غمره بدر بامتنانه وسروره بزيارته له، حتى تهلَّلت أسارير الأمير بانشراح، قائلًا:

ـ لقد دقَّت طبول الحرب. وتبريز بأكملها تستعدّ بهمم مشحوذة لاستقبال جيش سلطاننا الأعظم تيمورلنك، حماه الله ورعاه.

انقبض صدر بدر من تحوُّل الأمير المفاجئ وقذفه لنبأ تيمورلنك في صدر المجلس، ثم أردف قائلًا:

ـ سيُمضي الشتاء في ربوعنا وسهلنا الكبير إلى حين زوال الصقيع وصفاء السماء، ثم سينقضُّ على سلطان الروم بايزيد الذي اغترَّ بنصره وفتوحاته في غرب الدنيا حتى تطاول علينا بدعم أعداء سلطاننا وحمايته لهم.

كان الأمير ينثر الحديث في فضاء مجلس بدر، كما لو أنَّه يخطب خطبة حماسيَّة يشدُّ بها عزائم الناس ويشحذ هممهم، ثم عقّب بدر الدين مدَّعيًا السرور، مخفيًا في سرِّه انقباضًا رهيبًا يعتصر قلبه:

ـ أدام الله الخان الأعظم فاتحَ الدنيا وسيفَه وسلطانَه، وحفظه لنا. فهل صَدَقَت حقًّا أماراتُ الحرب وبانت؟

ـ أجل، واللهِ إنَّها الحرب. وستشهد يا بدر الدين الجيوش وعظمة السلطان.

ثم انساق المجلس إلى أقاويلَ وحكايات عن الحروب وأصولها، بالإضافة إلى قصص تداولت سيرة تيمورلنك، تماهت في تأثيرها الساطع في الحضور مع قصص الأساطير.

عندما شارف الليل على التطاول بعتمته وبرودته، انتهت الجلسة بسرور الحاضرين وتأهُّبهم للرحيل، بحيث رافق بدر الأميرَ إلى فرسه، ثم مال عليه ليسأله بخفوت ذلك السؤال الذي يعتمل في صدره منذ حلول الأمير عليه:

ـ وكيف أصلح الأمير العادل أمر ذلك التاجر الخسيس؟

أجابه الأمير بسرور بلا أدنى تردُّد:

ـ لقد اشتريتها منه. دفعت إليه ثمنها، وأعتقتها لوجه الله تعالى، فهنيئًا لك بها وبثوابها.

ارتدَّ بدر إلى الوراء كما لو انَّ سيوف الدنيا كلَّها قد غُرزت في صدره، لكنه تحامل على ألمه الذي تسبَّب به جواب الأمير، ثم قال بابتسامة متهالكة:

ـ جزاك الله خيرًا، يا مولاي، على حسن تدبيرك.

لم يَبُحْ بدر بتدبير الأمير في أثناء تثبيت فؤاد زينب بالطمأنينة،

وزوال المخاطر ومآسي ماضيها. كان طورة جالسًا إلى جانبه شاردًا بوجومه وذهوله، عندما قال لها بدر وهي جالسة قبالتهما في مجلسه عقب خلوّه من سمر الأمير وحاشيته:

ـ لقد قلت لك إنَّ شرًّا لن يمسَّك ما دمتِ في ظلِّي.

سألته بجزع ولهفة:

ـ ألن يهدِّد مقامي هذا من جديد يا معلِّمي؟

أجابها باقتضاب، لمَّح فيه إلى ضرورة انسحابها من مجلسه وانصرافها إلى شؤونها الخاصَّة، لتستأذنهما بأدب وحشمة عائدة إلى حجرتها.

التفت بدر نحو طورة ورمقه مستغربًا وجومَه:

ـ وما بالك أنت. هل ثمَّة ما يهدِّد مقامك هنا أيضًا، أم سينقضّ عليك تيمورلنك؟

زفر طورة بحرارة قائلًا:

ـ تأتي عليّ أوقات شديدة أعتقد فيها للحظة أنَّني لا أعرفك. كأنَّني ألتقيك لأوَّل مرَّة. فتارة أراك شيخًا تقيًّا، ومَرَّةً عاشقًا هائمًا، وطورًا درويشًا مجذوبًا، وحينًا وحشًا كاسرًا وضالًّا. أعلمني، بالله عليك، من أنت؟

ابتسم بدر ابتسامة باهتة، ثم قال متنفّسًا الصعداء في إثر عدم خوض صديقه فيما أفادهما به القاضي من أنباء تيمور وحربه القادمة:

ـ أنا كلُّ هؤلاء. ولكن دعك من أمري الآن. لنفكِّر في أمر هذه الفتاة.

ـ وما أمرها؟

أجاب بدر بمرارة:

ـ لقد أصبحت حرَّة حقًّا. ولكن، أتعلم كيف؟ ليس ببركتي ولا بمنزلتي ولا بزاويتي، بل بمال الأمير الذي أرضى تاجر الحرير بشرائها منه وإعتاقها. لم أعتقها أنا، يا طورة، بل مالُ الأمير.

ردَّ عليه طورة مواسيًا:

ـ وما الذي كنت تعتقده أنت؟ ألا يكفيك أن يكون جزاؤك عند الله عظيمًا؟ وسيكرمك ربّك بحسن صنيعك. وأمَّا في الأرض، حيث أسواق النخاسة والنجاسة، فللانعتاق ثمنُه المقدَّر، وثمن زينب هو دراهم الأمير التي أخمد بها جشع تاجر الحرير. هذا دأب الدنيا يا بدر. وحدهم العارفون أمثالك، قلوبهم حرَّة منعتقة من أدران الدنيا. وأنت الذي مهَّدت لانعتاق زينب على الرَّغم من أنَّك لست مَن أعتقها. ولكن، قل لي، ما سرّ لهفتك هذه واهتمامُك العميق بها؟

بحديثه هذا، كان طورة يداوي جراح بدر، مزيلًا عنه جزعَه ومآسيه؛ بدر الذي كان ينتظر اللحظة التي سيسأله فيها طورة هذا السؤال الذي يخبِّئ في طيَّاته ألفَ تطلُّع واستفسار وتلميح، فأجابه بدر بهدوء:

ـ كلهفتي عليك.

ـ ماذا تعني؟

سحب بدر نَفَسًا عميقًا، ثم أطلقه محمَّلًا بالأسى:

ـ زينب، لن تكون مكنونة أبدًا. ومكنونة لم تكن زينب يومًا. والله، يا طورة، ما أقصد من وراء رعايتي لها إلَّا الرضا، كلَّ الرضا من الله. ولي من وراء ذلك شأنٌ دنيويّ لا يخصّني أنا.

سأله طورة بلهفة:

ـ وما هو؟

أجابه بدر بلا تردُّد:

ـ سأزوِّج زينب بعبد الله، نجل الأمير.

ارتجف طورة متخبِّطًا في جلسته، ثم صرخ قائلًا:

ـ أيُّ شأنٍ أحمق هذا؟

ـ أَخْفِضْ صوتك كي لا تسمعك، أيُّها المجنون. ما بك، انتفضتَ هكذا كأنَّني داهمتك بأفاعي الجحيم؟

عاتب طورة صديقه مستعيدًا هدوءه:

ـ وكيف، بحقِّ الله. أما تدري مقام عبد الله وأبيه؟ هل سترغمه على الزواج بامرأة لا تعرف اسمها ولا أصلها؟

أنَّبه بدر كاتمًا صرخةً مريرة:

ـ ويحك، أتعيِّرها بأصلها بعد كلّ هذا الطهر الذي حازته هنا وأنار لها درب الحقّ والحقيقة؟

فرماه طورة بسؤاله الجارح الأخير:

ـ فلماذا لا تبني بها أنت، إذن؟

جمد بدر للحظات، ثم قال مستعيدًا أساه ورجاءه:

ـ هي له يا طورة. لقد لمحت العشق في عينيه منذ أن حلَّت في الزاوية.

قال طورة بنبرة خافتة طغى عليها الاعتذار:

ـ ونِعْمَ التدبير يا معلِّم. ولكن، هل سألت الفتى في هذا الشأن، وماذا سيكون رأي أبيه في هذا؟

أجاب بدر وهو يقف متَّجهًا صوب الباب مردِّدًا بسرور:

ـ وحقِّ مَن خلق الأرض والسماء، هي له.

ران صمت ثقيل في أجواء المجلس، مشوبٌ بحيرة طورة وعجبه من أمر صديقه الذي لطالما فاجأه بمساعيه الغريبة ونيّاته التي تتجلّى فجأة في إثر تأمُّل عميق مشبَع بالأماني والتطلُّعات، ومحفوف بكشف ما.

لم يفكِّر طورة في نفسه. لم يسأل لماذا لم يعرض عليه بدر الزواج بها؛ طورة الذي حرَّم على نفسه سُنَّة الدنيا ما دام بدر الدين لن يخضع لها، معاهدًا نفسه على أنَّه لن يتزوَّج ما دام بدر لا ينعم ببَنيه من حوله.

* * *

في صباح اليوم التالي، وقبل أن تشرع الزاوية في دروسها وحلقاتها مكتظَّة بالتلاميذ، استدعى بدر الدين عبد الله إلى حُجرته. وما إن حلَّ هذا الأمير في الزاوية، حتى تأمَّله بدر بعمق للحظات، ارتبك واحتار خلالها من أمر معلِّمه الصباحيّ هذا، ثم قال بدر:

ـ إنِّي ألمح نورًا يشعّ من وجهك يا عبد الله لم أكن ألمحه من قبل أن تحلّ علينا تلميذتنا زينب.

تململ عبد الله من شدَّة الحَرَج، فاحمرَّ وجهه وقال متلعثمًا:

ـ ما هو إلَّا نور أستمدّه من بهاء علمكِ يا معلِّمي.

قاطعه بدر قائلًا بودٍّ:

ـ بل هو نور العشق.

نكَّس عبد الله رأسه خجلًا من قول معلِّمه الذي أردف قائلًا:

ـ هي لك يا عبد الله: زوجة صالحة. فما قولك؟

تنهَّد عبد الله بحرارة، ثم قال بصوت أجشّ مرتبك:

ـ ونِعْمَ القولُ قولُك يا معلِّمي.

قال بدر وقد انشرح صدره مداعبًا:

ـ ستصبحان شيخين عاشقين في رحاب الزاوية.

سأله بخجل أفصح فيه موافقته وإفصاحه عن عشق زينب:

ـ وهل ثمَّة شيخات في العشق، يا معلِّم؟

صاح بدر، لا ليسمع عبد الله، بل زينب الواقفة بباب الحجرة الموارب بعد أن أوعز إليها بدر بذلك:

ـ أما علمت بأنَّ «المرأة في الطريق إلى الحقّ رجلٌ»[1].

وعندما لمحها عبد الله، أخفض بصره مكسوفًا وهو يسأل بدرًا بخفوت:

ـ أَمَا تسألها أوّلًا؟

ـ لقد فعلت، وغدًا سأعقد قرانكما وأباركه.

وأنت ستقوم بك الدنيا يا بدر. ستقوم. ستقوم بك الدنيا، إذ يلفّه الهمس ويُحيط به بعناق حميم انبعث من أيادي الغيب، ليغيب عن زاويته البهيَّة. فنفسه الهائمة لم ترضَ ولم يذهب تأهُّبها بعد، فبعد قليل سيشهد ألوية الحرب منعقدةً، وبيارقَ تيمورلنك خفّاقةً في سهل تبريز، متأهّبةً لحرب لن تبقي ولن تذرّ.

---

(1) فريد الدين العطّار.

الفصل الثامن:
اجتهاد الأحلام

نهار خلَّاب أنزلت فيه الشمس دفئًا بدَّد برد الشتاء التبريزيّ.

كان النهار الخامس من لجوئه إلى البرِّيَّة سعيدًا بما احتواه في زاويته من عشق ناشئ بين زينب الهاربة من مصير بائس دامٍ، وعبد الله نجلِ أمير تبريز ذي المقام الرفيع والأصل النبيل.

لقد دبَّر شيخ العاشقين أمورَ العشق ما إن لمحه في زاويته، هو الذي لم يكن ليعبأ بالمقامات وأصول الأمراء وقصور الترف والجاه، إذ لمح عشقًا فرعاه مدفوعًا بإحقاق أحلام زينب بحياة كريمة ومقام طيِّب، وأحسَّ بنسائمه عند عبد الله الذي لبَّى نداء قلبه من دون أن يخوض في أصل زينب وماضيها، بل خاض في قلبها وأحبَّها في رحاب الزاوية، ليرعاهما بدر في ظلِّ مُرَقَّعته مبارِكًا عشقَهما بزواج هانئ. هذا هو العدل الذي لطالما تمنَّاه بدر، غير أنَّه كان عدلًا مشوبًا بشيء من السرِّيَّة حين أشار على العاشقين بأن تظلَّ زينب معزَّزة مكرَّمة

في زاويته الرحبة، على أن يخلد إليها عبد الله بين الفينة والأخرى من دون أن يهجر قصر أبيه، لأنَّ أباه الأمير لن يُبارك ـ ويرضى ـ زواجًا لا أصل فيه ولا شرف، داخل أعراف حكمه وتقاليد عرشه الأميريّ، إلى أن يلوح الأفق مبشِّرًا بمباركة أبي عبد الله له، حين يحنّ قلبه إلى حفيد من صلب وحيده في الوقت الذي لم يكن يسعى فيه بدر لمخاصمة الأمير بسبب هذا الزواج، فهو وليّ نعمته ومنعته في تبريز.

كان قد عقد قرانهما بسرور غامر لم يلحظه فيه طورة من قبل أبدًا؛ سرور كان يحلم به هو برفقة امرأة غابت في غياهب الشهوة والجَوْر منذ زمن.

كان معطوب الفؤاد منذ مكنونة، لا يخفق قلبه لامرأة، بل لسماء ليندفع مشغوفًا بالسطوع. لم يكن بدرًا، بل كان شمسًا سطعت في سماء تبريز، فانغمس حتى أذنيه في زاويته يعلِّم ويرشد ويحثّ ويُؤوي ويبارك، متمدِّدًا فوق محفَّة حلمه التي تسندها دعائم حقيقة توغُّله في درب التوحُّد والفرادة.

هائم في عصيرته يتجوَّل برفقة الأشجار في شرقيّ تبريز. كان يستلقي فوق الربوات والتلال. يتَّكئ على شجرة؛ يفترش صخرة؛ يتوسَّد أعشابًا طريَّة، ثم يتأمَّل في الأفق البعيد كأنَّه ينتظر حلول حبيب غائب. يترقَّب بشوق عارم. ولِمَ لا يترقَّب في إثر ما أفاده به أمير تبريز من حرب قادمة وجيوش هائلة يقودها سلطان السلاطين، ستُقيم عاقدة عزمها وألويتها في سهل تبريز الشاسع؟

كان بين الفينة والأخرى يحدِّق في أعالي الشرق وأفقه المترامي، مدقِّقًا نظره في سحابة غبار قد توحي بطليعة الجيش، مصغيًا إلى صدى قرع طبولٍ تُرقِّص الخيول على وقع أنغام الحرب.

لم يكن إحقاق العشق في زاويتك هو سببك الأهمّ الذي قادك إلى البريَّة، يا بدر، يسأل نفسه ساخرًا.

النفس التي تلعنه تارة، وتباركه تارة أخرى، منصاعًا لها ولأوامرها: نفسه، نوره، همسه، هواتفه. كلّ ما لفَّه وتسلَّل إليه وسكنه يدفعه الآن نحو أعلى تلال تبريز الشرقيَّة لينتظر قدوم الجيش، ثم لمحه بدر الدين.

* * *

لمح عاصفة من غبار وغضب وحرب، تقترب ببطء من مشارف تبريز.

وقف فوق التلّ منتصبًا متأهِّبًا. لم يلمحهم جيِّدًا، فارتقى شجرة بلهفة وعَجَل كأنَّ به مسًّا، ثم جعل من أعلى غصن فيها عرش ترقُّبه، فشهد الجيش يقترب. شهق منبهرًا على الرَّغم ممَّا شهده في ماضيه من جيوش هائلة، إلَّا أنَّها كانت المرَّة الأولى التي يرى فيها جيشًا بالضخامة والرهبة هاتين.

كان يقترب من السهل لتتَّضح كتائبه وخطوطه، بحيث كانت فرقة الاستطلاع في مقدِّمة الجيش، تليها الفرق الأخرى المكوَّنة من سلاح الفرسان، والمشاة، ورُماةِ السهام والرماح، وحَمَلَةِ الألوية والبيارق. وباقترابهم، كان يتَّضح المشهد الحربيّ أكثر، إذ لمح بدر فِيَلة ضخمة تُحيط بالجيش من الميمنة والميسرة، إلى أن اقترب متن الجيش حيث عظمة قائده، الذي كان جالسًا في عربة خشبيَّة سوداء ضخمة مغلقة، تجرُّها ثلاثون من الأحصنة السود، يُحيط بها فرسان الحرس السلطانيّ وأمناء الخان الأعظم، وأشدُّ فرسانه بسالة وإِقدامًا بدروعهم الحربيَّة الثقيلة والأنيقة والمصنوعة من الحديد السميك، يرتدون خُوَذًا صُفْرًا لا

تشي بملامحهم الآدميَّة، بل الخُرافيَّة، ثم رأى المنجنيقات العملاقةَ والدبَّاباتِ الخشبيَّةَ المُعَدَّة لخرق أشدّ البوَّابات والأسوار حصانةً، ثم قوافلَ التموين والمياه وعربات أخرى. وزادت المشاعلُ، التي اتَّقدت في عتمة المساء، المشهدَ رهبةً. رأى مقدِّمة الجيش ومتنه، لكنَّه لم يلمح المؤخّرة، وأيُّ مؤخّرة تلوح في الأفق لجيش أسر أنفاس بدر بعدد تجاوز ثلاثمئة ألف فارس وجنديّ، ثم صدحت المزامير والطبول في نغمة حربيَّة، فانصاعت لها الفرق والقطع متباطئة بصورة تدريجيَّة معلنةً بلوغَ جيش فاتح الدنيا سهلَه المنشود الذي سيُمضي فيه الشتاء.

حدَّق بدر مأخوذًا برهبة الجيش. شعر للحظة بأنَّهم يعسكرون في فيء شجرته، إذ لم يكن المعسكر بعيدًا، فهو على مرمى حجر منه، قال بدر في سرِّه، ثم ضاقت عيناه مُركِّزًا بصره في تلك العربة الضخمة لعلَّ سيّدها يطلُّ منها، كي يلمح ملامحه وهيبته وسلطانه، ثم رأى بضعة من خدم السلطان يتقدَّمون رافعين فوق رؤوسهم محفَّةً ذهبيَّة بحواشٍ مخمليَّة وثيرة.

تقدَّموا نحو الباب وألصقوا المحفّة به، ثم تقدَّم أحد فرسان الحرس السلطانيّ قابضًا بيده على لجام جواد ناصع يكاد بياضه يومض، وقرَّبه إلى جانب المحفَّة، ثم تقدَّم أحد الخدم وفتح باب العربة، ليتجلَّى ويقف منتصبًا بشموخ وعظمة فوق المحفَّة مُطِلًّا على جيشه الجرَّار. صدحت نغمة قصيرة من الأبواق والطبول مرحِّبة بالسلطان، أعقبتها صرخة ترحيب موحَّدة حازمة ومدوِّية أطلقها الجيش بأكمله، ثم انحنوا له جميعًا للحظات صمتُها مشوبٌ بقرقعة الدروع والسيوف والرماح. رفع فاتح الدنيا يده اليمنى رادًّا التحيَّة بصمت مَهيب، ثم، بإشارة منه، أخفض خدمه المحفَّةَ بعناية شديدة بما يتناسب وسرج جواده. كانت الفرس بيضاء ساحرة، وفارسُها، فاتح

الدنيا تيمورلنك، كان مرتديًا درعه الحربيَّة السوداء.

ضاقت عينا بدر. ألم يشهد هذه اللحظة من قبل؟

فارتجف، ثم شهق، وغاب غيبة أطاحته عن غصن شجرته.

* * *

في صباح اليوم التالي، كان بدر الدين نائمًا متوسِّدًا عتبة الزاوية مكسوفًا من الدخول إليها ليلًا، في إثر ما طرأ على أرجائها من زواج عشق مديد.

فتح طورة الباب كعادته كلَّ صباح إيذانًا ببدء استقبال التلاميذ والزوَّار، ثم لمح بدرًا نائمًا بعمق وأمان فوق العتبة الحجريَّة، فاندفع نحوه بلهفة ليوقظه بلطف.

همهم بدر ثم فتح عينيه ببطء، ليستقبل حضور صديقه الذي قال له معاتبًا بتذمُّر:

ـ عمت صباحًا يا بدر. أَبْعَدَ كلِّ هذه الغيبة تعود لتنام على العتبة تاركًا رحابةَ بيتك؟

تململ بدر، ثم أجابه بصوت ناعس وهو يتثاءب:

ـ لقد عدت لتوِّي من البرِّيَّة. ولم أشأ إيقاظك والزاويةُ حديثة عهد بنعمة الزواج.

أجاب طورة بإحراج شديد:

ـ هيَّا إلى الداخل. يبدو أنَّك لم تأكل منذ دهر. هيَّا، ستعدّ لنا زينب الإفطار.

سُرَّت زينب بحلول بدر مرحِّبةً به بحرارة وهي تقدِّم الإفطار. بادرها بدر بالاطمئنان عليها وسؤالها مداعبًا إذا كان عبد الله، الجالس

إلى جانبه بخفر، يزعجها أو يسبِّب لها السأم بوصاياه وتعاليمه، ثم نعموا بمائدة هانئة وجلسة صباحيَّة هادئة داخل بيت اختلف أثيره ومظهره بعد أن أضفت عليه زينب لمستها الأنثويَّة.

وما إن انفرد بدر بطورة حتى أشركه فيما شهده البارحة من جيش تيمور العظيم، متحدِّثًا بأنفاس مبهورة تسلَّلت إلى طورة الذي عقَّب قائلًا بإثارة:

ـ هي الحرب، إذن.

ـ حرب؟! بل هي الهلاك. لو أنَّك رأيتَ ما رأيتُ أنا لأيقنتَ أنَّ تيمورًا مقبل على جلب الهلاك وإفناء بايزيد وسلطانه عن وجه الدنيا.

تأفَّف طورة:

ـ وهل بتَّ على يقين من انتصار تيمور؟

أجاب بدر بثقة:

ـ الذي يمتلك جيشًا كجيشه في إمكانه إخضاع الدنيا برمَّتها.

ران صمت ساده الشرود في أحوال الحرب، والتفكُّر فيما ستؤول إليه الأمور، ثم قطع بدر دابر الصمت قائلًا بحماسة:

ـ إنَّ تيمورًا يدَّعي شرعيَّة ما في حربه مغلَّفة بأسباب ظاهرة. فتارة يقول إنَّ بايزيد يرعى أعداءه ويدعمهم، وطورًا يقول إنَّه يعدُّ العدَّة مع مماليك مصر لمباغتته، إلَّا أنَّها أسباب واهية. فشرعه الوحيد هو شرع السلطان الذي يعزم على مَحْق سلطان بايزيد الممتدّ بفتوحاته في غرب الدنيا.

عقَّب طورة مأخوذًا بحديث بدر:

ـ وهذا هو دأب السلاطين يا بدر. فلماذا تستنكر هذا النهج كأنَّك طارئ عليه وعلى زمانه، فالسلاطين يتعاقبون بجيوشهم وأممهم

والسيادة لمن يغلب. فانظر إلى ماضيك القريب، حيث سلطان المماليك في مصر وبلاد الشام، وإلى بني عثمان في بلادنا القديمة، وإلى سلطان التتر. هي الدنيا هكذا.

ردَّ عليه بدر بامتعاض:

ـ أشتمُّ في حديثك رائحةَ ابن خلدون وقنوعه بعصبيَّة الأمم وبسيادة الغالبين على المغلوبين. كلَّا، واللهِ ما هكذا تُقام الدنيا والأمم.

ـ وكيف تُقام، إذن؟

ردَّ بدر بلهجة حماسيَّة:

ـ بالعدل.

ـ العدل بلا سيف يغدو جَوْرًا.

ـ بل السيف في سبيل العدل يغدو حقًّا.

زفر طورة قائلًا بأسى:

ـ رؤاك تقودك إلى وهمك. فاحلم أنت بالعدل واتركِ السلاطين بفعل سيوفهم يَسُودوا جائرين.

انتفض بدر قائلًا بتأثُّر:

ـ ليس حلمًا ولا وهمًا، إنَّما هو فضح رذيلة التسليم بقضاء الجَوْر يا طورة، والنأي بالمستضعَفين من الناس عن نار حرب هم وقودها.

سأله طورة متذمِّرًا:

ـ ومن سيثور، أنت؟ بزاويتك هذه ومُريديك وتلاميذك؟!

لم يعقِّب بدر لائذًا في صمت زجَّه فيه طورة بأسئلته القاسية.

* * *

. . . وتبريز، صارت أخرى، ولم تعد المدينةَ المشرَّعة بازدهارها أمام الناس والقوافل والتجارة. فمنذ أن عسكر جيش تيمور في سهلها أصبحت قاعدة حربيَّة تجري فيها الاستعدادات على قدم وساق لخدمة جيش فاتح الدنيا وتزويده بالمؤونة. كانت مدينةً تحتضن جيشًا عرمرمًا على أهبَّة الاستعداد للحرب العتيدة، وتترَّد فيها الأقاويل والأنباء القادمة من معسكر هذا الجيش، والتي تُفيد بحرب لا هوادة فيها على وشك الاندلاع.

كانت أحداثها وشؤونها اليوميَّة تطغى عليها الاعتقادات والآراء والتنبُّؤات بقادم الأيَّام الحربيَّة، والتي تآلفت كلُّها هاتفة بالانتصار القادم لا محالة، والذي سيمنُّ به الله على عبده تيمور، بحيث كانت الزوايا والجوامع والمدارس تصدح بالأدعية المرفوعة بالتوفيق والنصر المنشود، ويخطب أئمَّتها وشيوخها ذاكرين سيرةَ تيمور الحافلةَ بالفتوحات وإعلاء راية الإسلام؛ سيرةً مجلَّلة بهالات أسطوريَّة وقدسيَّة، إذ إنَّ حلوله وحده في تبريز هو بركة أحاط بها الله هذه المدينةَ، وأهلها.

في ظلِّ هذه الأجواء المشوبة بالحرب المنشودة، لم تكن الأمور في زاوية بدر الدين تسير كسابق عهدها من حلقات العلم والذِّكْر، بحيث سادت في مجلس الزاوية أيضًا مشاعرُ الاضطراب والحماسة بين صفوف التلاميذ، والتي تسبَّب بها ذلك المعسكر الرابض في واديهم الشاسع منذ شهر مترقِّبًا بلهفة السيف انقضاءَ الشتاء وحلول الصيف حتى يشنَّ حربه تحت شمس ساطعة تُعمي بصر بايزيد وجيشه، وهو ما دعا بدرًا إلى تعليق حلقات العلم ودروسه إلى حين انقضاء أَجَل الجيوش وحروبها، إذ لاحظ عبث الخوض في شؤون العلم في الوقت الذي تشي فيه الأجواء بمعمعان الحرب، لتطغى على جلسات الزاوية

نقاشاتٌ صاخبة مشحونة بالواقع الجديد، يُفيد بعضها بأنَّ تيمورلنك في طريقه لمحاربة بايزيد، لن يخشى الجنوب، حيث بلادُ الشام وسلطان المماليك، بعد أن هتك عقرهم وأحرق سؤددهم. وعليه، فإنَّ جناحه الأيسر سيكون آمنًا. ومن التلاميذ من قال إنَّه سيهاجم أوَّلًا أطراف بايزيد الشماليَّة، ولن ينقضّ على شرقه مباشرة، فهذا عهد تيمور الحربيّ كما يقولون، في الوقت الذي كان فيه بايزيد يُعيد تنظيم جيشه وتحشيده، منسحبًا من حصار القسطنطينيَّة لحماية أراضيه الداخليَّة من خطر تيمور.

وفي ظلِّ هذه الأحاديث، اعتنق بدر الصمت، مصغيًا إلى تلاميذه من دون أن يعقِّب بأدنى كلمة، إذ كان عاجزًا عن وعظهم بما كان يُسِرُّ به إلى طورة في خلوتهما. لم يكن ليجرؤ على إفادتهم بعبث الحماسة لحرب ليست حربهم، ولنصرِ سلطان، أيّ سلطان كان في ساحات الوغى، من دون أن يعرف المرء المعنى الأصيل من وراء حربه، إذ إنَّ الدنيا كانت مشتعلة بالاستعداد والتأهُّب ونصرة السلطان، وأيّ همسة معبَّأة بالتمرّد والرفض يهمس بها بدر ستُطيحه عن زاويته مصلوبًا على بوَّابات تبريز الغربيَّة.

* * *

بعد مرور شهر وأسبوع على هذه الأجواء الحربيَّة الحماسيَّة، زاره في المساء حاجب أمير تبريز محمَّلًا بالرسالة الأبهى والكلام الأسمى الذي سيُذهل بدرًا، ويجعله يرتجف من الرهبة والخشية.

بأساريره المنفرجة ووجهه المشرق، جلس الحاجب إلى جانب بدر في المجلس المسائيّ الخالي من زحمة التلاميذ، بينما كان طورة منهمكًا في ريِّ المزروعات في الحديقة. رحَّب بدر بحرارة بالحاجب ناشدًا سبب سعادته الغامرة، ففاجأه الحاجب قائلًا بحماسة:

ـ بشراك أيُّها المعلِّم المبارك. لقد أرسلني مولاي الفاضل لأبشِّرك بحلوله عليك غدًا. بشراك فقد حظيت...

تململ بدر في جلسته عاجزًا عن فهم سرور الحاجب، فالأمير كان يزوره دومًا من دون الحاجة إلى رُسُل ومقدِّمات. فترت همَّته وهو يردّ على الحاجب:

ـ أهلًا بمولاي الأمير في أيّ وقت، فهذا مقامه.

قاطعه الحاجب بسرور هادر:

ـ بل سلطانك الأعظم. فاتح الدنيا تيمور هو الذي سيحلُّ عليك يرافقه مولاي الأمير والحاشية السلطانيَّة، للتبرُّك بجلسة ذِكْر وسماع لديك.

انتفض بدر بشدَّة كادت تغشيه، وهمهم كأنَّه يهذي وهو يحدِّق في الحاجب ببلاهة، ثم سأله:

ـ أهذه دعابة. جئت تنغِّص عليَّ بها مسائيَ هذا؟

ـ وهل من دعابة تطال السلاطين يا سيِّدي؟

نكَّس بدر رأسه شاردًا للحظات، ثم نهض فجأة، وأخذ يدور في أنحاء المجلس لا يلوي على شيء أمام سرور الحاجب من نيله لبدر بمفاجأته، ثم وقف مستعدًّا للانصراف:

ـ غدًا في المساء سيكون موعد لقائك المشتهى يا سيِّدي. أستودعك الله.

ما إن خرج الحاجب حتى تمالك بدر نفسه وصرخ بكلِّ سعادة باسم طورة الذي لبَّى نداءه بسرعة، سائلًا عن سبب انتفاضته هذه، فأجاب بدر بانشراح:

ـ فاتح الدنيا، الخان الأعظم، سيزور زاويتي غدًا يا طورة. فهل

هذا حلم، أم وهم، أم حقيقة؟

ظنَّ طورة لبرهه أنَّ بدرًا لم يعد بعدُ من إحدى غيباته المعهودة، إلَّا أنَّه، بعد أن أفاده برسالة الأمير، أصابه وجوم حادّ انتشر في أنحاء الزاوية منقلبًا إلى أرق؛ أرق رهيب من شدَّة ما سيحلّ على الزاوية من سلطان.

* * *

طريق الزاوية عبَّدته السطوة السلطانيَّة وحفَّه من جانبيه رجالُ الحرس السلطانيّ الذين تظلِّل سيوفُهم وراياتُهم موكبَ السلطان المَهيب، الذي ترافقه فيه حاشيته وأمير تبريز. وأمَّا على عتبة الزاوية، فكان بدر يرتدي مُرَقَّعته متأهِّبًا بقلق، وإلى جانبه يقف طورة وثلَّة من التلاميذ بكلِّ الحماسة والتأثُّر، يشاهدون طليعة الموكب الفخمة التي تُحيط بعربة السلطان. وما إن وصل الموكب حتى صدحت في الأجواء أنغامُ الطبول والأبواق معلنةً هبوط السلطان عن عرشه.

كان أمير تبريز قد سبقه على عَجَل قاصدًا بدرًا ليُعْلمه بكلِّ سرور بأعراف السلطان وآداب الترحيب به. أمَّا بدر فادَّعى رباطة الجأش والتماسك، وتقدَّم برفقة الأمير نحو السلطان المتمدِّد بشموخ فوق محفَّته الذهبيَّة أمام عربته يُحيط به حرسه وخدمه. انحنى بدر انحناءة تامَّة على وشك الركوع بخشوع للسلطان مرحِّبًا به بإخلاص عميق بصوته الذي أعلمه الأمير بأنَّه يجب أن يكون خفيضًا، فردَّ عليه السلطان بمسّ كتفه من دون أن ينبس ببنت شفة إيذانًا منه بالدخول إلى مجلس الزاوية. رافقه بدر إلى الداخل بلفيف من كلمات المدح والثناء في ظلِّ الرهبة التامَّة التي سادت الزاوية.

تصدَّر السلطان المجلس، هو الغازي فاتح الدنيا تيمورلنك. رجل

قصير القامة ممتلئ البنية، وجهه أبيض مستدير بعينين صفراوين مشدودتين، في أوائل السِّتينيَّات من عمره المديد، يرتدي حلَّة قُدَّت من حرير سماء سلطانيَّة صافية، فلا حاجة له إلى بزَّته الحربيَّة ودرعه الحديديَّة الثقيلة في زاوية صوفيَّة، مستبدلًا خوذته بعمامة حريريَّة صفراء كبيرة مرصَّعة بالياقوت الأحمر، ويزدانُ بقلائد ذهبيَّة وعقود من لؤلؤ تحرس عنقه، قابضًا في يده على سبحة صغيرة من عاج. جلس متربِّعًا بشموخ ليُحيل بؤس المجلس إلى عرش عظيم، وإلى جانبه الأيمن جلس أمير حرسه السلطانيّ، وإلى جانبه الأيسر جلس أمير تبريز الممتلئ بالسرور بسبب قربه الشديد من فاتح الدنيا. أمَّا بدر الدين، فكان يجلس بحيرة تامَّة إلى جانب الأمير في جلسة مكتملة من الحاشية والأمراء، في حين بقي طورة وبقيَّة التلاميذ والمُريدين واقفين مبهورين عند عتبة المجلس الذي امتلأ بنعِمَ السطان وحضوره المَهيب. كانت لحظات الصمت المشوب بالتجهُّم والرهبة تسود المكان، إلى أن تنحنح أمير تبريز قائلًا بخفوت:

ـ لقد ازدان المقام وسما بحلولكم فيه يا مولاي. وهذا الشيخ المبارَك بدر الدين، لَيَعجزُ عن التعبير عن سروره وشرفه بزيارتكم لزاويته.

أومأ تيمور برأسه بتؤدة. تيمور الذي كان يُحصي كلَّ كلمة تخرج من فمه السلطانيّ، كان لا يطلق الكلام إلَّا مقترنًا بأسباب خروجه من صدره. في هذه الأثناء لم يستكن صدر بدر المضطرب الذي لم يكن يعتقد للحظة اكتمال هذه الجلسة السلطانيَّة المباركة، على الرَّغم ممَّا أعلمه به أمير تبريز من أنَّ تيمورًا يحبُّ المشاركة والإصغاء إلى حلقات السماع الصوفيَّة عندما تسنح له الفرصة بذلك، كي يتبرَّك بشيوخها ومعلِّميها، فشرَّع الطريق إلى هذه الزاوية بإيحاء الأمير إلى تيمور بآيات بدر، وأهمُّها شفاء نجله وتفرُّده

بالبساطة والزهد والصفاء. فما الذي سيبوح به بدر الآن، سأل نفسه في أجواء الصمت السلطانيّ: هل سيناقش تيمورًا في شؤون الحرب؟ هل سيبوح له بأسرار البلاد الغربيَّة وأصله البعيد؟

ومن أنت يا بدر في حضرة السلطان سوى درويش متصوّف كما يقول الناس من حولك؟

ثم تدارك أمره، وأومأ بإشارة من يده إلى طورة كي يوعز إلى نخبة من تلاميذه بعقد جلسة السماع، فتقدَّموا إلى منتصف المجلس يرافقهم أربعة من حَمَلة الدفوف وعازف ناي اسمه حبيب. نعم، هو نفسه عازف الناي الذي كان يعزف شجنه في حانة رقص فيها بدر ذات انجذاب فجريّ، ليستقطبه في إثر ذلك الفجر إلى نور زاويته، بعد أن كان حبيب قد استقطبه إلى أنين نايه.

تنحنح بدر طالبًا الإذن بالنهوض لمشاركة التلاميذ في الحلقة، فأذن له تيمور بإيماءة له من رأسه، ثم عُقدت الدائرة، وشرع حبيب يلفّ بأنين نغمه الصافي الدائرة للحظات فاتنة، تلاها صوت بدر العميق، ملقيًا بثبات على وقع النغم قصائد هائمة بالعشق والفناء بأنوار الخالق. وما إن أنهى إلقاءه الخاشع، حتى شرع المُريدون المتحلّقون حول معلّمهم شابكين أيديهم معًا، يُنشدون ما ألقاه بدر بصوت واحد آسر، اندغم مع روعة الناي الذي رافقه نقر الدفوف، ثم شرعوا يدورون حول بدر ببطء في حين أغمض هو عينيه وفرد ذراعيه مستديرًا حول نفسه بوتيرة بطيئة أيضًا. طغى أنين الناي على المجلس مبدّدًا رهبةَ الجالسين من حضور تيمور الذي انفرجت أساريره وتلاشت صرامته عندما أخذه أنين الناي الملتحم بالإنشاد، ثم ازدادت وتيرة الدوران وهمَّة المنشدين بعلوّ صوتهم الموحَّد في إنشاد الشعر. كانوا ينشدون بإخلاص وخشوع:

كان لي قلب أعيش به ضاع منّي في تقلُّبِهِ

ربِّ! أَرْدِدْه عليَّ فقد ضاق صدري في تطلُّبه

وأَغِثْ ما دام بي رمق يا غيَّاث المستغيث به[1].

وكان بمقدار اشتداد همَّتهم يشتدُّ دوران بدر حول نفسه لاهثًا متعرِّقًا، مستذكرًا ربَّه بصمت من دون أن يشاركهم في النشيد. علا صوت الدفوف، واشتدَّ أنين الناي، واشتدَّ الدوران، وشارفت ذروته منبئةً بقرب انتهاء السماع، فنزع بدر مُرَقَّعته عنه ليبقى في جلبابه الأبيض، ثم صرخ صرخة وجد طغت على الإنشاد. كان قد اخترقه هاتف يردِّد في فؤاده بهمس:

سيرتدّ الدم إلى الدم والفرعُ إلى الأصل.

ثم توقَّف معلنًا انتهاء السماع، فانفضَّت الحلقة من حوله. وبينما ظلَّ منتصبًا بشموخ في منتصف المجلس، أغمض عينيه ثم هتف بصوت متهدِّج مرهق:

«محنتي فيكَ أنَّني لا أبالي بمحنتي،

يا شفائي من السِّقام، وإن كنتَ علَّتي،

تُبتُ دهرًا، فمذ عرفتُكَ، ضيَّعتُ فيكَ توبتي،

قربُكم مثلُ بُعدِكم فمتى وقت راحتي»[2]

ثم فتح عينيه ليحدِّق في تيمور بنظرات مليئة بالتشوُّف بعد أن داهمه الكشف بهمسٍ غريب ثم أُغمي عليه.

* * *

---

(1) من شعر الصوفيّ سمنون بن عمر المحبّ.

(2) قطب الصوفيَّة، الشبلي.

في صباح اليوم التالي، استيقظ بدر على جلبة آتية من صوب باب الزاوية الخارجيّ، فتمالك يقظته وحلمه، متذكِّرًا دفعة واحدة ما حدث مساء البارحة في مجلسه من زيارة سلطانيَّة وكشف غامض لم يجرؤ على الإعلان عنه في حضرة تيمور. نهض من فراشه طاردًا عنه نعاسَ إغماءته، ثم خرج ليستوضح أسباب الجلبة. في الطريق إلى الخارج أطلَّت عليه زينب وحيَّته بسرور، موضحة له أنَّ طورة في الخارج برفقة أناس غرباء. حيَّاها شاكرًا، واتَّجه إلى صديقه ليرى أفرادًا من خدم السلطان يرافقهم حاجب أمير تبريز يحيطون بثلاثة خيول وعربة كبيرة، مليئة بأصناف غريبة من التحف والهدايا المتنوِّعة، من عطور وحليّ ومجوهرات وحرير وتوابل. لم يعقِّب بدر وهو يتفقَّد العربة، فاقترب منه طورة قائلًا بسرور:

ـ هذه العربة هديَّة إليك من الخان الأعظم أيُّها المعلِّم الجليل.

قاطعه حاجب الأمير بسعادة غامرة:

ـ إنَّ السلطان سَرَّه ما سمع وشاهد في زاويتك، وأعرب للأمير عن راحة فؤاده وخشوعه في جلسة السماع. فشاءت إرادته السلطانيَّة منحك العطاء وبذل النفائس جزاءً لك وثوابًا يحتسبه عند الله.

تجهَّم وجه بدر منذرًا بالامتعاض. كأنَّه ليس هو الذي كاد بالأمس يقصم ظهره من شدَّة انحناءته للسلطان، قال طورة في سرِّه، وهو يحدِّق في حال صديقه المستغرب، فتدارك الأمر بسرعة صارفًا الحاجبَ بمدحه للسلطان وعطاياه، مرحِّبًا بهديَّته الثمينة، ثم سأل بدرًا باستغراب:

ـ ما بك، ألستَ سعيدًا بهذه الهديَّة؟

زفر بدر بمرارة وهو يتفقَّد خيرات العربة، ثم قال لطورة:

ـ أَسْدِ إليَّ معروفًا يا صديقي. فأمَّا العربة بأحصنتها فهي لنا

ولشؤون الزاوية، وأمّا ما فيها من خيرات، فاذهب إلى السوق وبعها، ثم اشترِ بثمنها ما يكفل إطعام من يؤمُّنا من المساكين والعابرين والتلاميذ وإيوائهم.

رمقه طورة بصمت، ثم ابتسم طاردًا من ذهنه بأسف ثوبًا حريريًّا أبيض تخيَّل نفسه يلبَسه، وقال في سرِّه: بوركت يا بدر. بوركت!

اعتزل بدر في حجرته طوال النهار من دون أن يقوى على الخروج من زاويته منتشرًا في برِّيَّة تبريز كسابق عهده. كان مرهقًا من حلول تيمور المفاجئ عليه، ومن ذلك الكشف الذي داهمه في أوج حلقة السماع ليُنير له غيب الدنيا الغربيَّة وساحات الوغى والحرب القادمة. ردَّد في سرِّه الهاتف الذي انتابه: «سيرتدّ الدم إلى الدم والفرعُ إلى الأصل».

عجز عن فهم العبارة. وما نغَّص عليه إدراكَها هو تذلُّله في حضرة تيمور وتهتّك نوره حين أحاله إلى بساط يدوس عليه تيمور بخفَّيه السلطانيَّيْن. ولكنَّك كنت تدَّعي ذلك يا بدر، يواسي نفسه. كنت تدَّعي التذلُّل، وهذا ثمن الوقوف بين يدي فاتح الدنيا. فمن أنت لتبادله الهيبة والسطوة؟

أنت مجرَّد شابّ شيخ معلِّم متصوِّف مبارَك. هل أنت مبارَك حقًّا؟

تنهَّد بحرارة مواسيًا نفسه بكشفه وكتمه له، إذ أيقن أنَّ تأهُّبه المعهود وتشوُّفه القلق اقتربا من خاتمتهما على الرَّغم من أنَّه مشوَّش الذهن الآن، وعاجزٌ عن إدراك الإشارات والعبارات، إلى أن قطع عليه تأمُّلَه طَرْقٌ مهذَّب على الباب، فإذا هو طورة. كان قد عاد من السوق منجزًا مهمَّته على أكمل وجه. جلس على حافَّة السرير إلى جانب بدر قائلًا بحماسة وسرور:

ـ أنت على استلقائك وعزلتك من دون أن تدري ما أحدثته في تبريز بحلقة سماعك السلطانيَّة.

اعتدل بدر في جلسته ليتلقَّى حديث طورة الذي أفضى إليه بما يتناوله الناس من أنباء عن زيارة البارحة تُفيد بعلوّ مقامه وحلول بركاته في تبريز كلّها، وأنَّه قد نال رضى السلطان، وحظي به. أمطره طورة بأحاديث الناس، وبدر يصغي بهدوء ولامبالاة، الأمر الذي استرعى انتباه طورة:

ـ ألست سعيدًا في امتداد اسمك وزاويتك في تبريز؟

أجابه بدر بهدوء:

ـ واللهِ لا أعلم إذا كانت تلك الزيارة نعمةً أم نقمة؟

ـ بل نعمة يا بدر. نعمة أنزلها الله عليك جزاء علمك وصفاء نورك.

أحسَّ بدر بأنَّ طورة لم يُدرك ما قصده، الأمر الذي زاد في حنقه وسأمه أكثر. فهو محرَّم عليه البوح لصديقه بكشفه وملامح غيبه، فنكَّس رأسه واجمًا للحظات أعاده في إثرها طورةُ إلى أجواء الحماسة:

ـ كما أنَّني جئت إليك بالنبأ العظيم. يقولون إنَّ الجيش في السهل قد بدأ الزحف نحو الغرب في إثر زوال الصقيع وعواصف الشتاء.

مسَّت بدرًا قشعريرةٌ حادَّة جعلته ينتفض، ثم قال بحزم:

ـ ستكون صائفةً دامية، إذن.

* * *

ثم تولي أنت وجهك شطر الغرب، إذ تمتطي الكشف مرتقيًا به

أعلى قمم تبريز الغربيَّة، لتُطلّ على الغيب الذي يتجلّى أسفلك. فحدِّقْ، حدِّقْ يا بدرُ في الدم وأعمدة الدخان وذكاوة النيران. أَصغ إلى ما يحيق بساحات الوغى من هواتف خفيَّة وهمسات آسية. حدِّق ثم انتفضْ، وحلِّقْ، واحفظْ كلّ ما ستراه، وتعلَّمْ لأنَّك بعد قليل ستتلمَّسه. بعد قليل ستتَّحد به قبل أن يرتدّ إليك كشفُك.

إذ زُلزلت الأرضُ، وخسفَ غربُ الدنيا، واندلعت الحرب، فباغت تيمور أطراف بايزيد الشماليَّة الشرقيَّة، حيث أباد سيواس وحاميتها وأحرق بلاد الأرمن. وأُولى إشارات الدم كانت قتلَه نجلَ بايزيد الأكبر أرطغرل فارس الفرسان الذي تهالك من هول السيوف، فحزَّ تيمور عنقه وأرسل رأسه مغلَّفًا برسائل الوعيد والتهديد لأبيه. ثم تقدَّم فاتح الدنيا بجيوشه. لم يكن يزحف، كان يحلِّق برايات عظمته الخفَّاقة ليُثير الذعر والرعب في النفوس، مدمِّرًا ومحرقًا المدن والقرى. خرَّب الدنيا مدفوعًا بسطوته المخيفة وسلطانه الأوحد ليُبيد السلطان المناوئ، ويُعيدَ الإمارات التي سلبها بايزيد إلى أصحابها وأمرائها، ثم لاح الصيف كبارقة غيب حارقًا قائظًا، ولاحت معه الرايات مؤذنة بالمعركة الأخيرة الحاسمة. يوم دامٍ سيخرج منه فاتحٌ أوحدُ للدنيا لا يشاركه أحد في سلطانه.

وكان صيف. وسهل أنقرة الشاسع يتزلزل بوقع الحشود، وثمَّة جيشان، الأوَّل بثلاثمئة ألف قادم من الشرق، على رأسه الخان الأعظم تيمورلنك، والثاني بمئة وعشرين ألفًا يقوده السلطان بايزيد، مُذلُّ الروم وهازمُهم. ثم اندلعت المعركة واحتدمت منذ الفجر بنيران الحقد والدم.

التحم الجيشان بشراسة أسفل شمس ملتهبة، ثم سال الدم، وارتدَّ الدم إلى الدم والفرعُ إلى الأصل، يا بدر. فبعد أن كانت الغلبة لبايزيد

وبسالة جيشه في أواسط النهار، بات مغلوبًا في آخره، حيث عتمة الليل أخفت غدرًا فادحًا أدمى بسالته وإقدامه، إذ تشتَّت جمعه وتهالكت غلبته بفرار فرق عسكريَّة كاملة من القبائل ذات الأصول والدماء المغوليَّة لتوالي تيمورًا الذي وعد فرسانها وأمراءها بمنحهم مهودَ الأمان والإقطاعيَّات والإمارات، فآبت إليه قبائلُ آيدين، ومنتشا، وصاروخان، وكريمان، وسط ذهول بايزيد وعجزه، هو الذي لم يتبقَّ حوله أحد من جيشه سوى عشرة آلاف فارس من أقربائه وحلفائه الصرب، وتلك الفرقة الرهيبة التي تُدعى الإنكشارية، فظلَّ يحارب بأمل المحارب الأخير. وما إن تسلَّل اليأس ليقضي على الآمال بأكوام الجثث المتراكمة حوله، وحول سلطانه وإبادة خطوط جيشه الدفاعيَّة من حوله، حتى فرَّ مَن فرَّ من فرسانه وبعض أبنائه الأمراء، ومنهم محمَّد وسليمان وعيسى، بعد أن تقطَّعت سبل التواصل مع أبيهم الذي بقي يحارب هو وثلَّة من فرسانه وولده الأمير موسى إلى أن حلَّ فجر اليوم التالي، معلنًا زوالَ ـ وتلاشي ـ مُلك بايزيد الذي قال عنه تيمور إنَّه قائد شجاع، ولكنَّ جيشه لا يجوز أدنى قدر من شجاعته، فاستسلم بايزيد في النهاية لتيمور، واقعًا في أسره هو وولده موسى وثلَّة من فرسانه في صيف تمُّوز الحارق من سنة 1402 م.

إلَّا أنَّ تيمورًا لم يتوقَّف عند أسر سلطان الروم وإبادة جيشه، إذ كان يسعى لتدمير أمَّة بأكملها، حيث انتشر في أنحاء الأناضول ليدمِّر ويستبيح ويسبي ويحرق. فأحرق إمارات بايزيد وولاياته على مرأى عينيه، وولَّى عليها أمراء حربه، ودكَّ أهم المدن، بحيث خرَّب بروسة وإزنيك وإزمير. كانت السلطنة تتهالك متجزِّئة إلى فتات إمارات صغيرة مستقلَّة بعد أسر السلطان الذي كان قد أخضعها فيما سبق من سلطنته تحت راية عثمانيَّة واحدة.

وعندما انتشى تيمور واكتفى من الرقص فوق الأنقاض والأشلاء، عاد إلى الشرق حيث قاعدته الحربيَّة في تبريز، يجرّ وراءه أسيره السلطان مكبَّلًا داخل قفص حديديٍّ فوق عربة قُيِّد وراءها ولدُ السلطان الأميرُ موسى ومَن تبقَّى من فرسانه وحاشيته.

* * *

عاد الجيش العظيم بغنائمه ونصره المؤزَّر ليستقبله الناس بالأهازيج والأفراح الصاخبة التي أحاطت بموكب السلطان الأسير القابع في قفص حديديّ أذلَّه به تيمور.

في سهل تبريز الشاسع، تمدَّد الجيش كوحش كاسر مسترخيًا بعد التهامه فريسةً سمينة. فمَن الذي كان ممسوسًا بالاضطراب والقلق وذلك المزيج الغامض من السرور والأسى والفرح والحزن سوى بدر الدين؟

بدر الدين الذي رأى النصر يلوح من أفق الغيب، ولكنَّه لم يرَ بايزيد أسيرًا داخل قفص حديديّ يرزح تحت قبضة الجيش المنتصر القابع في سهل تبريز. ها هو أسفلك يا بدر، شرق بيتك يقبع سلطان الروم، فاذهب لتشهد انكساره وزوال سلطانه. هكذا تراوده الهواجس وتغويه بالذهاب إلى هناك كي يتفقَّد معسكر الأسرى العثمانيِّين في الوقت الذي لم يحدِّد فيه طورة موقفه من النصر العظيم، ولا من تلك الحالة الغريبة التي تلبَّست بدرًا:

ـ منذ أن عاد الجيش منتصرًا وأنت على حالك هذه التي لا توحي إلَّا بعزم شديد، فما الذي يدور في خلدك يا بدر؟

ارتشف بدر بتلذُّذ من كوب الشاي الذي تعدُّه زينب ممزوجًا بعطر أنفاسها، ثم قال مدَّعيًا الهدوء:

ـ ثمَّة حمم تلهب صدري يا طورة، تحاصرني بالعجز عن إدراك ما حولي على الرَّغم من أنَّني كنت قد. . .

زفر بحرارة ذهبت بحديثه للحظات ثم استدرك قائلًا:

ـ لقد رأيت يا طورة. بلى، لقد رأيت غرب الدنيا غارقًا في الدم. رأيت الشمس تنغرس في جسد الأمّة الممزَّقة، المنهزمة. فهل هذا نصر من عند الله أم جَوْر من عند السلاطين؟

عقَّب طورة قائلًا بهدوء:

ـ بدر، يا صديقي، واللهِ إنَّني أؤمن بما مَنَّ الله عليك به من نور، فلماذا يرميك الجزع في الحيرة والحسرة هاتين؟ هل جذبك أصلك يا بدر وأنت الهارب منه. فإنَّني، والله، أتألَّم لألمك، وأُبدي أمامك الآن حسرتي بما ألمَّ ببلادي، إذ إنَّني لا أقوى على التنكُّر لدمي سعيدًا بنصر تيمور هذا.

رسم بدر ابتسامة باهتة على وجهه، ثم قال بأسف:

ـ اعلمْ، يا طورة، بأنَّ أصلي هو الدنيا برمَّتها. وعلى الرَّغم من أنّني مكلوم مفجوع من شدَّة السفك والجَوْر، فإنَّ ما يُذهب صفائي ونوري هو ذلك السلطان الأسير القابع في معسكر تيمور. ثمَّة ما يجذبني إلى هناك. إحساس غامض. أصوات حادَّة تجرفني نحو معسكر الأسرى.

سأله طورة مستغربًا بلهفة:

ـ وهل في إمكانك الذهاب إلى هناك؟

أجاب بلا مبالاة:

ـ في إمكاني اللجوء إلى أمير تبريز كي يسمح لي بذلك.

هذا هو العزم الخفيّ، إذ توجَّه بدر في اليوم التالي قاصدًا الإذنَ

والسماح من أمير تبريز بتفقُّد معسكر الجيش، مدَّعيًا في مسعاه هذا مباركةَ الجيش وتهنئة قادته بالنصر المؤزَّر، في الوقت الذي لم تسنح له الفرصة لنقل مشاعر سروره ومباركته للسلطان الأعظم في إثر رحيل تيمور المفاجئ إلى عاصمته سمرقند، جارًّا معه أكثرَ من نصف جيشه المنتصر.

لم يتردَّد الأمير في منح الإذن لبدر مأخوذًا بنشوة النصر، واحتفاء تبريز بجيش الخان الأعظم. فما الضير من مباركه شيخ متصوِّف ومعلِّم متمكِّن من علمه؟

وفي العصيرة، كان بدر الدين وصديقه طورة يتجوَّلان في أنحاء المعسكر الضخم مأخوذَين بهيبته وانضباط جنده وفرسانه، محروسَين بحظوة أسبغها فاتح الدنيا على بدر الدين حين زاره في زاويته قبل أشهر معدودة.

كان يبارك الجند هاتفًا بآيات النصر باللغة التركيَّة القديمة، وأمَّا في سرِّه فكان يتوسَّل بلغته النورانيَّة لحظةَ عثوره على معسكر الأسرى إلى أن بلغه هو وطورة، حيث كان عبارة عن خيمتين كبيرتين محاطتين بالدعائم الخشبيَّة تحرسهما نخبة من الجنود، وإلى جانب الخيمة اليمنى ثمَّة عربة كبيرة على متنها قفصٌ حديديّ، ما إن لمحها بدر حتى خفق قلبه بشدَّة ومال على طورة وهو يرتجف، فسأله صديقه:

ـ ما الذي ألمَّ بك يا بدر؟

همس بدر قائلًا بإثارة:

ـ انظر إلى هناك يا طورة. هناك في ذلك القفص الحديديّ يقبع سلطان الروم بايزيد؛ ذاك هو الذي ما إن تولى عهد أبيه مراد حتى قتل أخاه يعقوبًا بفتوى شرعيَّة من علماء الدين، خوفًا من الفتنة والطمع

بالحكم، لِما كان يعقوب يتمتَّع به من تأثير وسطوة في صفوف العثمانيِّين. انظر يا طورة إلى هازم الروم وكاسر شوكتهم، والذي أرسل إلى برقوق شارات نصره بعد أن هزم الأمم: ها هو مكبَّل بذلِّ تيمور وبطشه.

أخذ طورة بحديث بدر الهامس المؤثِّر عن بايزيد وهما يقتربان من قفصه، إذ تأمَّلا بصمت ورهبة حال السلطان الأسير ذي الأربعين عامًا وهيئته المزرية وبزَّته الحربيَّة الرثَّة. كان منكَّس الرأس، مذهولًا، خاويًا من ملامحه المَهيبة، مكوَّمًا حول نفسه داخل القفص.

كانت تلك المساحة منزوعة من أجواء الفرح والسرور التي تعمُّ المعسكر المنتصر؛ مساحة بائسة مشوبة بصمت الهزيمة والانكسار الذي كان يصدر منه بين الفينة والأخرى همهماتُ أسى وهلاك. اقترب بدر من القفص حتى لامس قضبانه بيديه ثم قال بخشوع:

ـ اللهمّ إنَّني لا أشمت بعبدك هذا، بل أتَّعظ مثبِّتًا قلبي بتقلُّب الأحوال بإرادتك يا مقدِّرَ الأكوان وربَّ الأنوار.

ثم أطلق نَفَسًا محمَّلًا بالأسى وهو يستدير نحو باب الخيمة، في حين كان طورة مضطربًا من قربه الشديد من السلطان الأسير يحدِّق فيه بغرابة ورهبة. تقدَّم بدر من الدعائم الخشبيَّة. كان المساء قد شرع بغبشة توطئ ليلًا طويلًا. ضاقت عيناه وهو يحدِّق متأمِّلًا داخل الخيمة التي كان يقبع فيها كبار الفرسان والأمراء العثمانيِّين الأسرى. كانوا بضع عشرات، منهم المخبولُ بمصيره البائس، ومنهم النائم، ومنهم المتحلِّقون في حلقات أحاديث خافتة، ثم دقَّق بدر النظر في طيف منتصب في منتصف الخيمة متَّشح بالعتمة الخفيفة. كان طيفًا يشي ببنية ضخمة.

ثم استدار بدر ناحية طورة هاتفًا بتأثُّر:

ـ طورة، اقتربْ. انظر إلى هذا الرجل الضخم هناك، ألا تميِّزه؟

ضاقت عينا طورة وهو يدقِّق النظر في عتمة الخيمة حيث أشار إليه، ثم جذبه بدر من ذراعه بشدَّة مقتربَين أكثر من الدعائم التي تغلق باب الخيمة. تلاشت العتمة بعض الشيء، فإذا بصرخة نشوة تصدر عن بدر:

ـ مصطفى، هذا مصطفى يا طورة.

اقترب الطيف من حماسة الزائرين الغريبين، فدنا لينقلب إلى قامة عالية وبنية فارس مفتول العضلات، ساد بشموخ على الرَّغم من هيئته المزرية وشعره الأشعث. اقترب منهما أكثر إلى أن صرخ هو أيضًا بفرح عارم:

ـ طورة وبدر. بدر الدين. أهذا أنت؟ أقسم بأنَّه أنت.

لم يتمالك بدر الدين نفسه، إذ قفز عن الدعائم الخشبيَّة بخفَّة ليعانق صديقه القديم مصطفى أمام ذهول طورة الذي تخبَّط للحظات تلاها التحاقه بصديقه.

غرقوا في عناق حميم وسط ذهول الأسرى في الخيمة وتحفُّظ الحرس من اختلاط الشيخ المبارك بدر الدين وصديقه بالأسرى. وفي ظلِّ الهمهمة والتمتمة وأنفاس اللقاء العجيب، تدارك بدر امتعاض الحرس، فانسحب من عناق مصطفى هو وطورة عائدين إلى وراء الدعائم، ثم قال لمصطفى بصوت متهدِّج متأثِّرًا مستعيدًا به لغته التركيَّة:

ـ بعد سبع سنوات يا مصطفى، ما بين ماضٍ تصادقنا فيه في رحاب العلم وبين حاضرنا هذا الذي نلتقي فيه في ظلال الحرب.

أضاف طورة قائلًا بسرور غامر:

ـ نحمد الله على أنَّك بخير أيُّها الفارس.

نكّس مصطفى رأسه بأسًى، إذ نكأت صدفة اللقاء جراحه وذلّ قيوده بحلول صديقيه المفاجئ عليه، وهو على هذه الهيئة المهزومة المنكسرة. هو الذي كان يرجو من الله لقاءً بهما وهو في عزِّه وجاه سيفه وإمارة حربه، ها هو يتعثَّر بصديقيه القديمين بعد سبع سنوات من الغياب في معسكر المذلَّة والأسر.

تدارك بدر الأمر قائلًا بحماسة وحزم:

ـ لا تَهُنْ يا مصطفى. فواللهِ الذي جمعنا بك في غمضة عين لن نتخلَّى عنك أبدًا.

ثم انخرطوا في حديث مفعم برياحين الصداقة وسط ذهول الأسرى بصديقي مصطفى الغامضين وحديثهما معه بلغة تركيَّة طغت عليها طمأنينة وثقة تشيران إلى علوِّ مكانتهما وحظوتهما، بل بالأحرى حظوة بدر الذي لم يتعرَّض له الحرس بأدنى تلميح واحتجاج.

لم تأخذهم الذاكرة إلى القاهرة وأيَّامها البائدة، بل سمَّرتهم بأوتاد الحاضر وآلامه وأهوال حربه، حيث شرع مصطفى بالحديث عن الأسرى وسلطانه المكبَّل بخبل الأسر وقسوته، إلى أن أقلع عن حديثه لجأة مستئذنًا صاحبيه بالدخول إلى الخيمة للحظات، عاد في إثرها بصحبة فارس شابّ، أشار احترام مصطفى واهتمامه به إلى أمارات علوّ مقامه في قومه. كان في مطلع العشرين، طويلَ القامة، نحيل البنية بقسمات وجه حادّة على الرَّغم من إعياء صاحبها وتعبه. لحيته سوداء طويلة شعثاء، وعيناه خضراوان بارزتان تنمَّان عن خبث خفيّ لمسه بدر الدين، ثم قال مصطفى موجِّهًا حديثه إلى بدر:

ـ هذا مولاي الأمير موسى، نجل السلطان الأعظم بايزيد.

لمعت عينا بدر بوميض غامض وهو يدنو لمصافحة الأمير، ثم رحَّب به بحماسة جاراه طورة فيها، ثم شرعا في مواساته بعبارات الصبر والأمل بزوال قيد الأسر، فتهلَّلت أسارير الأمير موسى بما أحاطاه به من إجلال وتقدير، ثم قال له بدر بحزم:

ـ الصبر يا مولاي؛ الصبر الذي سيليه الانعتاق بإذن الله.

* * *

أفصح انجذاب بدر الغامض إلى معسكر الأسرى عن عهد صداقة عتيق بمصطفى الذي تخلَّى عن القاهرة وصديقيه في سبيل السيف والحرب. فها هو السيف قد تخلَّى عنه، والحرب قد كسرته وألقت به في أَسر فاتح الدنيا، إلَّا أنَّ بدرًا وطورة لم يتخلَّيا عنه، إذ واصلا زيارة المعسكر ليُحيطا مصطفى والأمير موسى وبقيَّة الأسرى بما استطاعا إليه سبيلًا من الاهتمام والرعاية وتزويدهم بأهمِّ الأنباء الواردة من الأناضول وما آلت إليه أمور أبناء السلطان بايزيد محمَّد وسليمان وعيسى، من دون أن يكون في جعبة بدر أيُّ بشائر تُفيد بأفق قد يستعيد من خلاله أبناء بايزيد شيئًا من سلطان أبيهم المدمَّر.

كان بدر في اندفاعه الغريب نحو معسكر الأسرى قد أهمل شؤون زاويته موليًا أمورها إلى طورة في الوقت الذي كان طورة على ثقة تامَّة بأنَّ بدرًا، بوميض عينيه الغامض، كان يشي بطموحه إلى أمر ما؛ إلى أفق يخفق انعتاقًا لصديقه مصطفى على الأقلِّ، وخصوصًا بعد أن لحظ بدر مذهولًا حال السلطان الأسير بايزيد الذي كان لا يلوي على شيء، وبدا عاجزًا خاويًا غائبًا في صمت عبثيّ، لا يحادث أحدًا منجذبًا إلى أعماق لُجَّةٍ ذهبت بعقله الذي كان يدير به ذات سطوة شؤونَ سلطنته. قال له مصطفى آسفًا إنَّ السلطان لم يعد يذكر أحدًا. حتى ولده موسى، حين كان يقترب من قفصه ساعيًا للاهتمام به ومواساته، لم

يكن ليعثر على أدنى حضور لأبيه، إذ يحدِّق فيه بنظرات فارغة من أيِّ تعبير أبويّ أو سلطاني، مهمهمًا بأسًى فقط، ليفقد موسى فيما بعد الأملَ بعودة أبيه إلى رشده السلطانيّ، عاجزًا عن معرفة ما ستؤول إليه أمورهم في الفترة المقبلة.

في هذه الأجواء الملفَّعة بسواد المصير وبؤسه، كان بدر الدين يُفيد الأمير موسى وصديقه مصطفى بما يسهم في شحذ همَّتيهما، إذ أفادهما بورود أنباء من سمرقند تُشير إلى تجهُّز تيمور لغزو الهند مرَّة أخرى كي يُخضع الفتن المتَّقدة فيها، مرفقًا أنباءه هذه باحتمالات حدوث انفراجة ما في مصير الأسرى العثمانيِّين عبر طمأنتهم إلى عدم عودة تيمور مرَّة أخرى إلى غرب الدنيا، ومخفيًا في الوقت نفسه عن مصطفى والأمير موسى ما يقوم به تيمور عن طريق أمرائه وأتباعه من تغذية الأحقاد والصراعات والفتن بين القبائل والإمارات المتبعثرة في أنحاء الأناضول، كي لا يُصابا بالمرارة الفادحة والإحباط القاتل. كان يصبِّرهما وبقيَّة الأسرى بعبارات المواساة وقدرته العجيبة على تثبيت قلوبهم بكلامه المفعم بالإيمان والآمال، لتنمو في هذه الأجواء أواصرُ صداقة ناشئة غذَّاها مصطفى بين بدر الدين والأمير موسى الذي أُخِذ باهتمام بدر به وبسعة اطِّلاعه ومعرفته، والأهمّ من ذلك حضوره المؤثِّر في تبريز، بعد أن أوحى إليه بدر بحظوته لدى أميرها؛ تلك الحظوة المحروسة بزيارة تيمورلنك العظيمة لزاويته قبل شنِّه حربَه الشعواء في غرب الدنيا.

مع عهد صداقته المستعاد مع مصطفى، فقد سعى بدر لإحقاقه من جديد، ذات زيارة من زياراته للمعسكر، حيث انفرد بمصطفى عند باب الخيمة قائلًا بخفوت ورجاء مشوب بالسرور:

ـ أبشر يا صديقي. فقد انتزعت من أمير تبريز موافقته وموافقة

ـ كلَّا والله، فمنذ اللحظة الأولى التي التقيتَ فيها ذلك الأمير وعيناك كأنَّهما قبس من نار.

تهرَّب بدر من إلحاح طورة، قائلًا في أثناء تجهيزه بعض الأطعمة والألبسة للأسرى تمهيدًا لزيارته للمعسكر:

ـ إنَّه قبس لإنارة مصير حالك يا طورة. لا تخشَ ولا تَجْزَعْ.

غير أنَّ طورة كان يخشى في سرِّه من سرعة تنامي أواصر الصداقة بين بدر والأمير موسى بمباركة مصطفى، ومن تلك الحلقة الغريبة التي كان يجالس فيها الأمير موسى وحده، فيُجيبه بدر مبتسمًا بطمأنينه:

ـ والله ما هي إلَّا خلوة أُطمئن بها قلبه وأشحذ همَّته.

ـ فلماذا لا تعزِّز إيمانه في حلقة موسَّعة تشمل بقيَّة الأسرى؟

ـ كلَّما ضاقت ازدادت سطوعًا يا طورة، فهذا أمير ابن سلاطين.

ـ الآن أصبحت تعبأ بالسلاطين وأنت الهارب منهم ومن ماضي أبيك؟

هزَّ فؤادَه طورةُ بامتعاضه هذا، فأجابه بدر بخفوت:

ـ ما عليك يا طورة. لا يعميك جزعك عن كونك أقرب الناس إليَّ وأدراهم بي.

اعتذر طورة قائلًا بحرج:

ـ أعلم، ولكنَّني لا أحيطك بجزعي إلَّا خوفًا عليك.

ـ قلت لك لا تَخَفْ.

ثم خرج من الزاوية قاصدًا المعسكر، بل غيبَه المرتقب كشفًا.

* * *

استيقظ الأسرى العثمانيُّون في معسكر الجيش التيموريِّ على

صرخة أسًى ندَّت عن الأمير موسى، الذي كان يقبض على قضبان القفص الحديديّ يهزّها بعنف وغضب وهو يبكي بمرارة، محدِّقًا في جثَّة أبيه معلنةً وفاةَ صاحبها حسرة وكمدًا.

انتشر الخبر في الأرجاء، بعد أن أعلن أمير معسكر الجيش بتحفُّظ شديد عن وفاة السلطان الأسير.

رافق الخبرَ حالةٌ من الحزن والعجز سبَّبها السؤال المفجع الذي طرحه الأمير موسى على صحبه الأسرى وهو يندب أباه:

ـ أين سأدفن أبي؟ هل سأواريه تراب خصمه اللدود؟

وحده بدر الدين من تدارك الموت وردَّه أملًا، ففي غمضة عين نزع مُرَقَّعته الصوفيَّة عن بدنه وارتدى ثيابًا حيكت من تطلُّعات وأمانٍ ودهاليز. مفعمًا بنور تشوُّفه رأى الأفق الغربيّ ينبعث من جثَّة السلطان المتفسِّخة، لينساق إلى نوازع هواتفه منطلقًا إلى أمير تبريز، أميرِ حظوته ودعائم رؤاه وسرّ هنائه في أرجاء تبريز، إذ استجمع بدر كامل حظوته وحُسن مقامه وتأثيره في حسام الدين، متوسِّلًا إيَّاه أن يتوسَّط لدى الخان الأعظم، كي يمنّ على أسيره موسى بدفن أبيه حيث مدافنُ سلاطين بني عثمان في بروسة، إلَّا أنَّ هذا شأن عظيم وغاية لا تُطلب. فما المقابل يا مولانا المبارك؟ لمعت عينا بدر ببصيرة أخَّاذة. دنا من الأمير، أحاط به، لفحه بأنفاسه، ثم قال له إنَّ سمرقند على مرمى حجر، ورسول خيَّال مقدام سيحمل رسالتك التي ستُبرز فيها حُسن تدبيرك ودهاء تفكيرك يا مولاي. قل له هكذا: مولاي الخان الأعظم، أنا خادمكم القليل الشأن الذي يستمدّ عزمه وعزيمته من حكمكم السديد وسلطانكم المديد. إنَّ في إطلاق سراح موسى بن بايزيد لفتة كريمة منكم إلى إكرام أبيه بدفنه في أرضه؛ غاية تحافظون من ورائها على ما أوصيتموه أنتم في بلاد بايزيد من إزالة سلطان

وبلدان، وما موت بايزيد إلَّا توطئة الفتنة التي ستتأجَّج بين أبنائه الذين سيتصارعون على ما تبقَّى من مُلك أبيهم. وإطلاق موسى بطمعه الخفيّ وتطلُّعه إلى خلافة أبيه سيزيد في اتِّقاد النيران وهلاك مَن تبقَّى من أثر السلطان.

وهكذا يا أميري الفاضل سيجيبك الخان الأعظم بجلالة قدره وفخامة صوته واعتزازه بحسن رأيك:

ـ إنَّ ما تقوله يا حسام الدين فيه شيء من الحكمة، وما يردّ عن غرب سلطاننا المخاطر لزمن طويل.

* * *

في فجر انبلج من جثَّة سلطان غابر مرَّ على وفاته ثلاثة أيَّام، كانت ثمَّة قافلة من عسكر مهزوم تحيط بنعش ملفوف بخرق بالية تغادر تبريز قاصدة غربَ الدنيا الممزَّق. وما إن بلغت القافلة غربيّ تبريز حتى انشقَّ عنها أربعة فرسان ترجَّلوا عن خيولهم لمعانقة بعضهم البعض، إذ تقدَّم الأمير موسى بهيئته الأميريَّة المستعادة من بدر وعانقه بحرارة:

ـ على عهدنا أيُّها الشيخ الجليل، قريبًا ستحلُّ عليك الأمارات.

لم يعقِّب بدر، بل قبَّل رأس الأمير بإجلال، ثم تقدَّم ليعانق مصطفى الذي، بالرَّغم من بزَّته الحربيَّة البالية، إلَّا أنَّه كان مشرقًا بهيبة أمراء الحرب. تقدَّم منه بدر وعانقه بحرارة قائلًا له بسرور في حين كان طورة يعانق الأمير موسى:

ـ حين كانت تعمُّ بانتصارات سلاطينها على الروم لم أعد إلى تلك البلاد، فهل سأعود إليها وهي ذليلة مستباحة؟

أجابه مصطفى بسرور أشدّ:

ـ واللهِ لا أعلم لماذا طلبت منّا تريُّثك هنا وعدم رحيلك معنا الآن؟

أجابَ بدر بحزم وصوت خفيض:

ـ حين تتمزَّقُ البلاد بفتنها والدنيا تغرق بدمها.

ثم قال بانشراح في أثناء معانقة طورة لمصطفى:

ـ عانقه يا طورة. عانقه بحرارة، فهذا شيخ يساري.

* * *

القسم الثالث:

صراطُ الكَشْف

«وقيل للشبلي: صِفْ لنا العارفَ وصِفْ لنا المحبَّ، فقال: العارفُ إن تكلَّمَ هَلَكَ، والمُحِبُّ إِنْ سَكَتَ هَلَك»[1].

---

(1) الخركوشي: تهذيب الأسرار.

الفصل التاسع:
مَدارات الفتنة

«الصراط أدقّ من الشعر وأحدُّ من السيف.»

تلفُّه العبارة، تطيحه نحو أعماق السهاد، ليتقلَّب في سريره الوثير، داخل غرفة رحبة تزيِّنها نمنمات جميلة، انسجم سحرها بأنوار قناديل خافتة منحت جوَّ الغرفة المزيدَ من الألق والفخامة.

يتقلَّب متأمِّلًا ما ستؤول إليه الأمور غدًا.

لقد حلَّ هنا منذ أسبوع بعد مرور عامين كاملين على وداعه مصطفى والأميرَ موسى على مشارف تبريز الغربيَّة.

عامان أمضاهما في زاويته على قيد التشوُّف والتريُّث، يترقَّب بلهفة الوقتَ المناسب الذي سيعود فيه إلى بلاده. وها قد عاد هذه المرَّةَ بكسوةٍ مباركة وحظوةٍ تامَّةٍ الشيخُ بدر الدين، الذي ببركاته المغلَّفة بأمانٍ غامضٍ وبحظوته لدى أمير تبريز، أطلق سراح جثمان

السلطان الأسير بايزيد ليوارى الثرى في تربة أبيه وأجداده من سلاطين بني عثمان. وأمَّا في الدنيا الغربيَّة، حيث السلطنة المنبثقة من دمار وهزيمة، فقد قالوا عنه إنَّه هو الشيخ بدر الدين الذي دفع بنيّاته الطيِّبة وعزيمته المبارَكة أمراءَ المغول وأتباع تيمورلنك إلى إطلاق سراح الأمير موسى وحاشية السلطان المهزومة.

عامان بقي فيهما على قيد مدرسته معلِّمًا، شيخًا، متصوِّفًا، بازدياد طفيف في لمعان عينيه تسبَّبت به حماسته الزائدة في أروقة الزاوية عقب كلّ زيارة سرِّيَّة كان يقوم بها رُسل صديقه مصطفى القادمون من أعماق الأناضول بمباركة الأمير موسى، ليفيدوه بآخر التطوُّرات والأحداث الجارية في مدارات الفتن وساحاتها بين الأخوة، إذ ما إن ووريَ جسد بايزيد الثرى حتى تقاسم أبناؤه إرثه المتهالك، متصارعين فيما بينهم، تقودهم الفتنة إلى التفرُّد في حكم أبيهم حيث بلغته الأنباء التي كان ينتظرها بتأمُّل وتشوُّف، إذ ظهر سليمان ولد بايزيد في أدرنة عاصمة السلطنة البائدة، لتبايعه فلول الجيش، فغدا سلطانًا للعثمانيِّين في الشطر الغربيّ من الأناضول المجاور لهيبة القسطنطينيَّة، محالفًا في سبيل حماية سلطانه وتثبيته ملكَ الروم إيمانويل الثاني، متنازلًا له عن سالونيك، وسواحل البحر الأسود، في مقابل مساندته في محاربة إخوته. وأمَّا عيسى، فقد ظهر في بروسة ما إن علم بوفاة أبيه، فجمع مَن تبقَّى من جند السلطنة المنهزمة، وأعلن عن نفسه خليفة للمسلمين، مسيطرًا على مساحات واسعة من جنوب البلاد. وأمَّا محمَّد أصغرهم، فكان يحارب هو ومَن تبقَّى معه من جيش الإنكشاريَّة الرهيب الفرقَ والحاميات العسكريَّة المغوليَّةَ الموجودة في شرق جبال الأناضول ووسطها. وأمَّا موسى، المنعتق بجثمان أبيه، فقد انضمَّ إلى جيش أخيه محمَّد في محاربة أخيهما عيسى، الساعي لإقامة سلطنته في

الأراضي الجنوبيَّة بأكملها. وفي ظلِّ قهقهات الفتنة التي كان يُلقيها تيمور في أجواء الأخوة المتصارعين، أخذ الأمير محمَّد يركِّز جهوده، هو الذي كان يحلم باستعادة مجد أبيه عبر فرض سلطانه على بروسة وقونية والمدن الأناضوليَّة الجنوبيَّة والشرقيَّة كافَّة، وإبادةِ نيّات عيسى ومساعيه، منشغلًا في محاربته عن أخيه الآخر سليمان، سلطان أدرنة، إلى أن تحقَّق مراد الأمير محمَّد بقتل أخيه عيسى وإزالة آثار ما كان يسعى لتحقيقه من سلطنة.

كلُّ هذه الأنباء كانت تَرِدُه، هو الذي كان في أعماق زاويته يترقَّب مراقصًا نوره على مرأى تبريز، وأميرها، وأهلها، وصديقه طورة الذي اقتنع أخيرًا بقدرة بدر العجيبة على التطلُّع المنير ومعرفة ما ستؤول إليه الأمور في غرب الدنيا، ليكتشف أنَّ بذرًا لم يكن يحلم، ولم يكن مخدوعًا بأوهام مستحيلة، بل كان يسير مؤمنًا برؤياه التي شفَّت منها أخيرًا بوادر مذهب يسعى بدر لتحديده. مذهب لم يشهد طورة في انبثاقه ما تعربش بركات بدر من دهاء ونيّات خفيَّة تخدم مقاصده وغاياته المعلنة. لم يشهد طورة تلك اللحظات التي زلزل فيها بدر مصير غرب الدنيا بأنفاس مخيفة اقشعرَّ من دهائها أمير تبريز. كلُّ ذلك كان في سبيل فتح السبيل وتحقيق المنى والإشارات الخفيَّة. خيرٌ بِشرٍّ وشرٌّ بِخير، فهل خلطت يا بدر والتبست عليك الرؤى؟

غير أنَّ جلَّ ما شهده طورة هو تلك الزفرات، والعبرات، والآهات، والأشجان، والآمال، والرؤى التي كان بدر الدين يُحيطه بها منذ ماضيهما معًا في القاهرة، والتي تصير مذهبًا قارب على السطوع؛ بوادر مذهب يشي بالتمرُّد، وينبئ بالعدل والحقّ، وإزالة الجهل من قلوب الناس. أجُننت يا بدر؟ أهكذا صدَّقت رؤاك متشبِّثًا بها لتمتطيها مُحلِّقًا في سماء غيبك؟

كان طورة يشاركه في انزوائه بالرسل الأتراك. كان يلمس انغماس بدر في كلِّ حرف يتفوَّهون به في حضرته ليغمر المجلس بالسرور والرضى، معانقًا نيّاته المتجلّية في أفعال الأمير موسى، وأمير الحرب مصطفى نور الدين، في فتنة الأخوة المستعرة في الأناضول ليقتنع بدر أخيرًا بقرب الرحيل.

بدر الدين الذي لم يكن ليُسِرَّ إلى طورة بتلك الأحاديث التي كان يحيطها بالغموض والكتمان في زاوية خيمة الأَسر البالية، حين كان يزوِّد الأمير موسى بأمر التحرُّر المشوب بتطلُّع بدر إلى العودة إلى بلاده، ليسهم في إعادة الأمجاد إلى السلطنة العثمانيَّة، كان يترقَّب غيبًا سيلمع وسيشهده كلٌّ من طورة وأمير الحرب مصطفى.

عامان أمضاهما في زاويته منتظرًا من دون أن يسأم منها ولا من حلقات علمه وذِكْره. ظلَّ على عهد نوره، يعلِّم ويرشد مطعِّمًا حلقاته بجرأة كانت مكتومة في فضاء مجلسه منذ أن أقامه له أمير تبريز. كانت خطبه ودروسه تسطع منها أنوارُ الرفض، والتمرُّد، والجهاد في سبيل الحقّ والعدل والمعرفة النورانيَّة. لم يعد ذلك المعلِّم المتلفِّع بمُرَقَّعة الدرويش، إذ استحال تصوُّفه إلى معرفة صافية ألقاها في قلب الجهل ليبعثره ويشظِّيه.

في تلك الأيَّام الناشئة من ترقُّب وآمال، صرف بدر الدين العديد من التلاميذ والمُريدين، وأخذت الأجواء في الزاوية تنزع نحو الحلقات المغلقة والخافتة، والتي كان يقيمها لثلَّة من تلاميذه إلى أن اصطفى منهم سبعة، كانوا أخياره، كما قال لطورة موضحًا مقاصده من وراء ذلك:

ـ ما نحن مقبلون عليه، يا طورة، لن نقدر على عبئه أنا وأنت وحدنا، فنحن في حاجة إلى المريدين الصادقين الأوفياء القادرين على

قبض الجمرة ونشر الفكرة.

ـ كأنَّنا مقبلون على حرب، يا بدر؟

ـ بل أشدُّ من الحرب. وهؤلاء الأخيار السبعة سيكونون حَمَلَة رايات العلم والجهاد به.

كانوا سبعة تلاميذ في ريعان شبابهم، ومن أصول ومشارب مختلفة، تركيَّة وفارسيَّة ومغوليَّة وعربيَّة وروميَّة، وبينهم أيضًا حبيب، عازف الناي وأمين فؤاد بدر الدين. سأله طورة حين ذاك مستغربًا وهو يذكر له أسماء أخياره:

ـ وما شأن عازف ناي في مقاصدنا، وهو لا يتقن سوى العزف، حتى إنَّه عاجز عن الاجتهاد في شؤون علمنا؟!

ـ حبيب، بعزفه، يبعث فينا الحنين والشوق نحو الاتِّحاد بأنفاس الله. إنَّ في عزفه ما يَشفي الصدور ويُنعش عافية القلوب، وهو العالم بعزفه وأنين نايه وجدوى علمه.

حبيب هو ذلك الفتى الذي انجذب إلى الزاوية، في إثر حلول بدر المفاجئ عليه برقصه المفعم بالوَجْد في تلك الحانة الفجريَّة؛ حبيب الذي كان بلسانه الثقيل وتأتأته وتلعثمه في كلامه مثارَ سخرية أترابه مَن حوله، ليتوحَّد في نايه وبلاغة أنينه، منجذبًا إلى زاوية بدر الدين الذي رحَّب به ليغدو أنينُ نايه النغمَ الذي تُقام في أثيره حلقات الذِّكْر والوجد، ولم يكن بدر ليتخلَّى عنه.

كانت أجواء انخرط فيها طورة مزيلًا عن صدره الريبة والخشية من التباس الرؤى على بدر، لتغدو تهلكة أوهام، بحيث كانت الزاوية تسير كما شاء لها سيِّدها وشيخها الذي يمضي بين الفينة والأخرى إلى أمير تبريز ليُعْلِمه بتحقُّق نيَّاته بفتنة مستعرة، ويُطمئنه إلى حدوث ذلك،

مخفيًا في صدره نيَّاته الخفيَّة النازعة نحو الرحيل على حين غرَّة إلى غرب الدنيا.

وما أنزل على قلبه السرور في أثناء انتظاره وترقُّبه، هو ما أنعم به الله على تلميذيه زينب وعبد الله من أنفاس بريئة أخذت تتردَّد في أنحاء الزاوية، إذ رُزقا طفلة أبت زينب إلَّا أن يباركها ويسمِّيها بدر، فأسماها معشوقة، وكان عمرها حين رحل من عمر ترقُّبه عامين.

عامان كان يتلقَّف خلالهما الأنباء التي يتوخَّاها لتزيده نورًا ـ هكذا كان يعتقد ـ؛ نورًا يُضيء كشفَه وغيبه وهواتفه، ليغدو شفيفًا برفقة طورة، شيخ يمينه الذي باغته بدر بشيخ يساره في أثناء عناقه له على مشارف تبريز الغربية.

هكذا قال له بدر: آن أوانك يا طورة لتنعم بالنور، يا شيخ يميني وصديقي، ليتَّحد به طورة هاتفًا: فداك الحياة والروح، فانطلقْ وحلِّقْ، فواللهِ قد ومضت بوارق الحقّ في مُرَقَّعتك.

إلى أن حلَّت الإشارة، وتردَّدت العبارة في أنحاء تبريز معلنة وفاةَ سلطان السلاطين ووليّ أمر المسلمين الخان الأعظم تيمورلنك في ذروة انهماكه في حربه الشرقيَّة في الصين.

مات تيمورلنك في أوج ترقُّب بدر الدين، كأنَّ موته كان تذكرة العودة إلى البلاد القديمة. وقت ذاك حجب نور زاويته فجرًا مدَّعيًا الحزن والتأثُّر بالمصاب الجلل، في حين كان نوره الخاصّ يتجلَّى في أثناء إعداده نفسه وطورة وأخياره السبعة، منطلقين في قافلة مكوَّنة من عربة وثلاثة أحصنة كان قد أهداها إليه الخان الأعظم الراحل، بعد أن منح البيت لمن يستحقّه، عبد الله راعيه الأوَّل وزوجته زينب وطفلتهما البهيَّة التي قبَّل رأسها وضمَّها إلى صدره لحظة الرحيل قائلًا:

ـ واللهِ، إنَّها لزاوية قائمة بالعشق، فاحفظوا نوركم وتجلُّوا به.

ثم رحل بدر الدين بعد عامين من الترقُّب.

* * *

وهو هنا منذ أسبوع، إذ حلَّ في بيت صديقه مصطفى، بل في قصر أمير الحرب الهمَّام الذي أفرد له جناحًا فخمًا فيه، وآخرَ لطورة وأخياره السبعة، ليهنأ بهم مصطفى، وبحلول بدر الأخير وتجلّي نوره في أرجاء بروسة.

بروسة التي نزل بها في الصيف؛ عاصمة العثمانيِّين البكر ومدينة الفقهاء والعلماء، المزدحمة بالمدارس والمعاهد والمحاكم وروَّاد العلم، والعاصمة الموقَّتة للأمير محمَّد الناشد سلطانًا، والساعي لإخضاع ما تبقَّى من ولايات الأناضول وإماراتها وتوحيدها تحت رايته وراية أبيه وأجداده، منتظرًا اللحظة المناسبة التي سيستعيد فيها العاصمةَ الأخرى والأهمّ؛ أدرنة، المجاورةَ لعاصمة الدنيا القسطنطينيَّة.

عندما حلَّ في بروسة كان في استقباله أولئك الذين ساهم في إطلاق سراحهم، وعلى رأسهم الأمير موسى وصديقه مصطفى، فأحاطوه بالسرور والرعاية، ساعين لردّ الجميل وإعلامه بآخر التفاصيل المتعلِّقة بمصير البلاد وما ستؤول إليه. لم يكن الأمير الشابّ محمَّد في بروسة، بل كان منهمكًا في إخضاع إزمير ومحيطها، فقال له الأمير موسى إنَّ بشرى لقائه محمَّد جلبي، الفارسَ الغازي، ستهلّ عليه في الأيَّام القادمة.

وها هي الأيَّام القادمة قد غدت غابرة، وغدا موعدها المرتقب والمشتهى مع الأمير العائد من توحيد سلطانه.

«الصراط أدقّ من الشَّعَر، وأحدّ من السيف»، فما الذي تسعى

إليه يا بدر، وأنت المقيم الآن بأجواء تخبّئ في طيّاتها آلاف الاحتمالات والأقدار؟ فهذه ليست تبريز، وليست القاهرة. هذه بلاد ما زالت مسفوكة مستباحة ساعية للملمة أشلائها في أمّة موحّدة؛ بلادٌ ترتع فيها الغايات المسمومة والمقاصد المستترة بسيوف التوحيد. وها أنت في مدينة العلماء والفقهاء، فعلى قدر علمك تكون.

عقد له الأمير موسى في مجلسه الأميري حلقة احتفاء وتكريم، شارك فيها نخبة من أئمّة بروسة وفقهائها وعلمائها، الذين كانوا يخفون كيدهم القادم على الرَّغم من إبدائهم السرور بلقائه والفخر بعلوم قاهرته، وقد غذَّت كيدَهم هذا غيرةٌ رهيبة في إثر حظوة تامَّة منحها الأمير موسى لبدر وحاشيته؛ حظوة لن ينالوا مثلها، وسيباركها الأمير محمَّد بعد قليل. فهل كنت يا بدر الدين تستعير سطوة لتجلِّل بها مذهبك المضطرب في داخلك؟

هل استبدلت أمير تبريز بسلطان ناشئ، بعد أن شعرت هناك في تبريز بأنَّ دعائم حلمك لا يحرسها نورك فحسب، بل أنفاس السلطة والجبروت؟

سأله طورة بقلق عندما كانا يتجوَّلان في شوارع بروسة بعد أن صلَّيا العصر في جامعها الكبير:

ـ هل أنت على يقين من تمكُّنك من حظوة هؤلاء القوم؟

أجابه بثقة:

ـ جُلّ ما أعلمه هو أنَّ قدومي إلى هنا سيكون له أثر في قادم الأيَّام، لا أعلم ما هو حتى الآن.

عقَّب طورة بلهجة طغى عليها التحذير:

ـ إنّني أراها بلادًا ممزَّقة يا بدر. وشأن إصلاح ذلك تنكّبه الأميرُ

الشابّ، فتراه يسعى لتوحيد سلطنته بلا هواده.

قاطعه بدر قائلًا بحزم وثقة:

ـ ومن هذه البلاد الممزَّقة سأخيط مُرَقَّعة لنور سيسطع فيها، فانظرْ أنت من حولك لتلحظ أنَّ أُسس السلطان لم تشتدَّ بعد، والأمَّة أهلكتها الفتن. فلماذا يكون محمَّد جلبي هو صاحب الحقّ في استرداد السلطنة، وليس سليمان المتحصِّن في أدرنة، أو ذاك الذي قتله في الماضي القريب، عيسى، الذي بايعه كبار قادة أبيه الراحل وأمرائه؟

هدأت خواطر طورة الذي لم يكن ليرتاب لحظة من تطلُّع بدر، حين كان يؤكِّد في داخله ذلك الإحساس المفعم بالأمان والثقة ببدر الدين ومساعيه وأمانيه ومُرَقَّعته.

وبالرَّغم من سرور طورة بالعودة أخيرًا كي يستنشق رياحين بلاده الأمّ، فإنَّه كان متخبِّطًا مرتبكًا بسبب قربه الطارئ من قونية التي تحدُّه من الجنوب، حيث مهدُه وأصله وعشيرته الأولى، هو الذي ألقى بكلِّ شيء خلفه منذ سنين طوال. وها هو بعودته ينكأ جراحًا عتيقة وأصلًا يهوديًّا لا يندمل، فهل كان ليقوى على زيارة أهله وإخوته؟ وهل كان يعلم حقًّا إذا كان والداه في قيد الحياة، أم لا؟

وهذا الأمر لم يكن ليخفى على بدر، إذ واساه قائلًا بحرارة عندما لمس حيرته وأساه:

ـ هوِّنْ عليك يا طورة ولا تدعِ الأسى يمسّ قلبك. فإذا أشار إليك فؤادك بزيارتهم فاذهب ولا تشعر بأدنى حرج وخشية.

تلوَّن وجه طورة من شدَّة الاضطراب وهو يدلف برفقة بدر من قصر مصطفى الواقع شمالي بروسة، ثم قال بمرارة:

ـ إنَّه شجن لا يفنى يا بدر، لكنَّه لن يشدّني إليهم. كلَّا، لن

أعود، فقد أنكرتهم وأنكروني، ولا شيء يجمعني بهم سوى توحيد ربِّ السماء.

سكينة بدر الراسخة كان طورةَ الذي خالف زينة الحياة من مال وبنين، معلّقًا مصيره بمُرَقَّعة بدر الذي لطالما سعى لإقناعه بالزواج، إلى درجة أنَّه كان سيعرض عليه الزواج بزينب قبل أن توفَّق في زواجها بعبد الله.

أمَّا مصطفى، الذي انبثق من غيب مبارك، فهو سيف بدر المرتجى وأمانُه وشكيمته وسطوته القادمة، وشيخ يساره، الذي بقدر قوة سيفه كانت صداقته الوفيَّة لبدر وطورة.

إذ أقنعه بدر بالسيف في رحاب الأزهر، منذ زمن، ودفعه نحوه قائلًا له: لن تسود إلَّا بما تعشق. ومصطفى لا يعشق سوى السيف، متجنّبًا طريقًا ملتبسًا بالمتاهات الخاصّة ببدر الدين، ليعود إلى بلاده، وليغدو فارسًا لا يُشَقّ له غبار إلى أن انكسر وهُزم، ثم لاح بدر الدين ولـمَّ أشلاءه وأعاد إليه سيفه وعزَّه، متوغّلًا في صدره الذي اتَّقد بإشارات نور جذبه بدر إليها.

توطئتَك كان مصطفى، أليس كذلك؟ توطئتك وشيخ يسارك الذي سيمتشق سيفك كما يمتشق طورة كلامَك؛ مصطفى الذي باح لك بكلّ الأسرار والخفايا؛ باح بعوالم بني عثمان الخفيَّة، وبصراع الأخوة والأمراء الذي كان مستترًا في ظلّ سيف بايزيد، ليندلع مستعرًا في إثر وفاته، فزوَّدك بملامح واقع ستسكنه برؤاك، ولتزوِّده أنت بعدل السيف وقوَّة الحقّ فانصاع وانجذب إلى أنوار مذهبك؛ هو الذي رحَّب بزينة الدنيا بإخلاص، حين تزوَّج ثلاثًا من النساء وأنجب منهنَّ عزوة من الأبناء. مصطفى الذي أدماك ذات قاهرة، حين أنذرك مبكّرًا من قبل أن تغوص أكثر في عشق مكنونة التي لا تغيب إلَّا لتتجلَّى؛ مكنونة التي

ترافقك وتلفّك بأنفاسها العطرة في حياتك المنقلبة من حال إلى حال. توقَّف، يا بدر، أتوسَّل إليك، لا تجعلها تتجلَّى في دمك الآن. أتوسَّل إليك، أَخمِدْ صوتها وطربها وصفاء ضحكتها، واخلدْ إلى نوم تَسْتَعِدْ بعده ألقك ونشاطك، فلقاؤك المرتقب مع محمَّد جلبي سيكون بعد سويعات من هذا الفجر.

في صباح اليوم التالي، كان جالسًا في حديقة القصر برفقة مصطفى وطورة، يحتسون الشاي متنعِّمين بصباح صيفيٍّ مشبَع بنسيم بارد.

سألهما مصطفى بودٍّ وانشراح:

ـ أرجو أن يكون مقامي هذا قد نال رضاكما. فواللهِ ما زلت غير مصدِّق اجتماعنا هذا بعد أن عصفت بنا أهوالُ الدنيا؟

أجابه طورة مداعبًا، في حين كان بدر غارقًا يفكّر فيما هو مقبل عليه من لقاء هذا اليوم مع الأمير محمَّد:

ـ وهل ثمَّة نعيم أبهى من نعيم الصداقة يا مصطفى، غير أنَّنا نرجو ألَّا نكون قد نغَّصنا عليك مشاغل قصرك وأزواجك.

قهقه مصطفى بصخب، ثم قال:

ـ أمَّا من هذا فلا تخشَ يا صديقي. فلم يشغلني أحد عن قصري سوى أَسر ذلك الهالك تيمور.

ثم انخرطا معًا في ضحكة مرحة لم يشاركهما فيها بدر الذي استرعى انتباهَ مصطفى شرودُه، فقال مداعبًا:

ـ أرى أنَّك أبكرت في شرودك هذا الصباح يا شيخنا. أيشغلك لقاء اليوم؟

أجاب بدر الدين بصوت أجشّ:

ـ كلَّا، إلَّا أنَّني لا أعرف ما الذي سيُفضي به إليه، ولا ماذا قال الأمير موسى لأخيه عنِّي؟

ـ لا تقلق. فالأمير موسى، من قبل حلولك علينا، وهو يحيط أخاه بمدحك والثناء عليك بحسن تدبيرك في مواراة أبيهما الثرى.

عقَّب طورة مداعبًا:

ـ سوى الحظوة وطِيب المقام والمكانة المحفوظة لعلمك وبركاتك، ما الذي تسعى إليه يا بدر؟ تولِّي شؤون السلطنة؟!

أجاب بدر الدين بجدِّيَّة طردت أجواء الفكاهة:

ـ ما جئت هنا باحثًا عن قَدْر لعنتُه منذ صغري. لكنت رضيت قانعًا بِقَدْر أبي!

ثم صمت في ظلِّ ارتباك صديقه، إلى أن قال مصطفى:

ـ إنَّ الأمير محمَّدًا شارف على الانتهاء من إخضاع جميع الولايات المنقسمة وتوحيدها. وأمَّا عودته اليوم، فهي لإعداد العدَّة لاسترداد أدرنة من سليمان، إذ سيحشد جيشًا مُوَلِّيًا عليه الأميرَ موسى.

لمعت عينا بدر بعد أن لاحت الإشارة من حديث مصطفى، فتهلَّلت أساريره قائلًا:

ـ ومتى نمضي يا مصطفى إلى مجلس الأمير موسى؟

ـ الآن، إن شئت.

* * *

كانت بروسة، بأحيائها وناسها، قد خرجت لتوِّها من جحيم الفتن التي أوقدها تيمور في إثر حربه العاتية، تحثّ الخطى نحو استعادة مكانتها الأولى عاصمةً لبني عثمان، حيث كانت حركة العمران وإعادة

ترميم ما خلَّفته الحرب من دمار تجري على قدم وساق، في ظلّ استعادة المدارس والمعاهد مكانتَها الأولى المزدانة بحلقات العلم والفقه ودروسهما، إلى جانب وجود أغلبيَّة الحاشية السلطانيَّة وأمراء السلطنة فيها. فبروسة كانت قاعدة الجيوش والفرق العسكريَّة المنطلقة نحو إخماد الفتن وإخضاع الولايات المنشقَّة.

في القصر السلطانيّ الذي كانت إعادة إعماره تجري بسرعة، كان يقطن الأمير موسى نائبًا لأخيه الأمير محمَّد جلبي، يتربَّع على عرشه الناشئ في صدر المجلس الذي انتهى المهندسون والبنَّاؤون من إعادته إلى سابق عهده بما له من هيبة وزخارف سلطانيَّة.

لمس بدر الدين، وهو يدلف برفقة مصطفى وطورة، مظاهرَ الأبَّهة التي تكسو المجلس، والتي انعكس ألقها في عينَيِ الأمير موسى الممتلئ نشوة وسرورًا بتربُّعه الموقَّت على عرش أخيه.

رحَّب بهم الأمير بحماسة وهو يقوم عن عرشه لاستقبالهم:

ـ أيُّ بركة حلَّت على مجلسي بقدومك لزيارتي أيّها الشيخ الجليل؟

أجابه بدر بخفر وهو يصافحه:

ـ أدام الله عزَّك يا مولاي.

قال موسى وهو يدعوهم إلى الجلوس:

ـ لقد جاءني رسول من قبل أخي الأمير محمَّد منذ قليل يعلمني بعودته الأكيدة هذا اليوم؛ كي يعقد المجلس الحربيّ الذي ستكون حاضرًا فيه.

ردَّ بدر مرتبكًا:

ـ ولماذا أحضره يا مولاي، فشأني شأن علم وذِكْر.

ـ بل شأن حرب أيُّها الشيخ. ولن أوضح أكثر، فصبرٌ جميل.

ثم انخرطوا في حديث بشأن آخر ما أحرزه جيش محمَّد من فتوحات وانتصارات ستُسهم حتمًا في إعادة اللحمة إلى السلطنة العثمانيَّة المتفرِّقة. كان بدر يُشارك في الأحاديث مدَّعيًا الإصغاء بحماسة، إلَّا أنَّه في داخله كان يفكِّر، بخشية، فيما أملاه عليه الأمير موسى، إلى أن حلَّ المساء وصدحت الأبواق في بروسة، معلنة العودة المظفَّرة للأمير محمَّد جلبي.

ثم عُقد المجلس الذي أمَّه حشد من نخبة العلماء والأمراء والأعيان، الذين غمروا الأمير بمدحهم وثنائهم عليه، هو المقبل على توحيد الأمَّة وبعث أمجادها من جديد.

كان بدر وطورة يجلسان إلى جانب مصطفى، بعيدين بعض الشيء عن صدر المجلس الذي كان يتربَّع عليه الأمير متوسِّطًا مفتي السلطنة وأخاه الأمير موسى.

وكان بدر، بين فينة وأخرى، يرمق الأمير محمَّدًا، متوخِّيًا التغلغل إلى أعماقه، هو الأمير الشابّ البالغ من العمر اثنين وعشرين عامًا، متوسِّط القامة، مستدير الوجه، متلاصق الحاجبين، أبيض البشرة، أحمر الخدَّين، واسع الصدر، صاحب البدن القويّ.

ثم لمح بدر الأمير موسى يميل على أخيه هامسًا في أذنه، فهزَّ محمَّد جلبي رأسه باهتمام، ثم تنحنح قائلًا بصوت جهوريّ واثق، طرد همهمة المجلس وهمساته:

ـ بسم الله الرحمٰن الرحيم

لقد خبرتم أيُّها الناس ما أنزله الله علينا من المجاهدة والصبر، على ما نال مُلْكنا من تشتُّت الأمر وأحوال السلطان، فإنَّنا بتوفيق من

الله، عزَّ وجلَّ، قد عزمنا على عقد لواء جيش يقوده أخي موسى، لاسترداد رمز عزَّتنا وعاصمة آبائنا أدرنة ومحيطها من الذي بغى وغدر وعلا واستكبر،

وعليه. . .

توقَّف عن حديثه للحظات مشبعة بالترقُّب والهيبة، ثم استدرك قائلًا:

ـ وعليه، فإنَّني لا أجد في هذا المقام لنصرة أخي ومباركته في حربه القادمة، خيرًا ممَّن نصره وأنجاه من أسره وأراحنا بدفن أبينا في تربتنا الطاهرة، بعيدًا عن نجاسة تيمور وتربته الكافرة. فإنَّي ولَّيت الشيخ بدر الدين محمود قضاء هذا الجيش ورعايته، فنعم الشيخ والقاضي.

ختم السلطان حديثه وهو يرمق من صدر مجلسه بدرَ الدين، الذي أوشك على الغياب من وطأة المفاجأة من دون أن يلوي على شيء. وفي ظلِّ همهمة المجلس وتعليقات الحاضرين على عزم الأمير محمَّد، لم يعقِّب بدر الدين بأدنى كلمة، في حين لاحظ مصطفى اضطرابه وثقل أنفاسه، هو اللاهث المأخوذ بما أنزله الأمير عليه من منصب وحظوة: «قاضي العسكر»، أسمى مراتب الجيش والدولة. قاضي عسكر، يا بدر.

وما إن أخذ الحضور بالانفضاض مع لحظة وقوف محمَّد جلبي وتأهُّبه للرحيل، حتى اقترب الأمير موسى سعيدًا متهلِّل الأسارير من بدر، وصافحه بحرارة مباركًا منصبه الجديد، ثم دعاه إلى إلقاء التحيَّة على الأمير محمَّد، فلم يتردَّد بدر، المضطرب بمشاعره الجيَّاشة في إثر سماعه نبأ منصبه في قضاء الجيش، في الاقتراب من الأمير وكان على

وشك الانحناء له، فاستوقفه الأمير بصوته الحازم:

ـ حسبك أيُّها الشيخ الجليل، فالانحناء لا يليق بمقامك.

هال بدرًا قولُ الأمير، فلم يتمالك روعه. وقف في حيرة من أمره عاجزًا عن البوح، ثم رفع رأسه ليرميه بنظرة ثاقبة، فارتعدت فرائصه عندما حدَّق في عيني محمَّد اللامعتين. كان ثمَّة شعور غامض انبعث منهما ليلفّ بدرًا بخشية رهيبة، ثم مدَّ يده ليصافح السلطان قائلًا بارتباك وخفوت:

ـ إنَّها لثقة غالية شرَّفتني بها باختياركم لي يا مولاي.

أجابه السلطان ببرود وهو يستعدّ للانصراف:

ـ فصُنْ عهدنا أيُّها الشيخ.

* * *

قاضي العسكر يا بدر. هذه إشارتك، والله!

هتف طورة بغبطة هائلة في أثناء جلوسه ومصطفى برفقة بدر في جناحه.

فأجابه مداعبًا:

ـ ليس هذا فقط، بل أمير الحرب وقائد أهمّ فرقة في الجيش هو شيخ يساري هذا.

فالتحق مصطفى بسرورهما قائلًا:

ـ وماذا سيكون شأن شيخ يمينك إذن؟

فأجاب بدر بحزم عن سؤال مصطفى الجارح:

ـ طورة نائبي وشيخ يميني وأمين أسراري.

عقَّب مصطفى مقهقهًا:

ـ على رسلك يا بدر. فأنا أعلم بمقام طورة لديك ولديّ أيضًا، فهو صديقي وأخي. غير أنَّ ما أقصده: هل سيلتحق بنا، أم سيظلُّ مع تلاميذك الغامضين؟

قال طورة بجدِّيَّة حازمة:

ـ أينما تذهبا أذهبْ. وأينما يُشرِقْ نور بدر أَكُنْ. أمَّا أولئك السبعة، يا مصطفى، فهم أخيار بدر ورجالُه الذين يحرسونه ويطيعون أوامره.

ردَّ مصطفى بفخر:

ـ بوركت يا طورة. ولكنَّني أنا شيخ يساره، وأنا من يحرسه ويحميه.

كانت جلسة عامرة بالسرور والصداقة. أمَّا بدر، فقد كان قلبه يخفق بشدَّة بعد أن تجلَّت له على حين غِرَّة بلدتُه العتيقة سيماونة، بربوعها وطبيعتها الخلَّابة، فبعد قليل سيغدو على مشارفها ومشارف أدرنة، بعد الانتهاء من إعداد الجيش. فبحسب ما أفاده به الأمير موسى، فإنَّ الجيش سيكون نهجُه الحربيّ نهجَ حصار ومعارك خاطفة، بجيش يتجاوز عشرة آلاف جنديّ وفارس، على رأسهم أمير الحرب مصطفى نور الدين؛ جيش غايته واحدة سامية هي استرجاعُ أدرنة وإبادةُ فتنة سليمان.

في ذلك المساء، وحدَه طورةُ كان يتساءل في سرِّه: هل كان بدر صادقًا حقًّا في حيرته واضطرابه من تعيينه قاضي عسكر؟ أم أنَّه ادِّعاءٌ تفوح منه رائحة خيمة أسر بائدة؟

* * *

في مقدِّمة الجيش، كانوا يمتطون خيولهم. الأمير موسى قائد

حملة الإخضاع بكامل لباسه الحربيّ، يتوسَّط أميرَ حربه مصطفى، وقاضي العسكر بدرَ الدين الذي انعكست على خوذته الحربيَّة إشراقة نهار يُؤْذِن بالحرب.

لم تكن هيئته تشي بأصله الذي كان عليه قبل قليل، أصل العلم وأسمال الصوفيَّة، وتلك المُرَقَّعة التي كان يرتديها مستديرًا حول نفسه في حلقات وجده. متأهِّبًا كان يطلُّ على الجيش ليلقي عليه بركاته بخطبة تشدُّ من عزيمته، ولكن هذه المرَّة لن يلقي الكلام بفصاحة عربيَّة، بل بلغة قومه التركيَّة، وبصوت جهوريّ أحاط الجيش برهبة الحرب:

ـ يا عباد الله، أيُّها المجاهدون في سبيل الله وإعادة اللُّحمة إلى جسد الأمَّة، إنَّ ما نحن مقبلون عليه هو حرب مباركة، نستعيد فيها، بإذن الله، البلادَ التي استفرد بها ذلك الضالّ سليمان بفتنته. فإنّنا سننتصر بعزيمة لن تلين، وبقدرة ربٍّ كريم، وفَّق بها أميرنا محمَّدًا جلبي بحسن التدبير بتفويض أخيه الأمير موسى بقيادتكم أنتم أيُّها الجند المباركون. فإنَّني أوصيكم التقوى بسيوفكم، والولاء لأميركم، فأخلصوا واعقدوا نيَّاتكم على نيَّة واحدة، لا رادَّ عنها إلَّا الموت أو وحدة الأمَّة وإعلاء رايتها، وعلى بركة الله.

رافق خاتمةَ خطبته هتافٌ موحَّد صاح به الجيش معلنًا ولاءه للراية العثمانيَّة، ملقيًا التحيَّة على قائده الأمير موسى، الذي كان، على الرَّغم من سروره وفخره بقيادة الجيش، ممتعضًا في أعماقه من بعض الإشارات المنبعثة من خطبة بدر الدين، قاضي الجيش الذي عبّأ الجيش بحماسة وإرادة وتقوى. وأيُّ تقوى تسود الحرب يا بدر؟!

* * *

ثم بدأ الزحف نحو الشطر الغربيّ لمضيق الدردنيل، الذي يفصل السلطان الناشئ في الأناضول عن سلطنة سليمان وغرب الدنيا. وما إن عبر الجيش محمَّلًا بآلات الحصار والمنجنيقات، حتى بدأت عمليَّة استعادة القرى والضِّياع الصغيرة، والحصون المحيطة بأدرنة من الجهتين الجنوبيَّة والشرقيَّة.

كانت الانتصارات تهلّ متتالية على جيش موسى، حيث استعاد قلعة ترنب، وأبسالا، ورودستو، وورداد، وكلمجينا، والأهمّ هو تحرير موسى قلعة جاليبولي من أخيه سليمان، والتي أصبحت القاعدة العسكريَّة الأهمّ، التي كان ينطلق منها الجيش بفرق قويَّة من نخبة الفرسان؛ لشنٍّ هجمات مباغتة وسريعة، قاطعة طرق الإمدادات التي كانت تزوِّد أدرنة بقوافل المؤن والعتاد.

كانت حربًا تجري شؤونها وسيوفها على خير ما يرام، في ظلّ دهشة الأمير موسى من سلسلة الفتوحات والانتصارات السريعة والمفاجئة التي كان يحقِّقها الجيش مدفوعًا بشرعيَّة الأمير محمَّد جلبي، الذي كان يُؤَمِّن مؤخّرة الجيش بفرضه سيطرته على أغلبيَّة أنحاء الأناضول.

وما زاد في حماسة الجيش، تلك الخطبُ المؤثِّرة التي كان يُنزل بها بدر الدين قاضي العسكر آياتِ الشجاعة والحماسة والإقدام والبركات على قلوب الجند.

بدر الدين الذي لم يكن ليرهب من شأن الحرب وأهوالها، هو الذي كان قد مرَّ في هذه البلاد في ريعان شبابه، عندما كان جنديًّا في جيش السلطان مراد، إذ لم تنل منه شدَّة المعارك ولم يجزع من صليل السيوف وصرخات الموت الدامية، من دون أن يستلَّ سيفه محرِّمًا على نفسه سفك الدماء، حيث لم يكن يشارك في المعارك بل كان يراقبها

عن صهوة جواده وتشوُّفه مؤمنًا بالنصر الذي سينبعث من أعماق الموت والدماء؛ نصر ليس من نصيبه هو، فهل سيكون نصرًا في سبيله؟

في هذا الوقت كان يوصي مصطفى أميرَ الحرب بالمهزومين رأفةً، وعدم إعمال سيفه في أجساد المستسلمين، فما دمت قد انتصرت فإنّه لم يتبقَّ لك من آثار المعركة سوى صون سيفك من سفك دماء مظلومة منكسرة، غُلبت على أمرها. هكذا كان يراود شيخ يساره الذي أنكر في بداية الأمر وصايا بدر، ولكنَّه ما لبث أن انصاع له كابحًا جماح إقدامه وسيفه الذي لا يُشَقّ له غبار، إذ اقتنع مصطفى بأنَّ معنى النصر لا يتحقَّق بإراقة الدماء، بل بالرأفة بالخصم والسعي نحو استمالته، من خلال العفو عنه ومنحه فرصة أخرى قد تمنحه حياة يكون هو سيِّد نفسه فيها.

وذلك ما لم يكن ليخوض فيه مع الأمير موسى، وخصوصًا عندما كان يلحظ في عينيه، في إثر كلِّ انتصار، ألقًا مخيفًا يشي بالاستحواذ والغرور المشوب بجشع خفيّ. ولذلك كان بدر على تريُّثه في عدم الإفصاح للأمير باعتقاداته وتعاليمه المطالبة بالتقوى والرأفة بالمغلوبين على أمورهم، ليُخفي هواجسه في حوارات وأحاديث برفقة الأمير عمّا يؤشّر عليه غيبُ الحرب من أحداث وانتصارات. فيتظاهر بدر في أثناء ذلك بالرضوخ لشرع الجيش وقائده.

وما بين معركة وزحف، كان الجيش يُقيم معسكراته من أجل إعادة تنظيم الصفوف وتدعيمها والتزوُّد بالمؤن، بالإضافة إلى إحصاء الغنائم وتقييدها.

في تلك الأجواء، كان بدر الدين ينصب خيمته بعيدًا عن الجناح المخصَّص لمقام أمير الجيش موسى وكبار قادته؛ خيمة بقنديل واحد فقط سوداء اللون، ينبعث منها نور واهن يؤنس وحشة بدر وأصحابه.

كانت بمثابة زاويته المتنقِّلة، في لياليه الهاربة من هول الحرب، حيث كان يعقد فيها جلسات العلم، وحلقات الذكر والسماع، برفقة طورة وأخياره السبعة، بالإضافة إلى مصطفى الذي تنازل عن هيبة الأمير ومقامه في خيمة ضخمة خاصَّه به ليُقيم بخيمة بدر المتواضعة.

كانوا ينخرطون في جلسات خاصَّة لا يشاركهم فيها أحد، في الوقت الذي تساءل فيه العديد من جنود الجيش وفرسانه عن ذلك الغموض الذي يلفُّ خيمة قاضي العسكر.

وما كان الغموض سوى حلقات ذِكْر وجلسات يُثَبِّت فيها بدر الدين قلوب أصحابه بمعالم مذهبه القاضي بالعدل والحقّ، من دون أن يزجّ بأخياره السبعة في ويلات الحرب، منزويًا بهم في خيمته ليستكينوا جميعًا بعزف حبيب وأنين نايه، بعد أن لمس بدر الدين حيرتهم وجزعهم من هذا الواقع الرهيب، المتمثِّل في حرب لا هوادة فيها. فهم كانوا، وعلى رأسهم طورة، حديثي عهد بشؤون الحرب، ولم يخوضوا يومًا في ويلاتها ومصائبها، كما كان يلحظ أيضًا تململهم وامتعاضهم من خضوعه، هو شيخهم ومعلِّمهم، لرغبات الأمير موسى، بل دعمه ومباركته له في إثر كلّ انتصار. تلك الرغبات الخفيَّة التي كان موسى يسعى من ورائها إلى فرض هيبة سلطانيَّة لم تتلبَّس بعد أخيه محمَّد، واثقًا بحلولها عليه.

وذات مساء، واجه بدر الدين شيخَيْ يمينه ويساره وأخياره داخل خيمته بمخاوفهم وحيرتهم، قائلًا بحزم:

ـ لا تهنوا ولا تجزعوا من أمري هذا. ولا يعتقدنَّ أحد منكم لبرهة بانكفائي عن مسعاي وارتدادي عن مذهب لقَّنتكم إيَّاه؛ لا والله، ما خنعت ولا خضعت، غير أنَّ هذا الأمير غرَّه النصر، وتغاضى عن التقوى والرأفة بالمغلوبين على أمرهم. وما أنا فيه من حيرة تلبَّستني،

ما سببه إلَّا عجزي عن إفهامه وجذبه إلى قيم مذهبنا ومعانيه، إذ إنّي كنت قد توسَّمت فيه خيرًا وسندًا لنصرة المظلومين، ولكنَّ العمى أصاب فؤاده. فالصبر يا إخوتي، فلن تطول غيبة الإشارة. وطريق الدم هذا لا ذنب لنا فيه، إذ هو طريق سيؤدِّي بنا حتمًا إلى إزالة الجور وإحقاق العدل والانعتاق.

سأله طورة الذي لم تهدأ أساريره بقوله:

ـ ألم تكن قد بشَّرتنا بيقينك من تملُّكك لأمر موسى؟ ألم تعلمنا بأنَّه سينطوي تحت راية مذهبنا؟

أجابه بدر الدين بهدوء:

ـ سبحان مغيِّر الأحوال والقلوب من حال إلى حال. إنَّ أشدَّ أعداء النفس الغرورُ والجشع. وموسى هذا، ثمَّة ما يترعرع في داخله من زرع شيطانيّ. ثمَّة طمع إمَّا سيقوده إلى حتفه وإمَّا إلى مجده.

أعاد طورة الكرَّة بسؤال آخر يقسو فيه على بدر ومساعيه:

ـ فلماذا لا نشرع أنا والأخيار على الأقلّ في نشر ملامح مذهبك؟ اتركنا نُلْقِ ما في نفوسنا بين الجند. سينجذبون، بإذن الله، فنحن لن نقول إلَّا ما يعتقهم ويُنير دروبهم وقلوبهم.

أجابه بدر بحزم وحدَّة:

ـ الصبر يا طورة. الصبر. فما تريده أنت في أجواء الحرب ونشوة الانتصارات ما هو إلَّا هلاك لنا ولمساعينا. قل لي، بالله عليك، كيف ستحرِّر نَفْسًا من ذلّ سيِّدها ما دامت هذه النفس منتشية بسيف سيِّدها، تحرق وتسبي وتقتل لتنال في النهاية الحظوة والاهتمام؟ كيف نثور ونحن في ظلال سيوفهم وحِرابِهم؟ نحن بحاجة إلى دعائم يا طورة... إلى سيف الحقّ.

ختم حديثه مشيرًا بيده نحو مصطفى، الذي تململ قائلًا بفخر:

ـ أنا رهن إشارتك يا شيخنا.

عقَّب طورة بخفوت:

ـ ومتى سنشهر هذا السيف؟

أجابه بدر بلا أدنى تردُّد:

ـ قريبًا، فالزموا الصبر والحكمة.

* * *

... وقاضي العسكر لم تكن مهام منصبه متمثِّلة فقط في إثارة حماسة الجند وتثبيت قلوبهم، بل كان إمامَهم في صلاتهم، وقاضيَهم في منازعاتهم. والأهمّ هو دوره في تقسيم العطايا والغنائم وفق سُنَّة الجيش العثمانيّ، وهذا ما كان يمقته بدر الدين ويؤدِّيه مرغمًا، مخفيًا امتعاضه وكراهيَّته، فتلك الغنائم لم تكن سوى حصيلة ويلات استباحة القرى والحصون المحيطة بأدرنة، ودفع الأبرياء وزر فتنة سليمان المستحوذ على سلطان أبيه، إلى أن جاء الوقت الذي سئم فيه بدر ادعاء الهدوء، وإحاطة الأمير موسى وجيشه بالبركات والصلوات، وذلك عندما استعصت على موسى بلدة مجاورة لأدرنة، تحوز حصنًا منيعًا ينظِّم الخطوط الدفاعيَّة الأماميَّة لجيش سليمان، إذ قضى العديد من الجند حتفهم في إثر محاولاتهم الحثيثة لاختراق سور الحصن المنيع. وجُنّ جنون موسى بسبب أمد الحصار الذي كان يطول، مرقلًا نيَّته في فتح أدرنة والقضاء على حكم سليمان، إلى أن تحقَّق له المراد بعد استمالته قائد الحامية الموالية لجيش سليمان ومنحه عهود الأمان على نفسه وعياله وماله، ليخترق موسى الحصار بالحيلة والغدر. غير أنَّه ما إن اجتاح بجيشه الجرَّار البلدة، حتى أعمل وحشيَّته

بها، مُطلقًا جنده بأحقادهم المستعرة لاستباحة حرماتها، وتخريبها، وإحراقها، كي تكون تلك البلدة عبرة لسواها من القرى والبلدات الموالية لسليمان، ناكثًا عهده لقائد الحامية، سابيًا أهله، مستبيحًا ملكه.

كان بدر الدين قد شهد المذبحة هو وأصحابه في الوقت الذي أمر فيه مصطفى بعدم الانجرار وراء رغبات ذلك الآثم موسى:

ـ إيَّاك والدم الحرام يا مصطفى. صُنْ نفسك وجندك من دم الأبرياء.

فأجابه مصطفى بثقة:

ـ ولكنَّ الأمير موسى منح الأمان لقائد الحامية.

ـ بل سيمنحه الهلاك. فإيَّاك أن تكون شريكًا فيه.

كان بدر على يقين مسبَّق بالجحيم الذي سيطال البلدة على يد موسى. كان يتحسَّر متألِّمًا وهو يشهد الاستباحة وسفك أرواح الأبرياء. كان يستمع إلى صيحات الاستغاثة وعويل أنفاس تحاول عبثًا التشبُّث بالحياة، غير أنَّ سيوف موسى أخمدت الحياة بالبلدة وقضت على أنفاسها. كانت إشارة إشهار ملامح مذهبه في وجه موسى قد انبعثت من جثث ـ وأشلاء ـ الذين هلكوا في إثر صراع فتنة متأجِّجة بين أبناء بايزيد، في حين كان طورة وأخياره يدفعون بدرًا، بنظراتهم الحزينة وحسرتهم وعجزهم، وهم يشهدون وحشيَّة الحرب، نحو مواجهة الأمير موسى، من خلال محاولة استمالته إلى الرأفة وردِّه عن سفك الدماء.

في ذلك المساء الدمويّ، توجَّه بدر الدين إلى خيمة الأمير موسى الذي كان يحتفل برفقة حاشيته بالانتصار، وعلى درجة عالية من النشوة

والانشراح. كان يجلس في صدر الخيمة، وفي حجره فتاة غضَّة شديدة الحسن، على الرَّغم من خوفها وانكسارها وشرودها عن أجواء الصخب والسرور والخمر التي أبهجت قلوب الأمراء والقادة، إذ كانت الفتاة ابنة والي البلدة الذي أذاق موسى ويلات المعركة بإطالته أمد الحصار، فانتقم منه موسى شرَّ انتقام بقتله وتعليق رأسه على بوَّابة البلدة. وما إن شرع في إبادة أسرته، حتى استرعته الفتاة بحسنها وبهائها، فألقى عباءته عليها معلنًا أنَّها حصَّته وسبيَّته الأبهى من الغنائم.

وقف بدر الدين بباب الخيمة يراقب أجواء النصر المحرَز بدماء الأبرياء من دون أن يسترعي انتباهَ أحد من حاشية الأمير، حيث كانوا جميعهم غارقين في خمر حفلهم وأنغامه، إلى أن تنحنح بدر ثم صاح قائلًا بحدَّة:

ـ السلام على مولاي الأمير.

صدع سرورَ حفلهم بتحيَّته الصاخبة، على نحو أدَّى إلى توقُّف العازفين عن أنغامهم، وأفراد الحاشية عن خمرهم. فهذا قاضي العسكر والشيخ المعلِّم بدر الدين، الذي انتفض موسى من حضوره المفاجئ، إلى درجة أنَّه أزاح الفتاة عن حجره بسرعة، آمرًا حاجبه بأخذها إلى مخدعها، مدَّعيًا الاحتشام وأدب الأمراء، ثم قال بصوت أجشّ مكسوف:

ـ وعليك السلام، وعليك السلام يا شيخنا. أقبل وأسعدنا بجلوسك.

أجابه بدر وهو يدنو من المجلس:

ـ فليأذن لي مولاي بالانفراد به.

فصفَّق موسى بيديه بسرعة إشارة منه إلى انفضاض مجلس السمر خلال لحظات رافقتها همهمة امتعاض واحتجاج خافتة من قبل أفراد الحاشية في أثناء انصرافهم في إثر مباغتة قاضي العسكر لهم.

دنا بدر من مجلس الأمير موسى، وجلس إلى جانبه، ثم قال بحزم:

ـ مولاي الأمير، أرى أنَّ المحارق والمذابح التي حدثت هذا الصباح لا تليق بشريعتنا وعدل ديننا وسُنَّة نبيِّنا. فبأيِّ حقٍّ نسبي كلّ ما تقع عليه سيوفنا ونستبيحه ونحرقه؟ أليست هذه البلاد لنا، فلماذا نمزِّقها هكذا بوحشيَّة؟

حدَّق فيه الأمير موسى بذهول للحظات بدَّدت غمامة سُكْره، إذ إنَّه صدَّق أخيرًا ما كان يتناهى إلى مسمعه من أقاويل تُفيد بتحريض بدر الدين لمصطفى نور الدين على عدم التعرُّض للآمنين في بيوتهم من المسلمين والنصارى واليهود، ثم ردَّ عليه موسى بحزم وصرامة لم يعهدهما بدر فيه من قبل:

ـ هذا عهد آبائنا، بل عهد الدنيا برمَّتها بجيوشها وأسيادها. فكيف تريد منِّي أن أكبح جماح جيش شهد استباحته، وتشريد أهله وقتلهم؟ أليس الرأس بالرأس، يا قاضي العسكر؟

أجاب بدر بضيق شديد:

ـ فإذا أحرقوا أحرقنا! وإذا أهلكوا أهلكنا! كلَّا يا مولاي. فعندما تكون قويًّا في إمكانك الصفح، وتجنُّب إحراق كنيسة، أو سبي عائلة بأكملها من اليهود، أو حرق بيت من بيوت المسلمين الذين والوا أخاك سليمان مغلوبين على أمرهم.

قال الأمير وهو يتململ في جلسته معربًا عن امتعاض شديد:

ـ هذا قول خطير لا أطيقه أيُّها الشيخ. فنحن في أوج حرب لا تحتمل كلامًا مثل هذا، وما سمعت أغرب ولا أعجب منه، والله!

انتفض بدر واقفًا يشرف على الانصراف، ثم قال بسخط:

ـ ألم تسمع منّي هذا الكلام عندما كنت أنت أسيرًا مذلولًا في معسكر تيمورلنك؟ ألم تؤيّدني على العدل والحقّ والرأفة؟ ألم تتَّعظ ممَّا أصابك في الأمس القريب؟

وقف الأمير موسى بدوره لمواجهة بدر، قائلًا بغضب:

ـ ويحك! أتعيِّرني بماضٍ أليم مُذلّ؟ أنسيت مقامنا يا هذا؟ أم غرَّتك الحظوة وإحساني إليك؟

قال بدر، في أثناء خروجه من الخيمة من دون أن يودِّع موسى:

ـ أعوذ بالله من أن أعايرك، بل إنَّني أذكِّرك بعِبَر الزمان، فاعتبرْ.

عاد بدر الدين ساخطًا إلى خيمته، بعد أن أدرك أنَّ الأمير موسى يَعمَهُ مسرفًا في غطرسة وسطوة في إثر انتصارات جيشه الباهرة، في لحظة أيقن بدر أنَّ هذا الأمير سيُلعَن بالجشع والشهوة الخفية للسلطان.

لمح أصحابه أثر السخط والخيبة على وجهه عندما دخل عليهم الخيمة، هم الذين كانوا يترقَّبون عودته ونتائج خلوته بالأمير، فجلس في مجلسه من دون أن يلوي على شيء، وظلَّ على قيد صمت عميق، إلى أن قال له مصطفى معاتبًا بعد أن كان يُدرك مسبَّقًا فشل مساعي بدر في استمالة الأمير موسى:

ـ لقد قلت لك: لن تفلح في إقناعه واستمالته. هذا دأب السلاطين يا بدر. فكيف ستقوى على إفنائه في ليلة وضحاها؟ كيف ستزيل أعراف الحرب وأصولها وسنَّة سادتها؟

زفر بدر قائلًا بضيق:

ـ لا عليك يا مصطفى، فذلك غرير أضاع قلبه.

عقَّب طورة قائلًا:

ـ أخشى أن يكيد لك يا شيخي. علينا أن نحذر منه ومن خناجر غدره وسمّ شرابه وطعامه.

قال بدر بهدوء:

ـ والله ما أخشى من هذا، بل أخشى أن أكون قد تهوَّرت في الإفصاح عن نهج ألحق به موسى. وأخشى أن أكون قد فشلت وأخطأت في استمالته إلى مذهبي.

صمت للحظات ثم أردف قائلًا بخفوت:

ـ يبدو أنَّني قد أخفقت في تجنيبه ويل أخيه.

عقَّب مصطفى بفخر مشوب بالتهكُّم:

ـ بعد أن أثخنَّا فيه وقطعنا أوصال مملكته الزائفة لم يتبقَّ لسليمان ويل يحارب به موسى.

ردَّ بدر بحزم:

ـ ومن قال إنَّه سيكون ويل سليمان؟!

* * *

في إثر ذلك اللقاء المحتدم بين بدر وموسى، وبتعاقب الشهور على الجيش المنتشي بانتصاراته الخاطفة، لم تعد أواصر المودَّة والصداقة بين الاثنين كسابق عهدها، إذ شعر موسى بالفعل بمخاطر آراء بدر، القاضية بالعدل والمساواة بين أفراد الجيش، وعدم الإسراف في البطش والقتل، كما كان يعلم بأنَّه لا يمكنه مناصبة بدر الدين العداء لمكانته المرموقة بين صفوف الجيش، وعلاقته المتينة بمصطفى

نور الدين؛ قائد أهمّ فرقة عسكريَّة في الجيش، إضافة إلى أنَّ موسى هو الذي لطالما أثنى على بدر ومدحه، وأحاط مقامه بالحظوة والرعاية في إثر فضل بدر وجهوده التي أثمرت عن تحرُّر موسى وجثمان أبيه من أسر تيمور.

في المقابل، ما ساهم أكثر في عدم تعرُّض موسى لبدر بالغدر القاتل، هو ذلك الندم الزائف الذي بثَّه بدر في صفوف الجند ووصل إلى مسامع موسى؛ ندم مرير سببه خطأ قاضي العسكر في تقدير أمور الحرب، ومخالفته للأمير موسى الرأي، فالحرب هي الحرب، ببؤسها ووحشيَّتها ودمائها، ولا يمكن لأحد المساس بسنَّتها، وذلك ما أمر به بدر أخياره السبعة وعلى رأسهم طورة، لينشروه بين صفوف الجند. لقد أجَّل بدر نشر معالم مذهبه الذي يتوخَّى العدل والحقّ، والذي يحلم بالمساواة التي يتمنَّاها، إلى حين ما سيلوح به الأُفق من بوادر لربَّما كان بدر الدين هو من خبَّأها هناك؛ هناك في أعماق غيبٍ مخيف.

في ظلِّ هذه الأجواء، كان الجيش يزحف منتصرًا لتتساقط قرى أدرنه وبلداته بقبضته كأوراق الخريف.

كانت معالم المعركة الحاسمة بين جيش موسى وجيش سليمان تلوح في الأفق، بعد أن شدَّد موسى الخناق على أدرنة بسيطرته على محيطها أجمع.

إلى أن حلَّ اليوم الذي لطالما انتظره بدر الدين وخشي منه؛ اليوم الذي بات فيه على مشارف بلدته ومهده الأوَّل في سيماونة، التي، بالرَّغم من مناعة حصنها وقلعتها، إلَّا أنَّ واليها وقائد حاميتها العسكريَّة قرَّرا تسليمها إلى عهدة موسى من قبل أن يضرب الحصار حولها، كي لا يضيب أهلها ما أصاب أهل تلك البلدة المجاورة لهم من بطش موسى.

كان يومًا ماطرًا من أيَّام الشتاء العاصفة، غسلت الأمطار فيه أسمال الجيش المنتصر الذي فرض سلطانه وهيبته في أرجاء سيماونة، في حين وحده بدر الدين من كان يرتجف، لا من شدَّة البرد، بل من شدَّة اللقاء بأصله وأثر مهده وأبيه وأمِّه:

ـ ألن تزور قصر أبيك؛ ذلك الذي لطالما حدَّثتني عنه وعن عزِّه؟

سأله طورة بودّ ورأفة بعد أن لمس حزنه ولوعته.

فأجابه بدر المبلَّل بالمطر وهو يدقِّق النظر من قلعة سيماونة نحو قصر أبيه الغابر الواقع في طرفها الغربيّ:

ـ كأنَّه محرَّم عليَّ يا طورة. ثمَّة لعنة تُحيط به وتمنعني من دخوله.

قال له طورة وهو يربِّت على ظهره مواسيًا:

ـ لا عليك يا بدر. لا تبالغ كثيرًا، فأصلك يردّك ويريحك من دربك هذا.

ـ بل أصلي هو دربي هذا يا طورة؛ دربي الذي ابتليت فيه بأمير دمويّ أحمق لن يرأف بالناس المغلوبين على أمرهم. قل لي، بالله عليك، ما ذنب هذه الأمَّة المستضعَفة كي تؤخذ بوزر فتنة بين إخوة يتصارعون على ميراث أبيهم. ويا ليته كان مُلكه أصلًا؟!

ـ هدِّئ من روعك يا بدر. أما قلت إنَّها غمامة وستزول عن بصيرة ذلك الأمير؟

أجابه بدر بثقة وحزم:

ـ ستزول، وإن لم يُزِلها هو فسأزيله أنا عن وجه الدنيا.

في المساء، وبعد أن عسكر الجيش في سهل من سهول سيماونة قريبًا من نهرها الصغير، دعا الأمير موسى، لأوَّل مرَّة منذ شهور، بدر

الدين إلى مجلسه، لمشاورته والتحدُّث معه بشأن ما أحرزه الجيش، بالإضافة إلى استعداده للمعركة الفاصلة ضدَّ سليمان الذي شرع بحشد قوَّاته خارج أسوار أدرنة استعدادًا للمعركة، كما أفادت «عيون الأمير» موسى المندسَّة في أدرنة.

افتتح الأمير موسى حديثه بلهجة طغى عليها الرجاء والعتاب بعد أن تحقَّق له لقاؤه بدرًا داخل خيمته:

ـ أيُّها الشيخ، لا تأخذْ عليَّ حفظي لعهد جيشي وُسنَّة آبائي. فإنَّني أسعى لاستعادة ما فرَّقته الفتنة وتوحيده، ولا أقصد من وراء هذا سوى إعلاء راية الإسلام التي يرعاها سلطان آبائنا. وعليه، فإنَّني ما رضيت ولن أرضى بمخاصمتك، فأنت من أُولي الفضل، ولذلك فإنَّني أمنحك هذه البلدة بكلٍّ ما فيها من خيرات وأراض وأرزاق إقطاعًا لك لذكرى الأيَّام الخوالي.

ارتعدت فرائص بدر في جلسته، فارتدَّ إلى الوراء من شدَّة ما ألقاه عليه موسى، كما لو أنَّ الأخير، باستخفافه هذا، قد أهداه حصانًا أو سيفًا، ثم تنهَّد بخفوت قائلًا وقد جاهد ليرسم ابتسامة رضا على وجهه:

ـ ونِعْمَ العطاء يا مولاي.

وقبل أن يعقِّب موسى، كان بدر قد انتصب واقفًا وقد انسحب من الخيمة من دون أن يطلب الإذن بالخروج، أمام استغراب موسى وحيرته.

في اليوم التالي، انتشر خبر عطاء الأمير موسى لبدر في أنحاء المعسكر كافَّة، وكان مَن نشر الخبر أعوان موسى الذي قصد من وراء عطائه هذا أن يثبت للجند وأتباع بدر أنَّ هذا الأخير لا يختلف عنهم

إلَّا في الطمع والجشع الهائلين، مستغلًّا حظوته لدى أمراء بني عثمان.

أمَّا في خيمة بدر الدين فقد كان للخبر وانتشاره وقعٌ آخر. وبعد أن أفضى بدر إلى طورة ومصطفى بما منحه إيَّاه موسى من سيماونة بأكملها، سأله طورة بقلق:

ـ لقد أوقع بك ذلك الداهيةُ، فما الذي ستفعله الآن؟

قاطعه بدر قائلًا بحزم:

ـ الذي سأفعله سترونه وتسمعونه.

لم يخيِّب بدر الدين ظنَّ أصحابه به وبنوره، إذ أحال لعنة موسى وكيده إلى بركة ونعمة، فقد أعلن في أرجاء سيماونة أنَّ سيِّدها الجديد وواليها هو الشيخ بدر الدين محمود نجل قاضيها السابق في غابر الأيَّام، وأنَّ على أعيان البلدة وأسيادها من المسلمين واليهود والنصارى الذهابَ إلى القلعة لمبايعة سيِّدهم الجديد.

وفي القلعة كان بدر الدين ينتظرهم على أحرٍّ من الجمر برفقة طورة، ومصطفى، وأخياره السبعة، ومَن تبعه من مُريدين، في الوقت الذي كان فيه الأمير موسى في معسكر الجند يهنأ بإزاحة بدر الدين وتعاليمه عن صدره، بعد أن منحه إقطاعًا عظيمًا، وعطاء جزيلًا، واثقًا، في ذلك المسعى، بأنَّه قد نال من عزيمة بدر ونيَّاته.

في ذلك الصباح، احتشد جمع من أهل البلدة في ساحة القلعة، يترقَّبون بخوف وقلق ما الذي سيمليه عليهم سيِّدهم الجديد من أوامر ونَواهٍ وأحكام سيقبض بها على أرزاقهم وأموالهم وأنفسهم. وما إن ارتقى بدر منبرًا حجريًّا حتى هدأت الجلبة.

تأمَّل بدر الحشد البائس. رأى في عيون الناس الترقُّب المشوب بالخوف والقلق، كأنَّهم كانوا يتوسَّلونه الرحمة والرأفة. تأمَّلهم

للحظات، ثم تنحنح قائلًا بصوته الجهوريّ الحازم:

ـ أيُّها الناس. واللهِ ما جئتكم بعهد أبي من قبلي، ولن أكون سيِّدًا عليكم مستبيحًا خيراتِكم وأعراضَكم وأرضكم. أرضكم أرض الله. فبإذن الله وتوفيقه أعلن أنَّ بيوتكم لكم، ونساءكم وأموالكم ومتاعكم لكم. ولا أطلب منكم، ولن أطلب منكم، ولا أفرض عليكم شيئًا، واللهُ على ما أقول شهيد.

وبعد أن ختم حديثه، صدحت في أرجاء سيماونة أفراح أهلها وسرورهم بهذا الشيخ الفارس قاضي عسكر العثمانيِّين الذي أعتقهم كما لو أنَّه ممسوس، إذ إنَّ الممسوس وحده من يتخلَّى عن جنَّة كسيماونة.

في المقابل، ثارت ثائرة الأمير موسى وحاشيته ممَّا أقدم عليه بدر، بحيث انقلب فيه السحر على الساحر، في ظلِّ تجهُّز الجيش لمواجهة سليمان في المعركة الفاصلة وإيمان الأمير موسى بأنَّه قد تخلَّص أخيرًا من نوازع بدر ومقاصده واحتجاجاته على نهج الجيش وقائده.

في ذلك المساء، كان قد استدعى بدرًا إلى خيمته في سعي منه لاحتوائه واستمالته إلى رشد الشرع العثمانيّ الحربيّ عشيَّة المعركة الحاسمة. قال له:

ـ لقد التبست عليك الأمور أيُّها القاضي، وضللتَ مستغلًّا حظوتَك لدينا وجميلك بنا. فما الذي تسعى إليه من وراء أمرك هذا؟

أجاب بدر بهدوء مراوغًا:

ـ بركة من عند الله ينزلها على جيش بني عثمان تقوده إلى النصر المؤزَّر على سليمان وفتنته.

أجابه موسى هائجًا صارخًا:

ـ لا والله، بل هي لعنة ستدفع ثمنها غاليًا.

أجابه بدر وهو يستدير خارجًا من الخيمة:

ـ فلتكن اللعنة إذن يا مولاي.

* * *

الصباح كان صباح المعركة الحاسمة، الذي احتجب فيه بدر الدين ولم يخطب في الجيش كعادته شاحذًا الهمم، إذ سادت حالة من التململ في صفوف الجيش وقادته، حائرين في أمر أميرهم موسى بعد أن انتشرت أنباء خلافه مع قاضي العسكر الشيخ بدر الدين، الذي أسهم بدوره، ومن خلال أتباعه وأخياره من جند وفرسان، في نشر أنباء مخاصمته للأمير موسى، وأنَّ السبب كما أفادت الأنباء كان رأفة بدر الدين بالجند، وسعيه نحو زيادة حصَّتهم من الغنائم، وهذا ما رفضه موسى. في الوقت نفسه، كان بدر قد أوعز إلى شيخ يساره مصطفى، قائد فرقة الفرسان الضاربة في الجيش، بألَّا يكون كعادته وفطرته العسكريَّة المتمثِّلة في الفطنة والشجاعة والبطولة في يوم المعركة الحاسمة.

وحده بدر الدين من كان يعلم بالهزيمة النكراء التي سيتلقَّاها موسى في أهمِّ معركة.

معركة خاضها بصفوف أهلكتها الفرقة على تخوم أسوار أدرنة، حيث لاحت الهزيمة الساحقة، في إثر لعنة أحاطت بجيش موسى الذي انسحب متقهقرًا مثخنًا بالويلات، ولكنَّها لم تكن ويلات سليمان الذي اعتقد للحظة أنَّه هزم جيش أخيه ببطشه وعزيمة جيشه، بل كانت ويلات الفرقة والشقاق ولعنات اندلاع الفتنة في صفوف جيش موسى.

وابن وقته أحال الزمان الممتدّ بأحداثه وأحواله إلى لحظة، إلى غمضة عين اندلعت فيها فتنة، لم يكن ليتأمّل ولا ليصبر، إذ ألقى على أصحابه تدبيره المحكم من دون أن يخوض في نقاشات مشوبة بالتردُّد والخشية، لطالما أحاطه بها طورة، فالوقت كلُّ الوقت كان لحظة هو سيِّدها.

ولكن، كم كان الثمن فادحًا يا بدر! فمن أجل أن تذلّ موسى أحدثت هزيمة مريرة في قلب جيشه، لا بل هي خسارة موقَّتة على الرَّغم من الدماء التي سُفكت، إذ إنّها سترغم موسى على الانصياع لما فيه خير لرؤياك، فسبيلك سبيل عدل محفوف بالدماء.

كان قد زجَّ موسى في أهوال لعنة رماه بها. هكذا اعتقد موسى الذي غابت عنه تلك التدابير الخفيَّة، التي لا يمتلكها أبرع الدهاة والمحنَّكين؛ تدابير اجتمعت لتلحق هزيمة نكراء بهم مغلَّفة بلعنة لعناء؛ ليرتجف؛ لينتابه خوف مريع؛ ليتوسَّل في النهاية إلى بدر وبركات بدر.

وكان الليل.

ليل قد حلَّ أخيرًا، فاترًا بعتمته وويل الهزيمة، وكان الأمير موسى لا يلوي على شيء؛ يُحصي خسائره متذوِّقًا مرارة الانكسار؛ يبحث عن بدر الدين ليشدّ من أزره، ويُحيطه بعلمه، ويُرشده إلى الطريق الصواب:

ـ أيُّها الشيخ الجليل، لقد أنكرت بركتك وجحدت حسن رأيك. فما كنت أقصد سوى إخماد الفتنة وإظهار جبروت سلطاننا. وها أنا الآن قد جئتك في خيمتك لأستنير برأيك ومشورتك وبركاتك.

حدَّق فيه بدر بحدَّة، مؤمنًا بأنَّ هذا الأمير الخائف والذي أذلَّه بهزيمة مدبَّرة لن يرتدّ عن مسعاه وشرع سلطانه، والإمعان في التدمير

والقتل وتشريد المغلوبين على أمورهم ما بينه وبين أخيه. كان بدر يحدِّق في ذلك الوميض الذي يلمع في عيني موسى؛ وميض شهوة العرش الذي سيتحقَّق ما إن يعود إلى استحكامه وضبط صفوف جيشه، كان على يقين بأنَّ موسى لن يغفر له لعنته التي أنزلها على جيشه. كان يعلم بأنَّه سوف ينقضّ عليه بلا رحمة، بعد أن يستعيد هيبته وبطشه، وهذا ما لن يسمح به بدر الذي تماهى مع رجاء موسى قائلًا له:

ـ إنَّه العقاب الإلٰهي جزاء ما ارتكبناه من ظلم ودماء بحقِّ الأمَّة.

لينساق بدر الدين بأقواله الظاهرة نحو طمأنة موسى وإبدائه حرصه الشديد على التقرُّب منه وإسباغ بركاته على الجيش من جديد. وأمَّا في داخله، فثمَّة تعاويذ كانت تمتدّ، مخيفة حادَّة، نبرها دهاء، وهمسها دماء، وويلها لم يكن ويل سليمان.

إذ ما إن وصلت الإمدادات التي طلبها موسى من أخيه الأمير محمَّد جلبي بإيعاز من بدر الدين، ليدعم بها خطوط جيشه الهجوميَّة، حتى دارت الدائرة على سليمان الذي غرَّه انتصار زائف لم يكن جديرًا به ليُهزَم شرَّ هزيمة أدَّت إلى فتح أدرنة بعزيمة الجيش المشحوذة ببركات بدر ولعناته الخفيَّة التي أنزلت على عرش أدرنة لتحيله مشنقة.

مشنقة منحها بدر لموسى ليعدم بها أخاه سليمان وأنفاسه وفتنته السلطانيَّة.

* * *

لا، لم تنطلِ عليه ادِّعاءات موسى بالاستنارة به وبرأيه السديد. لا، ولن يمهله طويلًا موسى، حتى يقضي عليه بعد إزالته مُلكَ أخيه سليمان، ولن يظلَّ على عهد بدر وتعاليمه ووصاياه بعد أن لمح هالة السلطان في أدرنة. لا، ولن ينتظر بدر الدين تلك اللحظة التي سيرتدّ

عليه بها الأمير موسى. ماذا بعد يا بدر الدين؟ وأنت الذي فتحت على يديك وبركاتك أدرنة، أجمل المدن والعاصمة الأبهى؟ هل ستأمن جانب ذلك الذي أعماه طمعه، جاحدًا فضلك وفضلَ شيخ يسارك مصطفى الذي ببراعته الحربيَّة وإقدامه تجلَّى النصر المؤزَّر؟ فما السبيل يا بدر؟ كيف ستحقِّق عدلًا استعرت في سبيله سيفًا اكتشفت في معمعان الحرب أنَّه سيف جائر باطل مختلّ؟ لن ينصاع ولن ينجذب إلى أنوار مذهبك أبدًا؛ سيف لن يرحم المغلوبين على أمرهم، أولئك المستضعَفين المنهَكين بين موسى وأخيه، فما السبيل؟

هو السبيل الذي ستشرِّعه أنت لموسى؛ السبيلُ المُحاط بالآمال المخيفة والشهوات السلطانيَّة؛ السبيل الذي انهال عليك همسًا يا بدر ليصرعك، لتتبدَّد، لتستحيل سُمًّا يسري في دماء موسى، إذ هكذا ستراوده. هكذا ستُحيط به في ركن معتم من أركان العرش. هكذا ستبعث فيه المشتهى:

ـ وما دام الأمر قد استتبَّ لك في غرب الدنيا يا مولاي بفتحك أدرنةَ جوهرةَ السلطان وعزّ أجدادك، فلماذا لا تستقلَّ بها يساندك في هذا جيشك المنتصر؟

ـ وكيف هذا يا شيخ الشيوخ يا قاضي العسكر المُظفَّر؟ ألم تَرَ في مصير أخي سليمان وما آل إليه تمرُّده وفتنته؟

ـ ولكنَّك لست سليمان الآثم. أنت الأمير موسى الذي عاد من أسر تيمور حاملًا جثمانَ أبيه. أنت تمتاز بشرعيَّة لا يمتاز بها محمَّد جلبي، فأنت من بقيت مع أبيك وقت الحقيقة والمعركة الرهيبة ولم تفرَّ كما فرَّ. وأنت من رعيت أباك في الأسر ودفنته في قبره. انظر حولك يا مولاي المعظَّم، يا سيِّد الأمَّة؛ انظر إلى جيشك الذي ازداد عديده بانضمام فلول جيش سليمان المنهزم إليه، فلماذا لا تكون سلطانًا؟

لماذا لا تحاصر حلم أجدادك الأسمى؟ لماذا لا تُعيد مجد بايزيد عندما كان على وشك فتح القسطنطينيَّة؟ فهذه العاصمة من يفتحها يفتح الدنيا يا مولاي. هي لك، تنادي عليك، فخُذْها أخذَ عزيز مقتدر.

تلمع عينا موسى بالمجد الذي يلمع في الأفق؛ يرغي ويزبد بشهوة وإثارة:

ـ فما السبيل يا قاضي العسكر وسرّ الجيش المؤزَّر؟

ـ لأخيك محمَّد جلبي تحالفات وعهود مع ملوك الصرب والمجر في غرب الدنيا وملك القسطنطينيَّة، فانقضْها، معلنًا بؤسَك وجبروتك، وباغتْ ملك المجر وأدِّبه بحجَّة تآمره وتواطئه مع تيمورلنك عندما دمَّر هذا الأخير سلطان أبيك.

ـ فليكن، إذن، يا قاضي العسكر ومدبِّر أموري، فثبِّت قلبي ببركاتك ومواهبك.

ـ لك ذلك يا مولاي الأغرّ، لك ذلك.

وما إن شرع موسى في نقض عهده مع أخيه مهاجمًا حلفاءه، مندفعًا بمسّ أصابه بشهوة السلطان والعرش، حتى اتَّقدت الفتنة في صفوف الجيش بين موالٍ لموسى ومعارضٍ له، رافضًا التنكُّر لعرش محمَّد جلبي. فبعث القادة والأمراء المنشقُّون عن موسى رُسُلَهم إلى الأمير محمَّد الموجود في بروسة، مطالبين بالنجدة واسترداد أدرنة من الجاحد المختلّ موسى، الذي انقلب على محمَّد في إثر إصابته بمسٍّ شيطانيٍّ مخيف. كانت الرسائل قد خُطَّت بخطٍّ أنيق وبكلمات بليغة تشبه في صياغتها لغة بدر الدين المنمَّقة.

بمسعاك الدنيء امحق قلبك يا موسى؛ بجشعك، باستباحتك نساءَ المستضعَفين والمساكين، فترقَّب الغضب القادم من الجنوب. ها هو

قد زحف. ها هو قد جاء ليؤدِّبك، فأين جيشك الذي أفسدته الفتن وقضت عليه المحن. انظر يا موسى، ها هي المشنقة تلوح في الأفق.

ـ فأنجدني يا قاضي العسكر، ألست أنت من زرع في نفسي الشهوة وأشعل قلبي بسطوة العرش؟

ـ كلَّا، والله، فإنَّ فسادك فيك عارم ولا حاجة بك إلى من يفسدك.

جُنَّ جنون موسى، تبعثر، تشظَّى، اختنق. مات ألف ميتة عندما لمح ابتسامة بدر الصفراء وهي تقضي على أنفاسه الأخيرة، ثم وصل محمَّد، السلطان محمَّد جلبي ملوِّحًا بالمشنقة بيده، قائلًا لأخيه: هذا جزاء من يخون عهدي يا ابن أمِّي.

* * *

ثم انتهت الفتنة في غرب الدنيا، واستتبَّ الأمر لمحمَّد جلبي في أدرنة ونواحيها؛ محمَّد الذي أعاد الأراضي التي استولى عليها موسى إلى حلفائه الصرب، وأنهى الحصار عن القسطنطينيَّة، عاقدًا هدنةً مع ملكها في سبيل توطيد دعائم حكمه وسلطانه الناشئ.

في هذه الأجواء العاصفة بأحوال الدنيا، وفي أوج مسعى الأمير محمَّد جلبي نحو إعادة الهيبة إلى سلطان بني عثمان، لم يُدرك بدر الدين أنَّ أصداء مذهبه كانت قد تردَّدت في أرجاء أدرنة ونواحيها بعد خطبته المؤثِّرة الخارجة عن مألوف العرف العثمانيّ في سيماونة، مأخوذًا بفتنة قضى فيها على موسى الذي كان، بأطماعه وشهوته للعرش، قد وقف في وجه قاضي العسكر، الذي كان يُخفي تحت درعه الحربيَّة مُرَقَّعة من نور سيُنير بها مصائر الناس. فبعد أن غذَّى شهوة موسى القاضية بتمرُّده على أخيه محمَّد وإعلان نفسه سلطانًا

وخليفة للمسلمين، ثم ارتداد بدر عنه وتوسّله هو والأمراء والقادة الموالين له، النجدة من محمَّد جلبي، كان يعتقد أنَّه سينال حظوة محمَّد، السلطان الناشئ، وسيلجأ إلى ظلِّ سيفه ليُعيد شحذ همَّته، ولكن هذه المرَّة بتأنٍّ وحنكة وتأمُّل وصبر، إذ توقَّع بدر الدين أن يكافئه الأمير محمَّد بتوليته قاضي عسكر للجيوش العثمانيَّة كافَّة. هكذا، كان يتوقَّع بدر وهو في طريقه لتلبية دعوة الأمير محمَّد جلبي له في قلعة أدرنة، على الرَّغم من أنَّه لم ينس ذلك اللمعان الذي لمحه في عيني محمَّد جلبي في أثناء مصافحته له في لقائهما الأوَّل عندما وطأت قدماه ثرى بروسة؛ حينذاك أصابته قشعريرة حادَّة أعمت بصيرته وحجبته عن رؤية غيب يجمعه بمحمَّد.

في ذلك المساء، كانت القلعة مزدحمة بحاشية الأمير وقادة السلطنة وأمرائها المنهمكين في إعادة الهيبة وفرض السلطة على أدرنة ونواحيها، وكان الأمير محمَّد يجلس في صدر مجلس طغت على أجوائه مشاعرُ السرور والرضى باستعادة شطر السلطنة الغربيّ والانتهاء من فتنة سليمان وموسى معًا. وما إن دخل بدر الدين يرافقه حاجب الأمير محمَّد حتى طلب هذا الأخير من حاشيته إخلاء المجلس بإشارة من يده. جاهد بدر الدين في استعادة رباطة جأشه وأنفاسه بعد أن أحسَّ بأنَّ ثمَّة أمرًا جللًا سيباغته به الأمير محمَّد بعد إخلائه الغريب للمجلس. دنا بدر من مجلس الأمير وحيَّاه بحرارة ورصانة، فبادله الأمير التحيَّة ببرود شديد من دون أن يدعوه إلى الجلوس إلى جانبه، إذ تأمَّله للحظات وهو يمسِّد لحيته الكثَّة، ثم قال له بحزم وصوت عميق:

ـ حسبك أيُّها الشيخ، فمنصب قاضي العسكر ليس لأمثالك. فأنت مكانك الأصيل هو الزاوية، فيها تستدير حول نفسك مراقصًا أمانيَك وتعاليمَك.

توقَّف عن حديثه وهو يقف منتصبًا، ثم دنا من بدر الواقف أمامه بحيرة تامَّة، ثم استكمل حديثه قائلًا بحزم:

ـ لن أُلحقك بمصير أخي، غفر الله له. فليس من شِيَمي خنق الشيوخ والمباركين. وعليه، قضيت عليك التزامك بالإقامة أنت وأصحابك ومريديك بأزنيك. ولا أسمعنَّ منك خبرًا قد يشي بفساد مذهبك وآرائك. فمن أنت لتنكر سُنَّة الأوَّلين وشرع العثمانيِّين؟

لم يعقِّب بدر، إذ انصرف من مجلس الأمير محمَّد جلبي بذهول وحيرة تامَّين يرافقه وقافلته إلى أزنيك ذلك الهاتفُ الذي ما فتئ يتردَّد في سريرته منذ أن حلَّ في بلاده الأولى:

ـ **«الصراط أدقُّ من الشعر وأحدُّ من السيف»**.

الفصل العاشر:
رقصة الانعتاق

جذبه لحن مشوب بشجنِ عُود عندما كان يتوسَّد كومة أزهار بريَّة في روضة غنَّاء خلَّابة. تلفَّت حوله بلهفة باحثًا عن مصدر اللحن، ثم وقف منتصبًا يحدِّق بترقُّب مصغيًا السمع. كانت الأشجار والأزهار قد أحاطته بعبقها الساحر، حاجبةً عنه مصدرَ الصوت. أقلع عن تلفُّته وتحديقه، وحبس أنفاسه وأغمض عينيه. كان اللحن ينبعث من قلبه. هام في أمره الغريب هذا ثم تناهى إلى مسمعيه صوتٌ أنثويٌ يغنِّي؛ صوتٌ لطالما صلَّى لحُسنه وخشع. انتفض، مسَّته ذكرى بعيدة وقشعريرة حادَّة. رفع رأسه. تأمَّل في السماء المسائيَّة علَّ مَلَكًا هو من يغنِّي له قصائد نوره، غير أنَّه لم يلمح أحدًا. ثم اشتدَّ اللحن وتآلف به الصوت وصفا كأنَّه يدنو منه خفية، ثم مالت أغصان الأزهار وفروعها كما لو أنَّ شعاع نور بهيٍّ قد مهَّدها مسربًا ينساب منه، هو الذي انجذب إليه كالسائر في نومه. تقدَّم إلى الأمام، أعماه نورٌ ساطعٌ يُحيط

بطيفٍ يعزف في منتصف بقعة النور الدائريَّة، ثم جاهد في فتح عينيه إلى أن أَلِفتا النور المبين. ثم لمحها، تعزف على عودها بسلامٍ وشغف مفترشةً ورد الروضة عارية. كان السطوع لا يُحيط بها، بل ينبعث من نور جسدها البضّ، وكانت تغنّي بإخلاص وخفوتٍ حانيةً رأسها فوق عودها، ثم انتصبت فجأة وهي تغنّي محدِّقة فيه بشهوة أهلكت حضوره فتعثَّر ووقع فوق الورد، ثم أصغى إلى غنائها الساحر من دون أن يدرك منه كلمة، فتأمَّلها. كانت هي مكنونة، فتمتم هامسًا بتوسُّل:

«مكنونة، توقَّفي عن التحديق فيَّ هكذا يا نوري». اشتدَّت عقيرتها بالغناء والآهات بطربها. نكَّس رأسه بأسى، ثم توقَّف الغناء فجأة وشحَّ النور فحدَّق فيها مجدَّدًا. كانت قد كست عريها بقفطانٍ حريريٍّ أسود وعودها إلى جانبها. كانت تتأمَّله بصمت وخشوع أذهبا ما كان عليه منذ لحظات من عري عجيب. ابتسم وهو يزحف مقتربًا منها، ثم قال وهو يقبِّل قدميها: مسِّديني بطهرك يا عشقي».

لم تعقِّب. كانت تأنُّ بخفوت غريب وهي تفرك شعره بلطف. رفع رأسه فلم يجدها، كانت قد اختفت. ارتجف مرتدًّا إلى الوراء، ثم أغمض عينيه بحسرة للحظات، ثم فتحهما ليلمح امرأة أخرى غريبة الملامح تمزِّق عنها ثيابها بخنجرٍ حادٍّ يقدّ لحمها الطريّ، إلى أن تعرَّت عريًا مدمًّى، وهتفت باسمه بإثارة متوسِّلة أخذه لها، إذ فتحت ساقيها وتأوَّهت قائلة بهمس:

ـ هيَّا تعالَ. فأنا غايتك وسرُّك ومكنونك. تعال خذني يا مولاي.

هزَّ رأسه بعنف وذعر، فتلاشت المرأة، وتجلَّت مكنونةُ من جديد. باحتشام وصمت دنت منه، هو المتعثِّر الزاحف فوق الأرض. اقتربت، انحنت عليه ولفعته بأنفاسها الحارَّة. أثارته بامتطائها له على الرَّغم من أنَّ وجهها كان خاليًا من الفتنة والغواية. انتابته قشعريرة

شهوة عاتية، فانتفض مطيحًا إيَّاها عن متنه، وأخذ يمزِّق قفطانها الأسود بعنفٍ وهو يزيله عن جسدها لينعم بعريها، ثم التحم بها بعنفٍ. أدماها، زلزلها، اخترقها بقسوة، إذ دفعته شهوة اندلعت لتوِّها منعتقة من قيود عتيقة. أمَّا هي، فلم تكن لتبادله الحرارة والانتشاء ذاتيهما. كانت جامدة، خاوية، على نحو استفزَّه وأثاره أكثر، فاشتدَّت قسوته، وشعر للحظة بأنَّه سيُحيلها إلى أشلاء برغبته الحادَّة المدبَّبة، ثم تعربش ذروته وصرخ منتهيًا منها. استلقى مرهَقًا لاهثًا. اقتربت منه هي ومالت عليه من دون أدنى تعابير قد تشي بملامح حياة. كان وجهها قد اكتسته زرقة الموت. لم تهمس بأدنى كلمة. ضاقت عيناه وهو يراها تنتزع خنجرًا مغروزًا في فَرْجها من دون أن تندّ منها صرخة ألم، ثم منحته إيَّاه يقطر بدمائها. دنت منه حتى لامست وجهه المذعور، وقالت بهمس مخيف بارد:

ـ والآن، حان دورك. خذ وحزَّ عنقك به.

* * *

ثم يستيقظ على أزنيك التي زجَّه فيها الأمير محمَّد جلبي.

بلدة وديعة بربوعٍ وفيافٍ خلَّابة، زادتها بهاءً بحيرتُها الصغيرة، يُقيم بها خليطٌ من بضعة آلاف من المسلمين والنصارى المنشغلين في أعمالهم ومهنهم، بين الزراعة والحِرَف المتمثِّلة في فنون الزخرفة والنسيج، ساعين لتأمين قُوت يومهم وما يكفل طيب معاشهم ومقامهم، منكفئين عن شأن ذلك الحشد الصغير الذي حشره الأمير محمَّد جلبي في بيت كبير محاطٍ ببستان مزدهر، وجند الأمير الذين يحرسونه بسيوف أُمرت بالانقضاض على كلّ من تسوِّل له نفسه من أهل البيت الخروج أو الفِرار. كانت بلدة مسالمة وموالية بإخلاص للأمير محمَّد الذي اختارها بعناية لتكون بمثابة الحبس الأبديِّ لبدر الدين وأصحابه ومريديه.

كان ثمَّة امتنانٌ صاحَبَ قرار الأمير محمَّد عزلَ بدر الدين وفرض الإقامة الجبريَّة عليه، أنجاه من مشنقة نُصبت لموسى وخنقت أنفاسه التي فُتنت بغواية العرش؛ امتنانٌ بعث من فضل غابر لبدر أسهم في موارة بايزيد الثرى في بروسة، في حين لم يكترث محمَّد جلبي لموالاة بدر له ودوره المؤثر في إخضاع فتنة موسى. ولم يشعر أيضًا، وهو يستعيد عاصمة آبائه أدرنة، بأنَّ ثمَّة من أوغل في صدر أخيه، وغذَّى تطلُّعه ورغبته في الاستحواذ على السلطان في أدرنة، بيد أنَّ أصداء تلك التعاليم الغريبة التي انتشرت في معسكر الجيش، ثم في أنحاء أدرنة، هي التي أثارت سخط الأمير وجعلته يفرض على بدر الدين الإقامة الجبريَّة بأزنيك، ليتبدَّد حلم بدر بحظوة تامَّة لدى السلطان المقبل بثبات على العرش، إذ اخترق سريرته محمَّد جلبي بنظراته الحادَّة، ليلمح فَزِعًا نيَّاتِ بدر الخفيَّةَ والرامية إلى زعزعة العرش بزرع الشقاق في نفوس الرعيَّة ودعوتهم إلى الخروج عن أمر الأمير. فأيُّ مذهب هذا الذي يساوي بين أُولي الأمر والمغلوبين على الأمر؟

اعتقد بدر، في أثناء مداهمة الأمير له، أنَّه على وشك الالتحاق بمشنقة موسى. اعتقد للحظة أنَّ محمَّدًا مدفوعًا بكيد الكائدين الذين وشوا إليه بأنَّ بدرًا كان يسعى في الخفاء لإخضاع أخيه لمذهبه ما إن يتمكَّن من عرش أدرنة، إلَّا أنَّ موسى لم يسعفه بإقامة رؤاه؛ اعتقد للحظة أنَّ محمَّدًا هذا هو حقيقة نورانيَّة تسطع في دروب السلطنة المظلمة، كما أنَّه، بغفرانه لبدر زلَّة مذهبه وسخفه، كما قال له، لم يكن على دراية تامَّة بكلِّ مساعي بدر وأصحابه. والأهمّ أنَّه لم يكن يعلم بأنَّ ثمَّة شيخ يسار لرأس العارفين لم ينكشف أمر انجذابه وصداقته الوفيَّة لبدر الدين؛ هو مصطفى أمير الحرب، الذي والى بإيعازٍ من بدر الأميرَ محمَّدًا وانضمّ إلى الجيش المنشقّ عن موسى،

ليفتك بفتنته أخيرًا وينال حظوة الرضى والفخر من الأمير محمَّد. كان أمر مصطفى قد حُجب عن بصيرة محمَّد و«عيونه» وحاشيته، ليتدارك بدر الأمر بسرعة في إثر مباغتته بالإقامة الجبريَّة حيث التقى مصطفى سرًّا في مقرٍّ إقامتة داخل معسكر الجيش الذي كان يتجهَّز من أجل العودة المظفَّرة إلى بروسة.

في ذلك المساء الأخير الذي قطع فيه الأمير محمَّد دابر أماني بدر، أمر الأخير مصطفى بإشهار نكرانه له ولصداقته، ومناصبته العداء، ونبذ تعاليمه أمام الأمير والملأ من قادة الجيش وأمراء السلطنة، كي لا يرتاب محمَّد جلبي في أمره ويُقيم عليه حدَّ الخروج على سيِّد الأمر:

ـ يا شيخ يساري، لن ترافقني إلى أزنيك، فقد غفل محمَّد جلبي عن أمرك معي، وحدسي يعلمني بأنَّه لن يتعرَّض لك بعد أن أبليت البلاء الحسن في إخضاع الفتن.

ردَّ عليه مصطفى بغضبٍ مشوب بالحسرة:

ـ لن أتخلَّى عنك يا بدر، منكرًا فضلَك وصحبتك.

ـ سيقتلك يا مصطفى ما إن يعلم بمرافقتك لي. فأنت أمير حرب، أمَّا أنا فلن يضيره بقائي حيًّا في عزلة فرضها عليَّ.

ـ ومنذ متى أنا أخشى الموت يا بدر؟ فيا مرحبًا به ما دام معك.

ـ كلَّا يا صديقي، ما هكذا تُدبَّر الأمور وتُحَلُّ العقد.

ـ فما السبيل، إذن، يا بدر؟

أجابه بحزمٍ شديد وهو يربِّت على كتفه:

ـ أنت سيفي يا شيخ يساري وخلاصي. أنت الذي سينصرني الله ببسالته وإقدامه.

تأمَّله مصطفى بتعبيرٍ يشي بعدم إدراكه مراميه، الأمر الذي دعا بدرًا إلى إبانة نيّاته لصديقه:

ـ ستظلُّ على عهد إمارتك، وسيمنحك الأمير الثقة مجدَّدًا، وستنصاع لأمره على رأس فرقتك. ولمَّا تحين الإشارة وترد العبارة، سنلتقي بظلال سيفك.

فثبَّته بدر بتطلُّعاته ونيَّاته، وعبَّأه بالتريُّث والكتمان في وقت كانت فيه جذوة الفتن لم تنطفئ بعد، والشكوك تحوم حول عدد من القادة والأمراء الذين كانوا في جيش موسى، ولم تخمد بعدُ شهوات تشبُّثهم بالإمارات المستقلَّة.

* * *

في الصيف القائظ، حُشر بدر في أزنيك برفقة طورة وأخياره وخمسة عشر مريدًا، انجذبوا إلى نور تعاليمه عندما كان قاضي عسكر، مفضِّلين الالتحاقَ به والتبرُّك بحلقات علمه وذِكْره في الوقت الذي كان فيه الأمير محمَّد جلبي يتقدَّم نحو توحيد سلطنته مترقِّبًا لحظةَ وثوبه على العرش بعد أن شارف على استعادة الوِلايات والإمارات المنشقَّة كافَّة، وإخضاعِها.

وكانت الإقامة الجبريَّة داخل بيتٍ يقع غرب أزنيك، في ركنٍ قصيٍّ لا تُحيط به بيوت ولا حياة تعجّ بالناس وحراكهم. وعلى الرَّغم من أنَّه بدا كبيتٍ ملعون مسكون بالشياطين، فإنَّ محمَّد جلبي اختاره بعناية فائقة ليعزل فيه بدرًا وتعاليمه عن الرعيَّة، إلَّا أنَّه كان رحبًا بحجراته العديدة الواسعة وبستانه الكبير الزاخر بالخضرة، على الرَّغم ممَّا يُحيط به من حرسٍ و«عيون» الأمير الذي لم ينقطع عن تزويد بدر وجماعته بالكسوة، والغذاء، والشراب، وكلِّ ما يكفل طِيب مقامهم.

وهذا ما كان يفاجئ بدرًا ويجعله يحتار في أمر ذلك الأمير:

ـ إنَّ أمره لعجيب يا طورة، إذ يحبسني في جنَّة ويُجزل عليَّ العطاء.

فيجيبه طورة بهدوء:

ـ إنَّ هذا هو طبعه يا بدر الدين إلى جانب شدَّته. فهو لم ينكر فضلك عليه وعلى أبيه.

ويعقِّب بدر والحيرة تحتلّه:

ـ وها هو هذا الفضل قد أنجاني من مشنقة ليُلقيني في عذاب العزلة الجبريَّة.

يسأله طورة بلهفة:

ـ وإلى متى يا بدر؟ منذ شهور ونحن نقبع هنا لا نلوي على شيء؟ أمَا آن أوان الفِرار من بؤس ذلك الأمير، والخروج إلى الناس بمذهبنا؟

فيُجيبه بدر بثقة:

ـ اصبرْ يا طورة، فما آن أوان التجلِّي بعد.

صبرًا جميلًا يا طورة، فشيخك وصديقك لم يمسَّه نور مذُ حلَّ هنا في هذه الأرض السوداء. لم يحالفه سطوع، ولا هاتف ولا كشف يتنزعه من هذه الإقامة الجبريَّة.

هو الذي نفض عنه التباس الرؤى وأضغاث الأحلام منذ أن حلَّ بأزنيك، إذ أخفى حيرته وقنوته أمام أخياره ومُريديه ليعود إلى سابق عهده من إقامة حلقات العلم والذِّكْر والسماع. كان يلجأ إليهم في الوقت الذي كانوا فيه يسعون للُّجوء إليه وإلى أنوار علمه. لم يكونوا ليدركوا أنَّ إمامهم وشيخهم كان في سعيه الحثيث في حلقات الذِّكْر

والمجاهدة، يتوخَّى وَجْدًا يُنير قلبه.

لم يَنعم بدر في إقامته الجبريَّة بذلك السطوع البهيّ العتيق. كان مهترئًا بالقنوط، على الرَّغم من إشارات مصطفى التي كانت ترده بين فينة وأخرى، ليعلمه من خلالها بترقُّبه المفعم بالإخلاص والانصياع التامَّين له. فمتى سيتجلَّى بدر الدين؟ متى ستمسُّه أنامل النور لتُزيل عن فؤاده الخيبةَ والقنوط؟

على قيد الحيرة كان يختنق بصمت في إثر إقامته داخل بيت لا يشي بظلال الله، حيث كان بدر الدين متلهِّفًا إلى البرِّيَّة وعفويَّة الحياة هناك، حيث جمال الله يتلألأ في الأزهار وينابيع الحياة، محرِّمًا على نفسه الاستجمامَ وتنسُّم أريج بستانٍ زرعه أمير عثمانيّ، يقصد سلطانًا. كان يتقلَّب في أحواله، إذ كان في إمكانه التسلُّل من البيت والفِرار من قبضة الحرس وأميرهم، وعقد النيَّة لنشر مذهبه برفقة طورة ومصطفى، ولكنَّه كان يخشى من الاندفاع الأعمى بلا نور يحرسه ويشدُّ من عزيمته نحو حافَّة هاوية تُنادي عليه باسم التهوُّر والتسرُّع والجزع والقنوط. فهل ستهوي يا بدر؟ هل ستخسف في إثر احتجاب نورك؟

لتنتابه الخشية والخوف من أن يكون الله قد ابتلاه بذُلّ الحجب عقابًا له على ما اقترفه من دهاء في فتنة موسى، هو الذي لم يكن ليلتاع قلبه ممَّا خاض فيه عندما كان قاضي عسكر. لم يرهبه دفع موسى إلى الفتنة، إذ لم يوقدها بدر، بل أغواه بها؛ تغلغل في أعماقه ليُثير أطماعه وشهواته. كان إخفاقه الفادح هو تسرُّعه وثقته المفرطة بقدرته على احتواء موسى في مُرَقَّعته، فموسى كان قد طمع، طبعه كطبع السلاطين وسادة البطش في هذا الزمن.

أدمته الفتنة وسلبت منه نوره، هو المنزوي في حجرته متهجِّدًا في كلِّ ليلة مبلَّلة بدمع عجزه وندمه وخشيته من غضب ربّه. كان يريد إزالة

رجس الفتنة من قلبه، يسعى لاستعادة طهره، وأن يُولد مرَّة أخرى من رَحِم نوره. كان يناجي ربّه متوسّلًا مذلولًا:

ـ أنت الذي تعلم خفاياي ونيَّاتي. أقسم بنور وجهك بأنَّني لم أقترف معصية ولم أعْمَهْ في كفر وضلال. يا ربَّ العرش العظيم، يا غفورُ يا رحيم، ارحمني من فتنة جحيم، ولا تعاقبني بذلّ الحجاب، يا حبيبي وسرَّ سرّي وربَّ أمري.

ثم يتوقَّف فجأة عن دعائه. يكفكف دمعه، وينكّس رأسه في عتمة الليل، ثم يخاطب نفسه بحزم:

ـ إذا لم نخض في الجحيم، فكيف سنتذوَّق حلاوة الجنَّة؟ إذا لم نخطئ، فكيف سنتوب؟ وكيف سنبرأ من الجراح البالغة إذا لم ننزف الدماء الفاسدة؟

* * *

لتمرّ الشهور على إقامته الجبريَّة ملقية بأحوالها وأنبائها، ثم تمضي مخلِّفة وراءها أماراتِ تجهُّم وصرامة، لم تبرح محيَّاه في بيت عزلته وإقامته لحلقات العلم لمريديه، محاورًا طورة في لحظات صفائه بحكمة الفلسفة، مستمتعَين بتجاذب أطراف آرائهما في المسائل الخلافيَّة، إن كانت في الشريعة أو في أسس الحكمة.

كان يُمْضي نهاراته على هذه الوتيرة. أمَّا لياليه، فكانت ملاذه السرِّيّ الذي ينعزل فيه عن أجواء البيت وحلقات المريدين؛ الملاذ الذي بات محرابًا يكتب فيه عبراته وأشجانه ورؤاه، هاربًا من ألم الترقُّب وما يرافقه من ريبة وغيبة وخشية في بعض الأحيان؛ خشية من مقتل مصطفى في إحدى المعارك. فشيخ يساره هو الذي سيشقّ طريقه؛ بل هو السيف الذي سيسير فوق حدّه ليصل إلى أمانيه، هو الذي كان

ينتظر إيحاء همسه حرفًا يُعيد الخفقان إلى قلبه.

إلى أن عزم على هجر الترقُّب، حين أحسَّ بحاجته إلى انعتاق موقَّت من هذا البيت ذي الحجب السميكة والمُذِلَّة، والتي كادت تقضي عليه يأسًا وخيبة في إقامته الجبريَّة هذه، إذ عزم متوكِّلًا على ربِّه، ومن دون أن يسرَّ إلى طورة بأمره، على التسلُّل من البيت لاجئًا إلى فيافي الله وفضاء سمائه؛ حيث تستَّر بليل أدهمَ لا قمر فيه، متسلِّلًا على غفلة من عيون الحرس الناعسة نحو بحريَّة أزنيك يدفعه إليها شعورٌ غريب مشوب بالحماسة واللهفة.

خاليةً الطرقاتُ كانت، يسير فيها هائمًا ملفَّعًا بمُرَقَّعته البهيَّة. كان يحثُّ الخطى، بل يحلِّق معبِّئًا نفسَه بنسائم ليلٍ فردوسيَّة، منطلقًا نحو الاتِّحاد بتجلِّيات الخالق. قطعةٌ من جنَّة هي أزنيك بجنائنها وربوعها وجداولها وأريجها. كان يتجوَّل في عتمةٍ لم تفضَّ ليلَها فضَّةُ قمر. ثم قصد بحيرة أزنيك. كانت بحيرة صغيرة هادئة، مياهها تزيَّنت بنجوم رصّعت وجهها البديع. تأمَّل وجهها الساحر قليلًا، ثم تقدَّم نحو شاطئها. نزع مُرَقَّعته وملابسه لتتبدَّد عتمة الليل بعريه الساطع، ثم نزل إلى الماء البارد على الرَّغم من صيف الدنيا. مسَّته قشعريرة برد هزَّته هزًّا، ارتعش للحظات ثم هدأت فرائصه وهو يطوف فوق سطح الماء بكلِّ يسر وهدوء إلى أن غطس نحو الأعماق. توغَّل بدر في أعماق البحيرة.

ما الذي كان يبحث عنه؟ كان يغوص، يهبط نحو الأعماق مغمضًا عينيه إلى أن ضاق صدره، وشرع الخدر يتسلَّل إلى أطرافه، وهو ما دعاه إلى التوقُّف عن التوغُّل والغوص أكثر، فوقف فاردًا ذراعيه كجناحين كأنَّه معلَّق في لجَّة فضاء مظلمة. كان قلبه يئنُّ مطالبًا بالحياة. ثقلت دماؤه وذهبت أنفاسه. هلك صدره، وكاد يتلاشى على مشارف الغياب الأخير، ثم فتح عينيه بجحوظ شديد، ليرى كلَّ شيء.

رأى جدول ماء صغيرًا هادئًا، يخترق بانسيابه اللطيف ربوعَ بلدة بعيدة متسربلة بشمس ساطعة، ثم لمح طيف امرأة بملابس بيضاء تلوِّح له من الضفَّة الأخرى للجدول متمتمة بلغة غريبة، ثم اختفت وتلاشى كلُّ شيء، حين كادت روحه تنعتق من جسده المخنوق، إلى أن تمالك أمره وترك جسده يصعد إلى سطح الماء. انبلج فمه متوسِّلًا نسيمَ الله. شهق شهقة مريعة تصرخ بالحياة، وببطء وإرهاقٍ شديدين سبح نحو شاطئ البحيرة. استلقى فوق الحصى والتراب الناعمين لبعض الوقت، ثم ارتدى ملابسه ومُرَقَّعته، وصلَّى الفجر ثم عاد كما سطع.

* * *

في الصباح، عمَّ مجلسه بأساريره المنفرجة وتحسّن مزاجه الذي لاحظه طورة:

ـ أرى محيًا صديقٍ كنت أعرفه في تبريز والقاهرة.

ضحك بدر قائلًا بصفاء:

ـ وأنا أرى فيك نِعْمَ الصديق، يا شيخ يميني.

كان مجلسًا صباحيًا هانئًا يشاركه فيه طورة وأخياره ومريدوه.

مال بدر على طورة، قائلًا بانشراح:

ـ أَبشر يا طورة. فهذا المقام لن يطول ليستبدّ بنا بسأمه وجبروته.

ـ أَفْصِحْ يا بدر.

ـ الغد خيرُ مُفْصِحٍ، يا صديقي.

ثم توجَّه بحديثه إلى حبيب قائلًا برجاء:

ـ ألا تُسمعنا شيئًا من عزفك، يا حبيب، نستقبل فيه صباحنا المشرق هذا؟

فأومأ حبيب بالإيجاب، ليلفّ المجلس بعزفٍ مرهف عذبٍ، قاد به الحاضرين إلى حلقة سماعٍ احتفوا بها بنور بدر الدين المستردّ.

* * *

في المساء انفرد بدر بطورة داخل حجرته ليُفضي إليه بما عقد العزم عليه، قائلًا بحماسة:

ـ لقد حان وقتك يا طورة ولاح مرتجاك. فاسمعْ وأَطِعْ. ليله الغد هي سترُك الذي سأؤمّنه لك، كي تتسلّل من هذا البيت المقيت قاصدًا شيخ يساري مصطفى في أدرنة.

صمت بدر للحظات ليأخذ أنفاسه، بينما كان طورة مأخوذًا بما يلقيه عليه. استدرك قائلًا:

ـ قل له إنَّ الإشارة قد لاحت، وعليه أن ينسحب إلى الغرب هو ومن تبعه من جنده المخلصين في جماعات صغيرة، قاصدين محيط أدرنة متوخّيًا عدم الاصطدام بفرق الجيش الأخرى.

قاطعه طورة بفزع:

ـ أدرنة يا بدر؟! ما شأننا بها؟ هل سنقوى عليها؟

أجاب بدر بحماسة:

ـ لم تحن لحظة أدرنة بعد. فمهد مذهبنا هو مهدي. سيماونة يا طورة. قل لمصطفى أن يرابط بفرقته على مشارفها.

حدَّق طورة في بدر باستغراب وذهول، ثم قال بخفوت:

ـ ويحك، أيُّ كشف هذا الذي يردُّك إلى أصلك؟!

ـ كشف من نور يا شيخ يميني، فهيَّا حضِّرْ نفسك.

* * *

ستره بدر الدين بديجور فجرٍ لم يلحظ فيه الحرس السلطانيّ تلك الفجوةَ في سور البستان الجنوبيّ والمموَّهة بخضرة العشب، والتي انسلَّ منها شيخ يمينه الذي أطلقه بدر الدين في طريق الغيب الذي سيحلُّ بعد قليل، لتختفي آثار طورة وحضورُه في بيت الإقامة الجبريَّة من دون أدنى جلبة قد تشي بكشف فِراره؛ إذ، على مدار ثلاثة أسابيع أعقبت رحيله، كان بدر يعقد بصورة يوميَّة حلقات ذكر وسماعٍ متألِّقة بأنوار البشرى التي زفَّها إلى مُريديه، مطمئنًا قلوبهم بقرب الانعتاق والانطلاق في دروبٍ لطالما هيَّأهم لها وشحذ هممهم في سبيلها؛ دروبِ الدنيا المحفوفة بالظلم والجَوْر والهوان، إلى أن سطع اليقين القادم من سيماونة على هيئة رسول مصطفى المندسّ في قافلة المؤونة الشهريَّة، إذ بشَّره الرسول بجاهزيَّة مصطفى التامَّة لاستقباله على مشارف سيماونة، في الوقت الذي لم يجهر فيه بأمر جنده ودعوته متجنِّبًا طرد الحامية العثمانيَّة المتحصِّنة في قلعتها إلى حين قدوم بدر، إذ إنَّه انتشر بجنده في محيط سيماونة من دون أن يُثير انتباه الفرق العسكريَّة العثمانيَّة التي تؤمِّن الخطوط الدفاعيَّة المحيطة بأدرنة، غير أنَّ الرسول شدَّد قائلًا إنَّ الوقت ليس في مصلحتهم لأنَّ أمر انسحاب مصطفى بفرقته العسكريَّة المهيبة المخيِّمة على أطراف سيماونة سيُثير شكوك أمير الجيوش العثمانيَّة في غرب الدنيا، وعليه فإنَّ الرحيل قد أزفَّت ساعته.

فليكن الليل إذن، ولتكن عتمة محبَّذة تُسربِل الباحثين عن انعتاقهم المنير؛ أولئك الفارِّين من سطوة السلاطين، يقودهم بدر الدين، ليرشدهم إلى مسالك الحقِّ بنور رفضه وعجزه عن تماهيه في عباءة الأمير محمَّد جلبي، الذي ستتردَّد في بلاطه أصداء صرخات جنده المفزوعين من اندثار أهل البيت الجبريّ.

* * *

تلهث ساعيًا للتشبُّث بأطراف مُرَقَّعته لحظات زمانه، هو سيِّد البوارق والوقت إذ تتسارع الأحداث. تنهال عليه لتباغته بواقع لطالما حلم وآمن به.

هو الذي زال تأهُّبه على مشارف سيماونة. خوفه، حيزته، آلامه، كلُّها زالت عندما سمع بدعائمه هو وسؤدده بسيوف الحقّ من حوله. كلَّا، لن يعود إلى استعارة الجاه، وتوسُّل السطوة لنشر مذهبه، فقد بات سيِّد القوَّة، هو الذي هتف بمصطفى حين عانقه بحرارة على مشارف سيماونة:

ـ نحن في حاجة إلى السيف، إلى القوَّة. فما دام البيان قد سطع، والحقُّ على ألسنة الأنبياء والصدِّيقين قد ظهر، فإنَّ عبء السيف سيزول يا شيخ يساري حين يكون حارسًا للحقِّ والعدل. وأنت، يا مصطفى، سيفي. أنت الذي نلت من ربّك عافية الجسد وشدَّته، ورأفةَ القلب وشجاعته، لن تغير منكر إخوتك بقلبك، بل بسيفك ستفعل واللهِ. فإنَّ الله يحبّ من عباده أُولي العزم، وأنت خُلقت قويًّا لتحبّ ربّك.

وفي ظهوره الساطع في غرب الدنيا، اتَّضحت ملامح وِجهته القادمة، عندما أمر مصطفى بحشد جيشه الصغير ليباغت به الحامية العثمانيَّة المتحصِّنة في قلعة سيماونة كي يستتبّ له الأمر بعد ذلك في نواحيها.

في ذلك النهار المشحون بأجواء الترقُّب والحذر، اجتمع بدر بشيخَي يمينه ويساره في مخيَّم العسكر الذي أقامه مصطفى متحيِّنًا اللحظةَ التي سيأمره فيها بدر باستلال سيفه. قال موجِّهًا حديثه إلى مصطفى:

ـ إنَّ نبأ فِرارنا قد بلغ حتمًا محمَّد جلبي. وأنا على يقين بأنَّه أطلق «عيونه» لاقتفاء أثرنا، ولن يطول بحثه عن ملجئنا. لذا، يجب أن يكون الوقت في مصلحتنا. وعليك أن تعلم بأنَّ اللحظة التي ستُشهر فيها سيفك، فإنَّك ستعلن فيها الحرب على كلِّ جيوش العثمانيِّين. وبما أنَّك قد حشدت فرقتك، فإنَّني أرى أن نباغت الحصن هذه الليلة. فما الذي تراه أنت؟

أجاب مصطفى واثقًا بدرايته في شؤون الحرب:

ـ إنَّ الحكمة العسكريَّة تقضي عدم محاصرة حصن منيع بفرقة صغيرة لا تحوز أدنى أدوات الحصار. ولذلك، أرى أن نقوم بالتسلُّل فرادى إلى داخل سيماونة، متخفِّين بالأسمال والملابس التي لا تشي بهيئتنا الحربيَّة. أمَّا أنا فسأدخل ونخبة من فرساني إلى القلعة بكامل عتادنا الحربيِّ مستغلًّا منصبي وعلوَّ شأني في صفوف العسكر. وما إن أتمكَّن من والي سيماونة، وأمير الحامية العسكريَّة، حتى يخترق الجند المتنكِّرون بملابس عاديَّة سورَ القلعة بإشارة منِّي.

عقَّب طورة قائلًا بحماسة في حين كان بدر مأخوذًا بأجواء التجهيز والإعداد لفتحه هو، مسرورًا واثقًا بقدرة شيخيه على نصرته ومساندته:

ـ هذه خطَّة محكمة قائمة على المباغتة. غير أنَّني أرى أن نُشرك أهل سيماونة فيها، وذلك من خلال دعمهم ومؤازرتهم لجندنا الذين سيخترقون القلعة. وعليه، فإنَّ ظهورنا، وعلى رأسنا بدر، في ميدان سيماونة ومركزها، سيكون بالتزامن مع اختراق الحصن، إذ إنَّ الناس هناك متلهِّفون إلى عودة بدر، ولم ينسوا فضله الذي أنعم به عليهم بالانعتاق من بطش واليهم السابق. وهذا ما لمسته أنا في أثناء زياراتي الدائمة للبلدة خلال الأيَّام الأخيرة الماضية.

لم يعقِّب بدر، بل أخذ يتأمَّلهما بعمق وصمت أربكهما، إلى أن تنحنح مصطفى قائلًا:

ـ ونِعْمَ الرأي يا طورة. ولكن، كيف سندبِّر أمر الحامية المستسلمة يا شيخنا؟

انتفض كما لو أنَّ سؤال مصطفى ألقى به من حالق تأمُّله، ثم قال بثبات:

ـ لن نفتتح عهدنا بالدماء يا مصطفى. وما إن يتمّ الأمر، بإذن الله، باقتحام الحصن وتمكُّننا ممَّن فيه، سنقوم بتخييرهم بين البقاء منخرطين في عهدنا، أو الرحيل؟

سأله مصطفى مستغربًا بضِيق:

ـ الرحيل؟! هل سنعتقهم كي يهرعوا إلى محمَّد جلبي ليزوِّدوه بأخبار ما نحن مقبلون عليه؟! واللهِ إنَّه لأمر عجب.

ردَّ بدر وهو يهزّ كتفه بلا اكتراث:

ـ أيُّ عجب؟! هل كنت تعتقد أنَّ سيفك سيظلُّ مستترًا في مُرَقَّعتي؟ لقد آن أوان التجلِّي يا شيخ يساري، فانطلق على بركة الله.

* * *

والمنى يتجلَّى صباحًا في قلعة لم تلطِّخها دماء. كانت ناصعة بفتح عظيم على يد بدر الدين الذي نصره أهل سيماونة. آووه وأمُّوا قلعته ليباركوا نصره، هو الذي لم ينم منذ يومين أمضاهما يدبِّر، ويخطِّط، ويشحذ، ويخطب، ويناشد، ويهتف، ويصلِّي، ويدعو. كان يدعو ربَّه نصرًا مؤزَّرًا يغمر به الناس.

يراقب الآن من نافذة مجلسه داخل القلعة الناس المحتشدين في ساحاتها، فرحين بحلوله بين ظهرانيهم، هانئين مطمئنِّين، بعد أن

صرف عنهم واليًا استمدَّ جَوره من بطش أسياده وسلاطينه، وحامية سلبت واردهم وخيراتهم مدَّعية دفاعَها عنهم وصونَها للأمن في ديارهم. كانوا يتطلَّعون إليه بلهفة، وينتظرون اللحظة التي سيخرج بها عليهم ليخطب فيهم، وليثبِّت قلوبهم ويغمرهم بأنوار مذهبه.

كان يحدِّق فيهم مضطربًا مرتعدَ الفرائص. يلمح فيهم التعلُّقَ به وبمُرَقَّعته. يرى فيهم الملهوفين المساكين المستباحين المستضعَفين. كانوا خليطًا من المسلمين، واليهود، والنصارى، من معظم عوائل سيماونة وأُسَرها، يترقُّبون ظهوره في ساحة القلعة كما لو أنَّهم يشهدون حلمًا جميلًا سيُحيله بدر بعد قليل حقًّا وعدلًا يسودان بينهم.

ثم استدار عائدًا إلى الجلوس برفقة طورة وأخياره السبعة، في حين كان مصطفى ينظِّم صفوف جنده، ومَن التحق بهم من جنود الحامية وفرسانها، الذين شهدوا إحسان بدر، عبر صفحه عنهم ومنحهم عهد الأمان، ففضَّلوا الانضواء تحت راية مذهبه، بينما فضَّل قائد الحامية ومَن والاه من جنده الانسحابَ من القلعة بسلام قاصدًا أدرنة، وهذا ما لم يكن يبشِّر بخير في عرف مصطفى الحربيّ، إذ أخفى قلقه وامتعاضه من تصرُّف بدر في ذلك الشأن، منهمكًا في تعزيز أسوار سيماونة وقلعتها عبر توزيع جنده في محيطها، مشرِّعًا أبوابَها كما أمره بدر لكلِّ الذين سيلتمسون بعد قليل العدلَ الذي أقامه فيها.

لمس طورة حيرة بدر واضطرابه بسبب احتشاد الناس في ساحة القلعة، فقال له وهو يربِّت على كتفه:

ـ ألن تُنعم عليهم بحسن كلامك يا شيخي؟

أجابه بدر بحزم:

ـ ليس لدينا متَّسع من الوقت لإلقاء الخطب يا طورة. فهذا وقت

العلم والعمل به. فنحن لا نعلم ما يخبِّئه لنا غيب العثمانيِّين. لذا، من الواجب علينا الآن، الشروعُ في إقامة حلقاتنا للناس، وبين الناس، كي نبشِّرهم بأسس مذهبنا، ونزرع نوازع الحقّ، والعدل، والرأفة، والانعتاق في نفوسهم.

عقَّب طورة قائلًا بالحزم ذاته:

ـ السمع والطاعة، فهذا هو المآل المرجوّ الذي لطالما سعينا له. فما السبيل؟

أجاب بدر بحماسة:

ـ سنقيم حلقاتنا في مدرسة سيماونة، ومساجدها، وكنائسها، وسننشر أسس مذهبنا في أسواقها، وأرجائها. وآيتنا في ذلك أنَّ عدلنا فعلٌ وليس قولًا. فنحن أعدنا إلى أهل هذه البلدة أرزاقَهم، وأراضيهم التي كان قد سلبها منهم واليهم الجائر. وهذا ما جعل الناس يلتفُّون حولنا لينصروا غايتنا التي نصرتهم من قبل.

أقلع عن حديثه قليلًا، متأمِّلًا في سريرته، بينما كان طورة وأخياره مأخوذين بحماسته وتدابيره المنشودة، إلى أن استدرك حديثه من جديد بحزم أشدّ:

ـ كما أنَّني سأُحوِّل القصر الذي كان يُقيم به والي سيماونة إلى مدرسة وزاوية يلتحق بها كلُّ الساعين للانضواء في مذهبنا.

سأله طورة مستغربًا:

ـ أتقصد ذلك القصر؛ قصر أبيك؟

ردَّ بدر بحدَّة:

ـ ليس قصر أبي يا طورة، ولن يكون قصري أبدًا، بل سيغدو منارة وملجأً لكلِّ الذين جارت عليهم الدنيا. فانشروا عزمنا هذا على

الملأ، واعقدوا النيَّة وتوكَّلوا على ربّكم في أمركم.

كان هدفُه من وراء إقامة حلقات مذهبه وتعاليمه في فضاء سيماونة، امتدادَ نوره، واتِّساعَ رقعته؛ ليشمل نواحي سيماونة ومحيطها من قرى وضِياع خاضعة لظلام الجَوْر والاستبداد، ليتطلَّع الناس في تلك القرى نحو ما شرعت تنعم به سيماونة من انعتاق وعدل ومساواة، إذ سرت في الأرجاء أقاويلُ بأنَّ ثمَّة شيخًا ممسوسًا بنور الله، محاطًا بسيوف أصحابه، يدعو إلى العدل والمساواة بين الناس من دون أن يفرِّق بين مسلم ونصرانيّ ويهوديّ، ومن دون أن يقاسم الناس أرزاقهم وأنفسهم. وخلال أيَّام سطع نوره في غرب الدنيا التي ردَّدت أصداء مذهبه، لتغدو سيماونة منارة الباحثين عن انعتاقهم من جَوْر العسكر وظُلم أُولي الأمر. وثق بدر، في سرّه، بأن أنباءه المحمَّلة بمذهبه، قد بدأت تقضّ مضاجع سلطان محمَّد جلبي الناشئ، وهذا ما لم يكن ليفاجئه أو يردَّه عن مسعاه القاضي بمحالفة الوقت، بل التصارع معه في سبيل نشر تعاليمه وأحكامه بسرعة، في أجواء مشوبة بالترقُّب والحذر من انقضاض مباغت يشنُّه عسكر محمَّد جلبي على سيماونة؛ تلك الأجواء التي كان يناقش فيها بدر الدين شيخَي يساره ويمينه متجاذبًا وإيَّاهما تداعيات انعتاق سيماونة ونواحيها من حكم محمَّد جلبي:

ـ ما زال أمرنا في بدايته. وأخشى ألَّا يُسعفنا الوقت بتثبيت دعائم مذهبنا بعد أن علم محمَّد جلبي بمساعينا.

أجابه مصطفى الضليع في شؤون السلطان العثمانيّ:

ـ لن يباغتنا الآن. فعهدي به مساومًا متريِّثًا. وقريبًا ستلوح رسائله المحمَّلة بالترغيب والترهيب.

عقَّب طورة متسائلًا بقلق:

ـ وما الذي سنفعله حينها؟ هل سنراوغ، أم سنعلن الخروج الصريح؟

ردَّ بدر بضيق:

ـ نحن لم نخرج عليه، لأنَّ صراطه ليس صراطنا، وهدفنا الآن هو كسب المزيد من الوقت.

* * *

مع مرور الأيَّام، استحالت سيماونة إلى زاوية كبيرة، شيخها بدر الدين الذي جذب الناس من الأنحاء كافَّة، إذ كانت تؤمُّه الوفود من القرى المجاورة محمَّلة بالأماني والرغبات في الالتحاق بدعوته، ناشدين نصرته لهم كما نَصَرَ أهل سيماونة. كانوا في حيرة من أمرهم عندما كانوا يدلفون إلى مجلسه في القلعة، سائلين أنفسهم هل ينحنون؟ هل يقبِّلون الأرض بين قدميه؟ هل يقدِّمون إليه الهدايا والعطايا ليخطبوا ودَّه وحظوته؟ وما إن يحطُّوا في مجلسه، حتى تتبدَّد اعتقاداتهم بمشاهدة سلطان يتمتَّع بالترف والبذخ، يتربَّع على عرش ينافس فيه عرش الأمير محمَّد، إذ كانوا يحدِّقون بذهول في شيخ متلفِّع بمُرَقَّعة بالية يتوسَّط مريديه وأتباعه، في مجلس متواضع بائس لا يختلف في أثاثه وسجَّاده وحواشيه عن مجلس زاويته السابق في تبريز.

حتى إنَّ أحد أغنياء البلدة المجاورة لسيماونة، كان قد زاره على رأس قافلة محمَّلة بالنفائس التي كان بينها ثلاثُ جَوارٍ روميَّات، ألقى بهنَّ على عتبة مجلسه، معتقدًا أنَّه في ذلك سيكسب ودَّ بدر الدين الذي لن يسلبه إقطاعًا كان قد منحه إيَّاه الأمير محمَّد جلبي. كانت تلك المرَّة الأولى التي يراه فيها شيخا يمينه ويساره ومريدوه وهو يستلّ

سيفه، وعلى وشك قطع رأس ذلك التاجر الغنيّ، إذ زجره بحدَّة وسخط:

ـ أيُّ لعنة هذه التي جئت تدنِّس بها مقامي أيُّها الجاهل؟ أما علمت بأنَّ قيامنا ما هو إلَّا في وجه هذا الجَوْر الذي تحيطني به أنت؟ أَمَا علمت بأنَّنا جئنا كي نحرِّر الناس من ظلم الناس؟ ألا لعنة الله عليك. هيَّا انصرفْ من مجلسي قبل أن ألوِّثه بدمك.

لم يتمالك التاجر الثريّ أمره، تغلِّفه حيرة تامَّة. لم يصدِّق الذي ألمَّ بهذا الشيخ الممسوس، ولماذا يرفض هديَّته التي لم يخالف بها شرع الزمان. وما إن انسحب متقهقرًا مرعوبًا يجرّ أذيال خيبته وهباته حتى استوقفه بدر:

ـ حسبك، والله لن تخرج من هنا إلَّا بلباسك. وأمَّا ما جئت به فهو ملكٌ للناس. وأمَّا هؤلاء المسكينات، فهنَّ حرائر أنفسهنَّ ومصيرهنَّ، ولا شأن لك بهنَّ.

تمتم التاجر بذعر كأنَّه يهذي وهو ينصرف مهرولًا هاربًا من هذه القلعة وسيِّدها الممسوس، الذي لم يقدِّر نِعَمَ الدنيا ولذائذها.

تمالك بدر نفسه وهو يعود إلى مجلسه، ثم مال إلى يمينه هامسًا في أذن طورة:

ـ اعتنِ بهنَّ يا طورة، وألحقهنَّ بنسوة يهتممن بهنَّ حتى يقرِّرن مصيرهنَّ. فإن فضَّلن البقاء فلهنَّ حُسن المقام، وإن اخترن الرحيل فأطلقهنَّ بإحسان.

كانت مجريات الأحداث في مجلسه وأفعاله في سيماونة يتناقلها الناس، لتغدو آيات ومواهبَ تسبغ عليه هالة من الطهر والقداسة، في ظلِّ مذهبه الذي كان يسطع بنشر أخياره ومريديه، داعين الناس إلى نزع

أسمال الجهل وأدران الخضوع واليأس، وارتداء ما غزله لهم بدر من نور وعلم وعدل وإرادة.

وبقدر ما كانت الدعوة تمتدّ وتنتشر، كان مصطفى، بفطرته العسكريَّة وترقُّبه الدائم للمخاطر، يستعدّ بجيشه الصغير، مرحِّبًا بالمنضمِّين الذين كانت قد نالت سيوف الجَور والفتن من نفوسهم ودنياهم. وبالرَّغم من سخطه من تقدُّمه البطيء في تعليم فنون القتال وشؤون العسكر، فإنَّه كان يقول لبدر جَذِلًا:

ـ لقد منحتني جيشًا من الفقراء والمساكين، يا شيخنا. الله أعلم كيف سأواجه به جيوش محمَّد جلبي إذا ما انقضَّت علينا؟

فيُجيبه بدر بفخر:

ـ هذا الجيش سينتصر، لأنَّه سيحارب في سبيل وجوده وأمانيه، ولن يضحِّي جندك بأرواحهم في سبيل أسيادهم، بل في سبيل انعتاقهم.

وهذا ما كان يحقِّقه على أرض سيماونة، إذ اطمئنَّ الناس إليه وإلى أتباعه ومريديه، مندفعين نحو إزالة آثار ما علق في دمائهم من خنوع؛ دمائهم التي لم تُسْفَك في سبيل حياتهم هم، بل في سبيل العرش، الذي كانت تتنازعه الفتن والشهوات الشيطانيَّة. كانوا فرحين بما أحاطهم به بدر من حرِّيَّة ومساواة وعدل. حشود من مسلمين، ونصارى، ويهود، ومجوس، وقد التفُّوا حوله ليُحيلهم إلى أمَّة من انعتاق ونور.

وفي الوقت الذي لم يكن فيه الناس يكترثون لما يعتمل في جنوب الدنيا العثمانيَّة من غضب وسخط وخشية من مذهب بدر الدين، كانوا واثقين بأنَّ هذا الذي حلَّ عليهم بهالة المخلِّصين، قادرٌ على ردّ الهلاك

عنهم بتأييد من ربّه. وفي احتضانه لهم كان يسعى نحو مآل لهم يصنعونه بأنفسهم. كان يسعى لبعث الشوق في نفوسهم إلى الانعتاق، لا يفرّق بين فرد وآخر، ولا يميّز بين مسلم وغير مسلم، إلى درجة أنَّه عقد ذات يوم حلقةَ سماع في كنيسة سيماونة، بمباركة معظم نصارى البلدة مع تحفُّظ الكاهن وشيوخ سيماونة وقضاتها، على تصرُّف بدر الغريب هذا، ليردَّ عليهم قائلًا أمام الملأ المحتشد في الكنيسة:

ـ إنَّ طريق المسجد أو المعبد أو الكنيسة ليس هو الطريق الوحيد إلى الله. لا يمكن أن نزجّ الناس وأن نسوقهم في الطريق نفسه، لأنَّ هذا المسعى لن يرشدنا إلى الإيمان الخالص. إنَّ الحقّ واحد أوحد، وعشق الحقّ متعدِّد الطرائق والأوجه التي تؤدِّي في النهاية إلى نور الله وإشراقاته في نفوسنا.

* * *

وفي ظلِّ هذه الأجواء التي نبغ فيها مذهب بدر الدين بالامتداد والسطوع، لم تَلُحْ في الأفق بوادرُ مواكب قد تشي برُسُل إلى بدر الدين، في الوقت الذي كانت تشير فيه الأنباء الواردة من الأناضول إلى تنامي غضب الأمير محمَّد، الذي ما إن أوشك على الانتهاء من إخضاع الأنحاء والولايات الجنوبيَّة والشرقيَّة في السلطنة حتى تجلَّى بدر الدين في غربها بمذهبٍ غريبٍ عن عهد الأمم وسلاطينها، فلم يجد له الأمير محمَّد سوى الفتنة اسمًا ومفهومًا، لتشتعل مجالس بروسة بعلمائها وفقهائها وقضاتها وأمرائها، مطالبين أميرهم الموشك على التتويج سلطانًا بأن يشهر سيفه في وجه هذه الفتنة التي لا تشبه في إغراءاتها ومعانيها الرهيبة فتنَ بني عثمان السابقة، فذلك الذي يدَّعي أنَّ نورًا إلٰهيًا قد مسَّ قلبه آخذ يفتن الناس والجند بترَّهات إبليسيَّة ومذهب فاسد يهدِّد أمن السلطان ويزعزع دعائمه، فما الذي سيفعله

صباح مشوب بالخشية والترقُّب، هو ما يليق بمعركة ستحتدم خارج أسوار سيماونة، حيث احتشد جيش مصطفى الصغير عند سفح جبلها المطلّ على الضفَّة الشرقيَّة لنهرها، ليؤمِّن مصطفى في هذا التدبير مؤخِّرةَ جيشه، مجنِّبًا أهل سيماونة، في خروجه لمواجهة العثمانيِّين، ويلاتِ المعركة، إذا ما تداعت خطَّته وانهزم جيشه. وفي مسعاه هذا، كان قد نال من الجيش العثمانيّ بمباغتة أربكت قائده الذي كان يطمح إلى إقامة معسكر عند ضفَّة النهر، كي يُعيد تنظيم صفوفه، ويؤمِّن خطوطه الدفاعيَّة والتموينيَّة مع قاعدته العسكريّة الموجودة في أدرنة في أثناء هجومه السريع والخاطف على سيماونة وحصنها، وذلك ما لم يتحقَّق له عندما كشف له الصباح عن جيش، على الرَّغم من ضآلته، إلَّا أنَّه كان محتشدًا بعظمة وشموخ. وفي مقدِّمة هذا الحشد الحربيّ الصغير، كان بدر الدين على متن جواده يواجه جنده بدرع حربيَّة مَهيبة أضفت عليه شيئًا من الرهبة، بعد أن كان أتباعه قد اعتادوا رؤيته دومًا بمُرَقَّعته المهلهلة، وإلى جانبه شيخ يساره مصطفى نور الدين الذي استعاد هيئة أمير الحرب بكامل حزمها وصرامتها، على الرَّغم من أنَّ وجهه كان متجهِّمًا يشوبه قلق بعد أن فشل في إقناع بدر الدين بالأمس بعدم مشاركته في المعركة، قائلًا له: إنَّ هجوم الجيش العثمانيّ الفتَّاك سينصبّ بكلِّ وحشيَّة وبطش على ألف فارس فقط هم قوام جيشه الصغير، إلَّا أنَّ بدر الدين رفض الانصياع لتوسُّل مصطفى قائلًا له بحزم، إنَّ مصيره هو مصير جيشه وأنصاره وأولئك الناس الذين آمنوا بوعوده. فكيف سينكفئ في قلعته ليراقب أحداث المعركة كمَلِك لا يكترث للدماء التي تُراق في سبيله؟

أمَّا طورة، فكان قد انسلَّ في عتمة الليلة الماضية على رأس مجموعة من الأخيار والأتباع من الشباب والفتية، ليستتروا في الغابة

فوق أغصان أشجارها الكثيفة وفروعها.

إنَّه صباح معركة ران في أجواء ترقّبها صمتٌ ثقيل، محمَّلٌ بتطلُّع الجيشين إلى النصر واكتساح أحدهما للآخر. كان جيش حاكم أمير سمسون الضخم مقارنة بهذا الحشد البائس الذي يقف قبالته، معبَّأً بشرعيَّة أسبغها عليه الأمير محمَّد جلبي. جيش بخبرة قائده، وحنكته، وبسالة فرسانه، سيُبيد بدر الدين وجماعته، وسيُخضع سيماونة ويؤدِّب أهلها على تمرُّدهم الأهوج.

في الجهة المقابلة، ومع اقتراب لحظة الوغى والاحتدام، اسْتعدَّ بدر الدين لإحاطة جنده بخطبة حماسيَّة يعزِّز بها إيمانهم بالنصر المنشود. كانت هيئته المَهيبة الشامخة لا تشي بما يعصف في صدره من مشاعر وهواجس هائجة، فهذه هي المرَّة الأولى التي سيلقي فيها كلامًا يؤمن به، وقولًا لطالما أثقل صدره بأمانيه وتطلُّعاته في دروب زمانه ومصائره المتعدِّدة، والتي آلت أخيرًا إلى هذا المصير المتجلِّي في جيشه الصغير. قول يحرسه سيفك يا بدر، فاصدح بالحقِّ وانصر أصحابك بنور كلامك وصوتك الجهوريّ المؤثِّر:

ـ اليوم يومُكم، اليوم حربُكم، لا حربَ غيركم. اليوم ستشهدون نصركم لا نصر الجَوْر والهوان. اليوم ستخطُّون مصائركم بسيوفكم المسلولة في سبيل الحقِّ. وأنتم المنعتقون يا إخوتي من بطش السلطان وظلمه، اصمدوا وأثخنوا وأوغلوا، فهذه ساحة الحرب. خوضوها كأنَّكم تخوضونها للمرَّة الأخيرة، أحاطكم الله برعايته وأنزل عليكم نصره المبين.

ثم صدحت صرخة صاخبة موحَّدة ألهبت حماسة الجيش الصغير وأمير حربه مصطفى، الذي استلَّ سيفه متقدِّمًا بجواده إلى الأمام معلنًا اندلاع المعركة.

لم يكن بدر الدين يعلم بأنَّ مصطفى قد أحاطه بثلاثة من أشجع فرسانه، كي يحرسوه ويردُّوا عنه سيوف جيش شنَّ حربًا في سبيل جزّ عنقه. وأمَّا رهان نجاحه في مباغتة خصمه، فكان سرعةَ استجابة طورة لإشارته القاضية بإطلاق وابل كثيف من السهام على الخطوط الدفاعيّة ومتن الجيش العثمانيّ. وقبل أن يحتدم الالتحام، هذا ما حدث، إذ أمطرت مجموعة طورة مؤخّرة الجيش العثمانيّ بوابل من السهام المسدَّدة بلهفة الانعتاق والتمرُّد، لتُصيب أهدافها بدقَّة ومقتل، فتداعت الصفوف الخلفيَّة العثمانيَّة، الأمر الذي سمح لمصطفى باختراق مقدّمة خصمه، وكسر هلاله الهجومي بتشكيلته العموديَّة المدرَّعة.

وكان موت ودماء وصرخات تعجّ بالمكان؛ الموت في سبيل الحياة. ولمح بدر الدين النصر يَلُوح في الأفق. نصر ألقى الرعب في قلوب الخصوم الذين غرَّهم جيشهم الكبير وجبروت سلطانهم.

ثمَّة صيحات نصر تصدح من أفواه مَن كانوا مقهورين مساكين! صيحات نشوة لم تنطلق من قبلُ من صدورهم، إذ قالها لهم. قال: هذه حربكم، لا حرب سواكم، فانتصروا. فخاضوها حتى النهاية، حاشرين ومحاصِرين بعد نهاية الاحتدام والالتحام، الأميرَ سيسمان ومَن تبقَّى معه من فرسانه المتخبِّطين فوق جثث أصحابهم، وما هي إلّا لحظات حتى أعلن قائد الجيش الاستسلام، إلَّا أنَّ مصطفى اندفع بأمارات حربه ونصره نحوه، وقبل أن يتوسَّل إليه الأمير سيسمان، أغمد سيفه في قلبه، قائلًا بصرامة:

ـ قتلك سلطانك حين أمرك بعنقي وعنق شيخي وصديقي، فإلى الجحيم.

لم يكن مصطفى، والدم يعوي بحقد داخله، ليستمع إلى صراخ بدر المرير، وهو يأمره من بعيد وينهاه عن قتل الأمير:

ـ ما الذي فعلته يا مصطفى؟ ما الذي اقترفته؟

أجاب مصطفى بهدوء شاذّ، وهو ينزع سيفه من قلب غريمه:

ـ ما تراه يا شيخي. هذا الخسيس كان ينشد رأسك ورأسي، فكيف لا يكون جزاءَه القتلُ؟

صرخ بدر بلوعة وهو يتأمَّل جثَّة الأمير:

ـ ولكنَّه استسلم يا شيخ اليسار، استسلم. أخبرني، بالله عليك، فِيمَ نختلف عن سوانا ما دمنا نقتدي بهم.

ربَّت طورة على كتف بدر ليواسيه:

ـ ما عليك، يا شيخنا، فهذه حرب. وقد انتصرنا بها بتوفيق ربّنا وتدبير مصطفى ومباركتك.

رمق بدر مصطفى بحدَّة وعتاب، فأجابه مصطفى مرتبكًا مكسوفًا:

ـ واللهِ ما كنت أقصد في أمري الاقتداءَ بالجَوْر، ولكنَّها فطرة المحارب يا بدر وعُرْفُ حربه. فما عليك، أعاهدك بدماء مَن سقطوا من جندي، بأنَّني سأتخلَّص من طبعي هذا.

ثم دنا من بدر وقبَّل رأسه، ليُعيده إلى أجواء النصر الذي تردَّدت أصداؤه في الأنحاء كافَّة، بما فيها بلاط الأمير العثمانيّ محمَّد جلبي.

بيد أنَّ حسرة بدر الدين بأجواء النصر المبارَك لم تكن بسبب ذلك الأمير الذي قتله مصطفى فحسب، بل تسبَّب بها ذلك الشعورُ الرهيب والغريب الذي انتابه ولفَّه وحجبه عن محيطه. لم يكن نورًا ما جذبه وغاب فيه، بل كانت دماء وويلات.

* * *

الفصل الأخير:
خسوف بدر الدين

وإذا أُذِّنَ في الموت أن قُم فخيِّمْ بظلالك الرهيبة، وامحقِ الناس بعتيك، يعود الكلُّ، والكلُّ يَحِنُّ إلى البدء، لننذر أنفسنا للقوى الخفيَّة، لما نسمو إليه ولا نلمحه؛ لتعود الحياة فينا إلى نذور البدء وتعاويذ المهد؛ لنحيا من جديد؛ لنُميت الموتَ فينا.

وأنت المحاصَر هنا.

انكفأتَ عن الناس المفزوعين، واعتزلت في ظلِّ شجرة مهدك، في بريَّة سيماونة، إذ ترتدّ إلى أصلك؛ أنت الذي في غمضة عين أصبحت رأس العارفين وإمامَ المظلومين والمستضعَفين؛ هذا ما كنت تسعى له يا بدر في غمضة عين. كأنَّ الزمان استحال لحظة، يا سيِّد لحظتك، الذي عَبَرتك أهوالُ الدنيا وعصفت بك وبعثرتك.

ويحك، منذ قليل كنت تلميذًا تُرتِّل القرآن في صحن الأزهر؛ كنت عاشقًا لمكنونة وطربها. منذ قليل كنت تسخر من سلاطين القاهرة

وتبريز مستخفًّا بحظواتهم. كنت تنتفض، ترتعش، تتَّحد بأنوارك. فأين أنت الآن؟

إذ تَعْمَهُ في درب كَسَتْه الدماءُ محفوفًا بما كنت تحاربه. تُهتَ بدمائك يا بدر، والتبست عليك الإشاراتُ والرؤى. أنت العائد من نصر مؤزَّر لم تشهر فيه سيفك، بل أنوارَ مذهبك. أهو مذهب حقًّا، أم بضعة أحلامٍ استحالت واقعًا يجرُّك إلى متاهات تخشاها؟

أنت المحاصَر هنا بعد أن جبت الدنيا وأُمّ الدنيا، ومتَّ وعشت ألفَ مرَّة في ميادينها وقصورها ومجالس سلاطينها وحروبها، هل تصدِّق نفسك وما أنت عليه الآن؟ أنت الذي هربت من أصلك وآهات مهدك ومجاهيله، ها أنت قد عدت إلى سيماونة شيخًا؛ لا، بل معلِّمًا، لا، بل ثائرًا؛ لا، بل ممسوسًا. عدت إليها وطفت تبحث عن قبر أبيك لتزفَّ إليه في لحده آياتِك وحججَك وأنوار علمك؛ لتدقّ رأسك بشاهدة قبره؛ لتُعلمه بأنَّك جبت الدنيا وحزت أصول العلم، ثم عدت إلى أصلك لا لتسير على نهجه، بل لتثور عليه، أنت الذي كنت تقلِّب في تراب أبيك باحثًا عن مثوى لأمِّك. إذ ثقَّفت أصول الدنيا وعلومها ولم تثقِّف أصلًا لأمِّك، سوى طيفٍ شفيفٍ أبيض لم يفارق حلمك منذ أن عدت إلى هنا.

ويلك، فقد عبثت بسُنَّة الدنيا ومحرَّماتها يا بدر، وجابهت جبروتًا عظيمًا دفعتك إليه نوازعُ نورك. عن أيِّ نور تتحدَّث يا هذا؟ أيّ نور؟! من شدَّة ما سطع في أعماقك، عميت متخبِّطًا بين حكمة ودهاء، وطهر وخطيئة. كيف استطعت الانسياق هكذا وراء قهقهات غيب؟ ها أنت قد سفكت في سبيله دماءَ الأبرياء من حولك؛ أولئك المساكين المذعورين هناك في أنحاء سيماونة. في بلدتك أُناس يترقَّبون عودتك إليهم لتطمئنَّ قلوبهم بنصر آخر.

أُولو الدنيا والدِّين أدموك يا بدر. مسُّوا روحك بزيف حجبهم عنك. شوَّهوك. افترسوا فؤادك وتعاليمك، إذ اتَّهموك بالزندقة والكفر وإفساد الناس بمذهب السفور والإباحة والتشارك في المتع والتطاول على هيبة السلطان. قضى علماء السلطنة وفقهاؤها بأنَّك خارج عن الملَّة والدين، بعد أن أوَّلت الدِّين على هواك، وجعلت من ربِّ السماء ربًّا خاضعًا لنورك أنت. أنت لست درويشًا ولا صوفيًّا ولا قُطبَ نور. أنت منافق أفّاق. هكذا لعنوك في أنحاء البلاد، إذ تكالبوا عليك بالحقد والتشويه من كلِّ حدب وصوب. فبقدر الأبرياء، كان الخطاة أوغاد زمانك من الأفَّاقين والمحتالين والمتملِّقين والمنافقين والمفترسين وعبدة السلاطين. جميعهم اجتمعوا ضدَّك، فما الذي كنت تظنّه أنت؟ قل لي، بالله عليك، ما المآل الذي كنت تتوخَّى معانقته سوى هذا المآل؟ مآل أسود مظلم تنزّ من شقوقه الحادَّة دماءٌ صدئة. فأنت قد أقمت مملكة في النهاية؛ مملكة أنت ملكها يا رأس العارفين، يشدُّ أزرك فيها شيخ من يسار وآخرُ من يمين، ومئاتٌ من أتباعك ومُريديك الأوتاد والأخيار والأبدال والنجباء والنقباء، الذين ساحوا في الأرض ليدعوا الناس إلى مذهبك. أنت الذي تريد عدلًا في دنيا زائفة، ومساواةً في بلاد ظالمة، وأخوَّةً في أرض مستبدَّة، ما بالك أنت؟ أجُننت؟! كيف تنهال على ناموس الأمم بخرابك هذا؟ كيف أقنعت أولئك المساكين؟ انظرْ إليهم يا بدر، إنَّهم يرتجفون من شدَّة الخوف في ظلِّ قلعتك وحصنك. انظرْ إليهم، وقل لي بالله عليك كيف أقنعتهم برؤاك حتى الهلاك؟

لم أُقنع أحدًا، بل سعيت نحو الإرادة فيهم؛ إرادة سامية ليسودوا أحرارًا رافضين الذلَّ والهوان، والخضوع لسطوة الأقوياء.

أيُّ سذاجة هذه؟! أيُّ رؤًى استحالت أفخاخًا حادَّة مهلكة أوقعتَ

فيها أولئك المساكين؟ قمْ يا أنت، قمْ، واستيقظْ من سبات عزلتك هذه وانزع عنك أوهام نورك ومُرَقَّعتك، وانزلْ إليهم، وقُلْ لهم إنَّك لست نبيًّا ولا رسولًا، وإنَّك لم تدَّعِ وحيًا. قل لهم إنَّك كنت تحاول السموَّ بحقِّ الله وإقامةَ ميزان العدلَ بين الناس، لكلِّ الناس، ولكن ليس في هذه الدنيا. اذهب وواسِ قلوبهم بمثواهم الأخير. قل لهم إنْ ثمَّة جنَّة في السماء لهم، لا بل جنَّتهم هنا. نعم، اصرخ بي يا بدر، امحقني، اخسفني. اصرخ وقل لي إنَّك لم تكن تريد الحرب والدماء، بل أردت زرع الأحلام في نفوس الفقراء والمستضعَفين. ألم يُنزل ربُّك الحلم على خلقه، فلماذا لا يحلمون؟

ولكن، قل لي بحقِّ السماء، من أنت بعد كلِّ هذه المكابدة والمجاهدة والدماء؟ ألم تعدهم بجنَّة؟ ألم تُسكِّن قلوب الناس بكلام السماء؛ سماء أحلامك؟

بلى، جنَّتهم في نفوسهم، ماذا؟ أيّ هراء هذا؟!

بلى، جنَّتهم في نفوسهم، حيث إنَّني كنت أتوخَّى بعد تملُّكهم مصائرهم، أن أساعدهم على إيقاد شعلة تُنير قلوبهم التي أُصيبت بظلام الجهل والرضوخ؛ إذ إنَّني قلت لهم في حلقات الذِّكْر والنور، قلت لهم أنتم السائرون إلى قلب الله لا تقنطوا من أحلامكم، ولا تفزعوا ممَّا يحفّكم من موت ودماء، بل خافوا من مَواطن الضعف في نفوسكم؛ أَحرقوا خضوعكم، واشتعلوا بتوقكم إلى الحرِّيَّة.

ويحك، كيف سَمَوْت بهم وحلَّقت في فضاء وهمك؟ أصغِ الآن إلى آهات جزعهم وحطامهم. أَصغِ إلى كلِّ ما كنت تخشاه وتتحاشاه وتحاربه.

كنت...

ماذا كنتَ يا بدر؟ قل لي، صرِّح بكلِّ شيء، وأحطني بأسماء

نورك، وجلالة قَدْرك، وسموّ علمك.

كنت أسعى لإحقاق الحقّ داخل نفوسهم.

وكيف هذا يا رأس العارفين؟

قلت لهم: ليس ثمَّة شريعة لإصلاح النفس وخفاياها. العطب لا يُصلحه قانون أو سُنَّة، ولا تُزيله الحرب الظاهرة والسيوف المسلولة، بل الفناء الباطنيّ الذي لا يُبقي آفات النفس وأدرانها؛ فناءُ مكابدة ومجاهدة ينقّي النفس من الخنوع. هذا ما كنت أسعى له، فمن أنت لتحاكمني وترجمني الآن؟ فأنا لم أكن أسعى نحو مملكة أُقيم فيها عرشي وسلطاني وأتلذَّذ بنعيمي. انظر إليَّ، حدِّق فيَّ، هل ترى أمامك ملكًا أم بقايا كائن يكاد يتلاشى من شدَّة الوهن والضعف؟ حدِّقْ وقُلْ لي ما الذي أصبته أنا في عمري الحافل بالمآسي والأحداث والحظوات والغوايات، سوى لمحة نور وإشراقة مسَّت فؤادي وجعلتني أنتفض ثورةً وغضبًا. يتقدَّم بي العمر نحو أرذله بلا أدنى ذُرِّيَّة أو امرأة تسكِّن جزعي وتسلِّي وحدتي وتُؤنس وحشتي.

أنت تدَّعي الزُّهد الآن. تريد أن تتحايل عليَّ بحقِّ تصوُّفك ونورك!

لا واللهِ، لا أدَّعي زهدًا وما نشدت فقرًا، بل أنا فقير لربِّي ولست فقيرًا لسواه. لا أنشد لعنة، إذ لعن الله الجوعَ، والفقر، والتشرُّد، والتبغدد، ونومَ المنتفخين بنعيم حرامهم فوق آهات المستضعَفين. موات في نومهم لا يصغون إلى أوجاع الناس في دروب الدنيا وأهوالها. لا واللهِ، ما نشدت فقرًا للناس، بل خلاصًا من المارقين على كلام الله، فلتَمُتْ قلوب الجائرين. فليخلدوا في أخاديد جحيمهم.

فما الذي أصبتَه في النهاية من وراء نشدانك سوى نصر موقَّت

مهزوز؛ نصرٍ لاحَ للحظاتٍ ثم تلاشى ذعرًا وخشية ممَّا هو قادم من بطش ورعب. ففيمَ تختلف أنت عن الأمير محمَّد. قل لي، بالله عليك؟

أنا عُصبتي من المستضعَفين، وهو عصبته إرثُه وقبيلته وحاشيته المتشبِّثون بنعيم عباءته. لا تقارنِّي به.

بل تشبهه. فأنت أرقت دماءً ليست دماءَك، وسُقت الناس إلى حتفهم بعبث أوهامك، بل ذهبوا إلى حتفهم راضين لأنَّهم كانوا يموتون في سبيل ما يحلمون به ويسعون له، وليس من أجل مساعي غيرهم. وها أنت الآن محاصَر.

بل أنا حرٌّ.

نعم، أنت حرّ، إلَّا أنَّ ثمَّة فرقًا بين أن تدنو أنت من حرِّيَّتك لتعانقها وتأخذها بقوَّة، وأن تدنو هي من حرِّيَّتك لتتَّحد بك. في هذه الحالة ستكون موتك الأكيد.

ومَن قال إنَّني أخشى الموت؟ أنا الذي راقصته، ونازلته، وسخرت منه، وداعبته وولدت منه رغمًا عنه حياةً صارخة بالانعتاق..

ولكنَّك تهت وخضت بدماء غيرك يا بدر. ألا تشعر بفداحة ما فعلت؟

دماءٌ لن تذهب هدرًا ووهمًا، بل ستكون نورًا ونارًا للسالكين دربَ الحقيقة.

أيُّ حقيقة، وأيُّ سالكين؟! فبعد قليل سيغدون هشيمًا.

لا تقسُ عليَّ. كنت أودّ لو كنت أنا دربهم ليدوسوا عليَّ، كي يصلوا إلى حقيقتهم. إنَّ ما أريده للناس يكمن في بواطن نفوسهم، لا لدى حظوة السلطان وبهاء عرشه. أنا لم أهدِّد عرش السلاطين، ولم أعتدِ عليهم.

ويحك، ماذا تقول؟! وهذا الذي أحدثته في سيماونة عندما جمعت الناس وخطبت فيهم، وحدَّثتهم عن أحلامك؛ أحلام في وجه السلطان وجَوْره وبطشه؟!

لا، بل قلت لهم: ثوروا على أنفسكم. هذا ما كنت أتوخَّاه.

وكيف يتحقَّق هذا يا قُطبَ النور؟

أنا باكورة الشرر والرفض. يكفيني أن أُلهمهم؛ أن أعزِّز إيمانهم بقدراتهم.

أيّ قدرات! ستُمحَق بعد قليل؟

وهذا ما يؤلمني ويدميني. لم يُمهلني الأمير محمَّد، إذ تدارك أمري بسرعة عندما أيقن عدم قدرته على محاربتي إذا ما اشتدَّ مذهبي وشأني. كنت أحثُّ الكلام على الامتداد والانتشار. ألفظ قلبي لألقِّنه للناس.

كأنَّ كلامك تعاويذُ يردِّدونها ويلقونها على مصائرهم لتستحيل حياة مفعَمة بالحرِّيَّة والانعتاق!

كلَّا، والله، ما هكذا نسود في الدنيا أحرارًا، إذ كنت أمتطي لحظي سيِّدًا لوقتي. أسابق البوارق واللوامع لأنشر نورًا يُزيل الجهل من نفوس الناس، ولكنَّ محمَّد جلبي لم يمهلني في أمري.

هل تخشى منه؟

لا أخشى الموت، بل أخشى موت تعاليمي في قلوب الناس. أريد وقتًا آخر يا إلٰهي؛ وقتًا مديدًا كي تسود الرؤى في دماء الناس، فأنا لست خالدًا، ولا إلٰهًا، ولا نصفَ إلٰه. أنا فانٍ. فإن كان ثمَّة فناء فليكن في سبيل نصرة المستضعَفين.

هل مسَّك الندم، يا بدر؟

في الطريق إلى الحقِّ، لا يمسّني سوى النور.

أيُّ نورٍ يا هذا؟! أما زلت تعتقد أنَّك في زاويتك التبريزيَّة. انظر حولك في الأرجاء تَرَ أنَّ امتداد نورك لا يسود فيه مُريدوك وأتباعك فقط، بل الأفّاقون والمدَّعون للنور باسمك؛ أولئك الذين انضمُّوا إلى صفوفك عيونًا وقلوبًا خائفة للسلطان يتلصَّصون عليك وينقلون أخبارك إليه. لم تعد في زاويتك يا بدر، فليس ثمَّة أمانٌ هنا ولا طمأنينة. فاتتك أحوالُك وإشاراتك، والتبست عليك عباراتُك، وانفلت الأمر من قبضتك. فأنت لست إلٰهًا كي تُحيط بكلِّ ما حولك. ضاقت عليك الدنيا يا بدر، بما رَحُبت، فأَصغِ إلى قول تتردَّد أصداؤه في الأنحاء، ليبعثرك ويبعثر السلطان والناس وكلَّ المحشورين في رؤاك:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

فارتدِ مُرَقَّعتك الآن وانزلْ إليهم وصبِّرهم وواسِهِم، وقل لهم إنَّك بالغت في رؤاك، فذلك ليس ما كنت تتمنَّاه وترجوه.

حسبك. كيف تثبِّط هممي هكذا بقولك المريع هذا؟ كيف تقسو عليَّ بالنكوص والارتداد والفرار؟ بعد أن سموت بهم وعلوت برؤياي؟

كفاك، يا بدر. كفاك، فالجيش الذي يحاصرك، ويحاصر أمانيك، ومستضعَفيك، وأركان مملكتك، أفراد هذا الجيش ليسوا كأيِّ جيش. إنَّهم الصفوة، يا بدر؛ صفوة الفتك والبطش. الإنكشاريَّة بألوفهم المؤلَّفة، على رأسهم أميرهم بايزيد باشا الذي جاء ليقبض على حلمك وروحك. جاءك بإيعاز من أميره الذي ينتظر فوق عرشه في أدرنة رأسك المدمَّى. الجيش الإنكشاريّ عماد البأس والحرب بفرسانه الرهيبين؛ أولئك الذين نشأوا وترعرعوا في معمعان الحروب على فنون الحرب والفروسيَّة، جاؤوك كما لو كنت خانًا أعظم على رأس جيش جرَّار.

ألهذه الدرجة أغظته يا بدر؟ ويحك، ما الذي أحدثته حتى يحاصرك محمَّد جلبي بجيشه الإنكشاريّ؟ إذ لم يُنذرك. لم يلمِّح بإشارات المساومة والصلح، فأرسل في إثرك المُهْلِكين. وها هم يحاصرونك، يضيِّقون الخناق عليك، متأهِّبين للانقضاض عليك. فما السبيل؟

* * *

كانت سيماونة قد تلاشت عنها هالاتُ النصر السابق، تسود في أرجائها أجواء الترقُّب المشوب بالذعر من حول الجيش الذي يحاصر أهلها واللاجئين إليها، بحيث انفضَّت حلقاتُ العلم والدروس العابقة بمذهب بدر وأصحابه. كانت البلدة خاوية متَّشحة بشبح الموت القاتم، ولم تعد تصدح فيها أبواقُ النصر والانعتاق، بل زفراتُ الجزع والخشية ممَّا ستؤول إليه الأمور، كما لو أنَّ الناس قد استفاقوا لتوِّهم مرهَقين من حلم، راقصوا فيه كلمات بدر الدين وأنوارَه.

في هذه الأجواء المريرة التي سكن فيها الناس إلى بيوتهم وأركانهم، عاد بدر الدين المتلفِّح بمُرَقَّعته إلى مجلسه في القلعة زائغَ العينين، شاحبَ الوجه، على وشك الهلاك. استقبله مصطفى وطورة بلهفة وشوق كما لو أنَّ ما يجري من حولهما من حصار وبوادر هلاك لا يعنيهما أبدًا.

قال له طورة معاتبًا:

ـ طالت غيبتك يا بدر، في هذا الوقت الذي نحن فيه في أمسِّ الحاجة إليك وإلى قربك منَّا.

قال مصطفى وهو يتأمَّل بدرًا بارتباك كأنَّه يتوسَّل إليه:

ـ لقد كنَّا نتشاور أنا وطورة، يا شيخي، في أمر بقائك هنا...

وتوقَّفَ عن حديثه مرتبكًا من حدَّة نظرات بدر التي اخترقت

حديثه، فطالبه بدر، بصوت واهن، باستدراك كلامه.

زفر مصطفى قائلًا بحرارة:

ـ ثمَّة سرداب مهجور منذ أيَّام البيزنطيِّين، يقود إلى نفق سرِّي أسفل سور القلعة الغربي، وكان مُعَدًّا للفِرار؛ أعني لتزويد القلعة بالمؤن في أيَّام الحصار...

قاطعه بدر بصراحة:

ـ وما شأني بسردابك هذا؟

ـ لقد آن الآوان يا بدر. يجب أن ترحل عن سيماونة، فأنا أعلم الناس بالإنكشاريَّة. سينقضُّون علينا بوحشيَّة. وإرسال محمَّد جلبي لهم يعني أمرًا واحدًا فقط: هو إخماد ثورتنا بأيِّ ثمن. ولهذا، يجب أن ترحل يا شيخنا، فلن أقوى على رؤيتهم يفتكون بك وبنا.

عقَّب طورة بحماسة قبل أن يردّ بدر:

ـ سنحبط نيَّاته بدعوة سرِّيَّة نخوضها بعيدًا عن أعينه وجيوشه.

حدَّق فيهما بدر الدين بأسًى وحيرة. كان الصمت كثيفًا مشبعًا بالحسرة ورائحة الفقد؛ حدَّق بدر في طورة؛ تأمَّل وجهه ليلمح ماضيهما معًا في القاهرة وتبريز؛ طورة الذي لم يبارك سُنَّة يحفظ عبرها اسمه فوق الأرض ما دام بدر لم يقتدِ بها. هو الصديق بصمت، والرفيق بإخلاص، والمُريد بوَجْد، تلاشى ليصون بدرًا ويتقن تعاليمه ورؤاه بعيدًا عن حياة عاديَّة ملؤها السعادة والاستقرار في بيت هانئ، برفقة زوجة تحفظ نسله بأبناء من بعده. كان همَّه بدرٌ، ورفقةُ بدر، ومذهبُ بدر، لينصره حتى الموت، حتى الفداء.

ثم أشاح بنظره مبتسمًا نحو مصطفى الذي هجر دنيا بأكملها، من إمارة الجيش، والأزواج، والأبناء، وحياة الترف والجاه في ظلِّ أُولي الأمر. هكذا حوَّل بدرُ الدين مصطفى من سيف ذليل إلى سيف حرّ

وكريم، ليغدو شيخَ يساره وأمانَه. كاد يقول له بدر وهو يحدِّق فيه: انسحبْ يا مصطفى، أَعْلِنْ توبتك. فأنا الكفر في حدِّ ذاته، يا صديقي؛ الكفرُ في عُرْفِ أُولي الدنيا والدين، واذهب من هنا لتعلن توبتك، واقتلني الآن لتفتدي روحك ومالك وأسرتك التي هجرتها لتتبعني. كان بدر على يقين بأنَّ ما يهجس به في سرِّه لن يتفوَّه به في حضرة صديقيه، فهو يهجر الدنيا ولا يكترث لعواقب سادتها، بل يكترث لمصير غامض قد يحرِّره من قيود الخنوع والمذلَّة.

ثم عاد من تأمُّله فيهما، ومن تذكُّر ماضيه برفقتهما، مستعيدًا رباطةَ جأشه في ردِّه على نصيحتهما له بضرورة الفِرار والاختفاء:

ـ وأتخلَّى عن الناس الذين وعدناهم بالنعيم، لنفرَّ متستِّرين بدمائهم التي ستُهرَق بسببنا. ما هذا سوى سبيل الذلّ والخديعة. أنا لا أختفي يا صاحبَيَّ. أنا أتجلَّى بنور علمي ويقيني الإلٰهيِّ.

ردَّ مصطفى بحدَّة:

ـ إنَّك بهذا تُوْدي بنفسك إلى التهلكة.

سأله بدر بسخط:

ـ وأنت، هل ستفرّ، أم ستبقى؟ أجبني.

كان قد أصاب بسؤاله صميمَ قلب المحارب، فأجابه بفخر:

ـ أنا لا أهرب يا بدر، وأنت تعلم هذا جيِّدًا. لن أنسحب. يكفيني انكسارٌ واحد في حياتي، أصلحته أنت، فلا تكسرْني مرَّة أخرى ببقائك. أنا محارب يا بدر. أعشق سيفي كما أوحيت إليَّ أنت، وهذا مصيري الذي رضيت به، ولا خيار لديَّ سوى الرضوخ لروح الفارس فيّ.

توقَّف عن حديثه متأمِّلًا في وجه بدر الشاحب، ثم استدرك بحماسة:

ـ كما أنَّني أصبحت على رأس جيش ازداد وأصبح عدده أكثر من ثمانية آلاف فارس وجندي مخلصين أوفياء، ولن يتخلُّوا عنِّي.

وعقَّب طورة باللهجة ذاتها:

ـ إنَّ جيش مصطفى بمواجهته للإنكشاريَّة سيجنِّب الناس المحشورين هنا المذبحةَ. وإيماننا بالله عظيم بأن يمنَّ علينا بنصر من عنده.

بانت ابتسامة أسًى على محيًّا بدر الذي قال بصوت أجشّ خافت:

ـ عقدتما العزم في غيابي إذن.

ثم نكَّس رأسه في ظلِّ صمتهما، وتنحنح قائلًا بحزم:

ـ واللهِ، ما كنت أسعى لمملكة، ولا مذبحة، ولا حرب، ولا معركة. كلُّ ما كنت أتوخَّاه هو نشر الحقّ بين الناس، وآمل أن أكون قد وُفِّقت. وحقّ صداقتي لكما، ما كنت أرى في أيَّامي السابقة من بوارق الغيب إلَّا مصيرًا واحدًا أوحدَ.

سأله طورة بلهفة:

ـ وما هو مصيرنا يا بدر؟

تنهَّد بحرارة وهو ينظر إليهما، ثم قال بثبات وهدوء:

ـ لقد قمنا بما يتوجَّب علينا القيام به يا أخوَيَّ. لقد تجرَّأنا على البوح بالحقِّ والعدل والعلم والانعتاق. لجأ إلينا مَن لجأ من الناس، هانئين بما أزلناه عن قلوبهم من عَلَق الخضوع والرضوخ. فما الذي كنَّا نسعى له أكثر من ذلك؟ في زمان البطش هذا؛ زمان يموت فيه المساكين من شدَّة صقيع القسوة والسطوة؛ زمان تعاهدنا فيه على أن نكون قرابين الدفء.

اقشعرَّ بدن مصطفى وهو يستمع إلى حديث كَسَتْه بُحَّةٌ تشي

بالخلاص، في حين دمعت عينا طورة متأثّرًا بحديث صديقه وقطبه ومعلّمه بدر الدين محمود، ابن قاضي سيماونة.

* * *

في ظهيرة يوم كانت الأمطار فيه قد اشتدَّت هطولًا، كان جيش من ثمانية آلاف فارس قد احتشد خلف البوَّابة الكبيرة والمنيعة لسور سيماونة وقلعتها؛ جيشٌ على رأسه قائده مصطفى نور الدين بكامل عتاده الحربيّ، ودرعه المتألِّقة بحبَّات المطر، وإلى جانبه كان رأس العارفين متلفِّعًا بمُرَقَّعته الملوَّنة بِمِزَقٍ سود وبيض وزرق، شاذَّة عن المظهر الحربيِّ للجيش، وإلى يمينه كان شيخ اليمين طورة كمال بملابس المعلِّم وعمامته. كانوا على سروج جيادهم، ينتظرون اللحظة التي سيباغتون فيها الإنكشاريَّة عبر فتحهم للبوَّابة الضخمة بأيديهم، كي ينقضُّوا بصرختهم الرهيبة على الجيش الإنكشاريّ الجرَّار الذي كان يُحيط بسيماونة من جميع نواحيها.

ثمَّة أنين خافت قد ساد في الأجواء الماطرة، أحاط بالجيش المستعدّ بصمت مَهيب لمعركته المنشودة. كان أنين ناي انبعث من ركن خفيٍّ من أركان سيماونة يعزف لحنًا مسَّ بشجنه قلوبَ الجند وفرسانَ الجيش، بينما كان مُريدو بدر الدين وأخياره وأهل سيماونة وكلّ الذين لجأوا إليها من القرى المجاورة، قد حبسوا أنفسهم في قلعتها ومساجدها وكنائسها بعد أن طالبهم بدر بذلك، مطمئنًا قلوبَهم، وليصون دماءهم من شرِّ المذبحة.

لم يخطب بدر الدين في جنده ملهبًا سرائرهم. كان يكفيه احتشادهم واصطفافهم خلفه أوفياء مخلصين لعهده وعهد أمير حربهم مصطفى. وما إن شُرِّعت البوَّابة حتى صرخ صرخته الحادَّة التي بعثت في نفوس جنده الإقدامَ والحماسة. كانت صرخة انبعثت من أعماقه الثائرة.

ثم اندلعت المعركة التي حطَّم فيها مصطفى بخطَّته المفاجئة طليعةَ الجيش الإنكشاريّ، على حين غِرَّة، إذ تجلَّى مُراد الجيش الثائر بإمعانه في القتال ببسالة. كان قتالًا عظيمًا متشبِّثًا بالحياة.

وكانت الغلبة لجيش بدر الدين، بعد أن تحقَّق هدف عزل متن الجيش الإنكشاريّ عن مقدِّمته، في الوقت الذي أحاط فيه مصطفى طورة وإمامه المتلفِّع بمُرَقَّعته كما لو أنَّه كان خارج لحظة المعركة يراقبها من علٍ، بنخبة من فرسانه ليذودوا عنهما سيوفَ الإنكشاريَّة.

كانوا يقاتلون بشراسة وشجاعة، وكان مصطفى يصرخ بجنوده مزمجرًا، غير أنَّه في سريرته وأعماق قلبه، هو الضليع بشؤون الإنكشاريَّة الحربيَّة، كان يعلم بأنَّ انقضاضه المباغت سيباد بعد لحظات، عندما يتماسك الجيش الإنكشاريّ أمره ويُعيد تنظيم صفوفه، لينقضّ بتشكيلاته الرهيبة الفتَّاكة على الجيش الصغير. ثم انقلبت المعركة، واشتدَّت، وضاقت وزمجرت، وعصفت، وشُدِّد الخناقُ على جيش مصطفى الذي أخذ يتبعثر أشلاءً وجثثًا دامية، إذ انقضَّ الإنكشاريُّون بلا هوادة ولا أدنى رحمة. لم يرحموا مستسلمًا ولا متقهقرًا. أخذوا في إخماد أنفاس الجيش الصغير الذي لم يخذل شيخه وأميره، ثم ضاقت الدائرة أكثر لتغدو حصارًا محكمًا.

كانوا بضع عشرات من أشدّ الفرسان وأشجعهم يحاربون بأنفاسهم الأخيرة، يحيطون بشيخهم وإماميه رافضين الاستسلام، إلى أنَّ صدح في أجواء المعركة صوتُ بوق بنغمة معيَّنة، وحده مصطفى في الثلَّة المحاصَرة والمنهَكة كان يعرفها، إذ كانت نغمة تُفيد بتوقف القتال والتحوُّل إلى تشكيلة دفاعيَّة من قبل الإنكشاريّين، ثم هدأت قرقعة المعركة وصليل سيوفها:

ـ أنا بايزيد باشا، أفرض عليكم الهزيمة والاستسلام. فعلى بدر

الدين محمود، ومصطفى نور الدين، وطورة كمال، الخروج من بين الصفوف الآن.

كان ردُّ الحشد المحاصَر على هذا النداء واحدًا وحاسمًا، إذ عاد الفرسان إلى عهد سيوفهم يحاربون بها، يحمِّسهم في ذلك قائدُهم مصطفى، إلى أن تناقص عددهم أكثر، متهاوين أسفل الرماح والسيوف الإنكشاريَّة. وفي ظلِّ رفضهم الاستسلامَ وإحاطتهم بشيخهم وإماميه اللذين لم يُمَسّا بأدنى سوء، باغتهم الإنكشاريَّة بإلقاء شباكٍ ضخمة من حبائلَ ثخينة على الحشد الصغير المتهالك، فأعجزتهم تلك المباغتة وأطاحتهم عن جيادهم. كانوا بضع عشرات من أصل ثمانية آلاف قضوا وفاءً وإخلاصًا لقائدهم. وما إن شلَّت الشباك قدرتهم حتى انقضَّ فرسان الإنكشاريَّة عليهم، فألقوا القبض عليهم جميعًا، وقيَّدوهم بشراسة، بحبائلَ ثخينة وسلاسلَ حديديَّة. تزامن ذلك مع انفراجة في صفوف الجيش الإنكشاريّ المتراصَّة حول الثلَّة المتبقِّية من جيش بدر الدين، إذ انحنت الصفوف مفسحة الطريق لبايزيد باشا، القائد الرهيب للجيش الإنكشاريّ، والذي تقدَّم على متن جواده الأسود بكلِّ أنفة وشموخ. كانت درعه وخوذته الحديديَّتان بلونهما الفضِّي، توحيان برهبته وقوَّة شكيمته. لجم جواده من دون أن يترجَّل عنه، ثم صاح بحزم وصرامة:

ـ هل هذا الذي يرتدي مُرَقَّعة الأفَّاقين هو بدر الدين؟

سرت همهمة سخط في الكومة الموثَّقة المتهالكة أسفله، فابتسم بايزيد ابتسامة صفراء شامتة وهو يحدِّق في بدر الدين الذي كان يفترش الأرض متَّكئًا على طورة، ثم قال بحزم:

ـ لا تَخَفْ لن أقتلك، فمولاي الأمير يريدك حيًّا. اجلبوه إليَّ.

انقضَّ عليه فارسان وجرَّاه إلى بايزيد الذي قال له بصرامة وهو ينحني عليه:

ـ سأجعلك تشهد عواقب فتنتك الآن.

ثم انتصب آمرًا بحزم وهو يشير إلى مصطفى الموثَّق بسلاسل حديديَّة أدمت جسده بإطباقها عليه:

ـ أجلبوا إليَّ هذا؛ أميرَ الحرب المرتدَّ؛ وذلك الآخرَ، عدوَّ الله؛ طورة كمال. هيَّا.

وما إن ألقيا بهما أسفله، حتى ترجَّل عن جواده بثبات من دون أن ينبس بكلمة، ثم استلَّ سيفه وأغمده من دون أن يرمش له جفن في صدر مصطفى الذي شهق متمتمًا بخفوت، ثم جحظت عيناه والدماء تفور من صدره، وتسيل من فمه، إلى أن تهاوى جثَّة هامدة. وقبل أن يُدرك طورة حسرته على صديقه، كان ثمَّة سيف آخر قد هوى على عنقه فقطعه، ليسقط رأسه فوق جثَّة مصطفى، ثم أخذ جسده ينتفض بشدَّة للحظات والدماء تفور من منبت رأسه. ثم أشار بايزيد بيده إلى أحد فرسانه، فاندفع نحو جثَّة مصطفى، وجزَّ رأسه، ثم قبض عليه وعلى رأس طورة من شعريهما يقطران دمًا، وناولهما لبايزيد باشا، الذي انحنى بجذل وقرَّبهما من بدر ملوِّحًا بهما بكلتا يديه. حدَّق فيهما بدر متمتمًا برباطة جأشٍ درأت عنه قشعريرة الموت ورهبته، وهو ما أغاظ بايزيد الذي لكمه بالرأسين، وهو يهمهم بغضب، لكمًا عنيفًا أطاح وعيه.

* * *

في هول ما جرى وسرعة حدوثه، قال مَن ينثر القول من الناس، إنَّ بدر الدين احتجب، ثم تجلَّى في شرق الدنيا مشرَّدًا في فيافيها ودروبها، يرتدي جبَّة من صوف، ويتمنطق مخلاة فيها طاسة ماء. وقال

أيضًا إنَّ الذي ظهر مقيَّدًا مهزومًا تحت أقدام الإنكشاريَّة لم يكن هو، بل أحد مُريديه كان قد تنكَّر في مُرَقَّعته. ومن الناس من قال إنَّ بدر الدين أُقيم عليه الحدُّ في إثر لقائه الأمير محمَّد جلبي، وعُلِّق رأسه على أسوار بروسة. ومنهم من قال إنَّه تمكَّن من الفرار من سيماونة عبر نفقٍ سرِّيٍّ أسفل سورها. ومنهم من قال إنَّه ارتدَّ عن مذهبه، وأعلن توبته متذلِّلًا إلى الأمير بعد أن أفحمه فقهاء بروسة وعلماؤها في مناظرة دينيَّة اكتشف في إثرها ضلالَه وزندقته وفتنته.

وأمَّا الذي جرى في أدرنة في اليوم الذي أعقب وأد ثورة بدر الدين وإبادة جيشه، فقد وصفه أحد القوَّالين في جلسة سماع لفَّها أنين ناي، هكذا:

وهو المقبل على عود المشنقة التي نُصبت في ميدان أدرنة الكبير أمام حشد هائل من الناس، جاؤوا ليشهدوا معجزة قد تسطع من دمه أو مُرَقَّعته لتنجِّيه من الموت المحدق به. كان رثَّ الهيئة بمُرَقَّعة بالية، أشعثَ الشعر واللحية، كالح الوجه، عيناه زائغتان، نحيلًا نحول الموت، يداه موثَّقتان إلى الخلف، يتقدَّم نحو المشنقة بخطوات ثابتة بطيئة يرافقه جلَّاد الموت الملثَّم بلثام أسود، لا ينبس ببنت شفة. يتوقَّف، يستدير، يتأمَّل الناس بعمق وصمت ينافي هرجهم وهمهماتهم، يحدِّق فيهم لعلَّه يعثر بينهم على أولئك الذين بعث في نفوسهم التوقَ إلى الانعتاق، فتَلُوح على وجهه الشاحب ابتسامةٌ خفيفة. ينكزه الجلَّاد، ويجذبه نحو المنصَّة. يرتقيها، ثم يضع الجلَّاد حبل المشنقة حول عنقه. يتمتم في خفوت. ماذا يقول؟ ما الذي يتجلَّى له الآن؟

ثم يدفع الجلَّادُ المنصَّةَ الخشبيَّة. يرتعش الجسد المعلَّق للحظات، ثم يخسف بدر الدين.

تعقيب تاريخي

ما سعيت لكتابته يجافي، في جوهره، ما ذكرته. بضعة سطور حُشرت في متون التاريخ الذي كتبه الكتبة بجبروت السلاطين، وحفظه الورَّاقون بمجلَّدات المجد البائد. وعليه، فإنَّني أدعوكم، قرَّائي الأعزَّاء، إلى قراءة هذه السطور التالية، والتي عثرت عليها في بعض المصادر التاريخية:

المصدر الأوَّل:

«تاريخ العرب من بداية الحروب الصليبيَّة إلى نهاية الدولة العثمانيَّة» (عيسى الحسن، الأهليَّة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2008، عمّان):

«وظهر زمن السلطان محمَّد شخص يسمَّى بدر الدين انتحل صفة علماء الدين الإسلاميّ، وكان في جيش موسى أخي السلطان محمَّد، وتولَّى منصب قاضي العسكر أعلى مناصب الدولة العثمانيَّة وقتئذ،

وكان هذا القاضي قد احتضنه موسى بن بايزيد.»

قال صاحب «الشقائق النعمانيَّة»: «الشيخ بدر الدين محمود بن إسرائيل.. المشهور بابن قاضي سيماونة، وُلد في قلعة سيماونة في بلاد الروم إحدى قرى أدرنة التي تقع في الجزء الأوروبيّ من تركيا، كان أبوه قاضيًا لها وكان أيضًا أميرًا على عسكر المسلمين فيها وكان فتحُ تلك القلعة على يده أيضًا.. ولادة الشيخ بدر الدين كانت في زمن السلطان الغازي خداوندادكار (مراد الأوَّل) من سلاطين آل عثمان، ثم أخذ الشيخ العلم في صباه عن والده.. وحفظ القرآن العظيم وقرأ على المولى المشتهر بالشاهدي، وتعلَّم الصرف والنحو عن مولانا يوسف، ثم ارتحل إلى الديار المصريَّة وقرأ هناك مع (أيمزمل) السيِّد الشريف الجرجاني، على مولانا مبارك شاه المنطقيّ المدرِّس بالقاهرة، ثم حجَّ مع مبارك شاه وقرأ بمكَّة على الشيخ الزيعلي، ثم قَدِم القاهرة، وقرأ مع السيِّد الجرجاني على الشيخ أكمل الدين (البايبوري) وقرأ على الشيخ المذكور (أي تعلَّم وتتلمذ على يد الشيخ بدر الدين) السلطان فرج ابن السلطان برقوق ملك مصر.

ثم أدركته (أي الشيخ بدر الدين) الجذبةُ الإلٰهيَّة، والتجأ إلى كنف الشيخ سعيد الأخلاطي الساكن بمصر وقتئذ، وحصل عنده ما حصل (أي أصبح مُريده). وأرسله الشيخ أخلاطي إلى بلدة تبريز للإرشاد (الصوفيّ) يُحكى أنَّه لمَّا جاء تيمورلنك تبريز... نال (أي بدر الدين) من الأمير المذكور (تيمورلنك) مالًا جزيلًا بالغًا إلى نهايته، ثم ترك الشيخ الكلّ ولحق ببدليس، ثم سافر إلى مصر.. ثم إلى حلب.. ثم إلى قونية، ثم إلى تبرة من بلاد الروم، ثم دعاه رئيس جزيرة ساقز (وهو نصرانيّ) فأسلم على يدي الشيخ.. ثم لمَّا تسلطن موسى من أولاد عثمان الغازي نصَّب الشيخ (أي جعل الشيخ بدر الدين) قاضيًا

لعسكره، ثم إنَّ أخا موسى (محمَّدًا) قتل موسى وحبس الشيخ مع أهله وعياله ببلدة أزنيق.

وفي أزنيق ـ وهي مدينة في تركيا ـ بدأ الشيخ بدر الدين محمود ابن إسرائيل يدعو إلى مذهبه الفاسد، فكان يدعو إلى المساواة في الأموال، والأمتعة، والأديان، ولا يفرِّق بين المسلم وغير المسلم في العقيدة، فالناس أخوة مهما اختلفت عقائدهم وأديانهم وهو ما تدعو إليه الماسونيَّة اليهوديَّة، وانضمَّ إلى هذه الدعوة الباطلة كثيرٌ من الأغبياء والجَهَلة، وأصحاب الأغراض الدنيئة، وأصبح للمفسد بدر الدين تلاميذُ يدعون إلى منهجه ومذهبه، ومن أشهر هؤلاء الدعاة شخص يُسمَّى (بيرقليجة مصطفى)، وآخر يُقال إنَّه من أصل يهوديّ هو (طورة كمال).

وشاع أمر هذا المذهب الفاسد، وكثر أتباعه، وتصدَّى السلطان محمَّد جلبي لهذا المذهب الباطل، وأرسل أحد قوَّاده على رأس جيش كبير لمحاربة بدر الدين، وللأسف قُتل القائد سيسمان الذي أرسله محمَّد جلبي على يد الخائن (بيرقليجة)، وهُزم جيشه، وأعدَّ السلطان محمَّد جلبي جيشًا آخر بقيادة وزيره الأوَّل (بايزيد باشا)، فحارب (بيرقليجه)، وانتصر في موقعة (قره بورنو)، وبعدها أُقيم حدّ الحرابة على بيرقليجة مصطفى.

واستمرَّ الشيخ بدر الدين في غيِّه وظنَّ أنَّه سيتمكَّن من البلاد بسبب ما تمرُّ به من حالة تمزُّق كامل وفوضى ضربت بأطنابها في كلِّ أرجاء البلاد، وكان بدر الدين يقول: «إنَّني سأثور من أجل امتلاك العالم وباعتقاداتي ذات الإشارات الغيبيَّة سأقسم العالم بين مريدين بقوَّة العلم وسرِّ التوحيد، وسأبطل قوانين أهل التقليد ومذهبهم وسأحلِّل باتِّساع مشاربي بعض المحرَّمات».

وكان أمير الأفلاق (في رومانيا) يدعم بدر الدين هذا ماديًّا وعسكريًّا وكان السلطان محمَّد جلبي متصدّيًا لهذه الدعوة الفاسدة بالمرصاد وضيَّق عليها الخناق، حتى اضطر بدر الدين أن يعبر إلى منطقة دلي أورمان (في بلغاريا الآن) يقول محمَّد شرف الدين في مسألة توجُّه الشيخ بدر الدين إلى دلي أورمان: «إنَّ هذه المنطقة وما يُحيط بها من مناطق هي مأوى الباطنيَّة وهي منطقة تعجّ باتّباع ثورة بابا إسحق التي قامت ضدَّ الدولة العثمانيَّة في منتصف القرن السابع الهجري، وإنَّ توجُّه الشيخ بدر الدين إلى هذا المكان وتمكُّنه من جمع الآلاف المؤلَّفة من المؤيِّدين له ولحركته من هذه المناطق لفيه الدلالة الكافية لاختيار الشيخ لهذا المكان بالذات.»

وفي دلي أورمان بدأت المعونات الأوروبيَّة تفد إلى الشيخ، واتَّسع نطاق الثورة ضدَّ السلطان العثماني محمَّد الأوَّل، ووصلت فلول أتباعه إلى ما بين سبعة إلى ثمانية آلاف مقاتل.

وكان السلطان محمَّد الأوَّل يتابع الأمور بحذر ويقظة ولم يكن غافلًا عمَّا يفعله الثوَّار، وقام السلطان بنفسه لحرب الشيخ بدر الدين، وكان على رأس جيش عظيم في دلي أورمان.

اتَّخذ السلطان محمَّد من سيروز (في اليونان الآن) مركزًا لقياداته. وأرسل قوَّاته إلى الثوَّار فهزمتهم، وتوارى زعيمهم بدر الدين الثائر بعد هزيمته في منطقة دلي أورمان فِرارًا من السلطان. واستطاعت مخابرات السلطان محمَّد الأوَّل أن تخترق صفوف الثوَّار وأن تكيد مكيدة محكمة وقع على أثرها زعيم الثوَّار المبتدع بدر الدين في الأَسر. وعندما قابل السلطان محمَّد الأوَّل بدر الدين قال له: ما لي أرى وجهك قد اصفرّ؟ أجابه بدر الدين:

إنَّ الشمس يا مولاي تصفرّ عندما تقترب من الغروب.

وقام علماء الدولة بمناظرة علميَّة حرَّة مع بدر، ثم أُقيمت محكمة شرعيَّة وأُصدر حكم الإعدام بناءً على فتوى العلماء.»

المصدر الثاني:

«تاريخ الدولة العليَّة العثمانيَّة» (فريد بك المحامي، تحقيق الدكتور إحسان حقِّي، دار النفائس، الطبعة التاسعة، 2003، بيروت).

«وظهر في أيَّام هذا الملك شخص يُسمَّى بدر الدين من العلماء المشهورين في ذلك الوقت، وكان معيَّنًا بوظيفة قاضي عسكر في جيش موسى أخي السلطان محمَّد، وبعد انهزام موسى.. أُلزم بالإقامة في مدينة (أزنيك)، ثم هرب منها وبدأ في نشر مذهبه المؤسَّس على المساواة في الأموال والأمتعة. وهذا المذهب أشبه شيء بآراء بعض اشتراكيي هذا الوقت. فتبعه خلق كثير من المسلمين والمسيحيِّين وغيرهم لأنَّه كان يعتبر جميع الأديان سواءً ولا يفرِّق بينها، بل كان عنده جميع الناس أخوة مهما اختلفت مذاهبهم وأديانهم. واستعان في نشر مذهبه هذا بشخص يُدعى (بيرقليجة مصطفى) وآخر يُقال إنَّ أصله يهوديّ واسمه (طورلاق كمال). واشتهر أمرهم بسرعة وكثر عدد تابعيه حتى خِيفَ على المملكة العثمانيَّة من امتداد مذهبه فأرسل إليه السلطان محمَّد القائدَ سيسمان.. فظهر عليه بيرقليجة وقتله.

ولمَّا علم السلطان بذلك جمع الجيوش وأرسل وزيره الأوَّل المدعوّ بايزيد باشا لمحاربة هذه الفئة فصار إليها وقابل مصطفى في ضواحي أزمير فحاربه في موقع يُقال له (قرَّه بورنو) وقهره وأخذه أسيرًا، ثم قتله وكثيرًا من أتباعه.

وفي هذه الأثناء ضُبط بدر الدين في بلاد مقدونيَّة بعد مقاومة شديدة وشُنق في سنة 1417 ميلادي.»

مراجع وقراءات ذات صلة

1 ـ تاريخ الدولة العليَّة العثمانيَّة: فريد بك المحامي.

2 ـ تاريخ العرب: عيسى الحسن.

3 ـ تاريخ دولة المماليك في مصر: السير وليم موير.

4 ـ تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام: محمَّد سهيل طقُّوش.

5 ـ تاريخ الإسلام: حسن إبراهيم حسن.

6 ـ الدولة العثمانيَّة: عوامل النهضة والسقوط: محمَّد علي الصلابي.

7 ـ القدس في التاريخ: منشورات الجامعة الأردنيَّة.

8 ـ القدس في الجغرافية الروحيَّة الإسلاميَّة: محمَّد جمال باروت وشمس الدين كيلاني.

9 ـ القرآن الكريم.

10 ـ ذيل الخطط المقريزي: عبد الحميد بك نافع: تحقيق خالد عزب ومحمَّد السيِّد حمدي.

11 ـ مروج الذهب: المسعودي.
12 ـ مقدّمة ابن خلدون.
13 ـ صحيح أحداث النهاية وفتن آخر الزمان: محمَّد الزغبي.
14 ـ في التصوُّف الإسلاميّ: غريب محمَّد علي.
15 ـ الصوفيَّة في الإسلام (أنثولوجيا)، جمع وتقديم وتعليق: سارة سويري.
16 ـ طبقات الصوفيَّة لأبي عبد الرحمٰن السلمي، تحقيق: نور الدين شريبة.

يصاحبُ الروائيّ الأسير،
باسم خندقجي، البطل الصوفيّ بدرَ الدين
في رحلة تمرُّده، مقارعًا الفسادَ ووعّاظَ السلاطين،
مثقّفًا متسائلًا: ما فائدةُ العلم بلا كرامة؟ مدركًا "أنّ النور لا يُحبس في الولاء"، رافضًا التذلُّل ولعبَ دور الببغاء. لكنَّ بدر الدين هذا، هو إنسان، قبل هذا وبعده؛ إنسان لا ينجو من الانقلاب على نفسه، حين تداهمه خسائرُ الفقدان؛ وإنسانٌ حين يعود ويلملم شتاتَ نفسه متحدِّيًا نفسَه والعالم المظلم، فيخرج من الذاتيّ ويوغل في التاريخ الموازي وأحوال ناسه: من القاهرة بسحرها وغناها وعلْمها ومؤامرات قصورها، إلى تبريز، مرورًا بأماكن أخرى وبشر.

يتأمَّل باسم خندقجي في هذه الرواية التاريخيَّة معنى القوَّة في معادلة العدل، ومعنى النصر في ظلِّ الدمار وسفكِ الدماء. يتأمَّل الشغف، العلْم، النور، الرؤيا، الحبّ، وحال البشر في تنوُّع أجناسهم وأحلامهم وأديانهم، وطموحات تلتهم أصحابها كما يلتهمون أعداءهم.

أن يذهب شاعر وروائيّ فلسطينيّ مثل باسم، على الرَّغم من ظلمة زنزانته، لعناق النور في روح متصوِّفةٍ، وعناقِ التسامح والحبِّ والجمال الذي يملأ قلبَ بدر الدين وقلوبَ مريديه، فإنَّ ذلك يعني أنَّ السجّان لن ينتصر، على الرَّغم من كلِّ الوحشيّة. وباسم، بهذا، صورةٌ لروح بطله، وشوقُ هذه الروح إلى كلِّ ما هو جميلٌ وحرّ.

إبراهيم نصر الله

ISBN: 978-9953-89-645-8
9 789953 896458
دار الآداب
بيروت - لبنان
هاتف:1795135– 1861633 (961+)

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

مكتبة نوميديا 222
Telegram@ Numidia_Library